معارك العرب
منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج

معارك العرب 18

اسم الموسوعة : معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام وحتى حروب الخليج

اسم الكتاب : عصر الإمارة المعنيّة

المؤلّف : العميد الركن أبو طلال الفغالي

قياس الكتاب : 20x28 سم

عدد الصفحات : 240

عدد صفحات الموسوعة : 5920

مكان النشر : بيروت – لبنان

دار النشر والتوزيع : دار نوبليس

تلفاكس : 961 1 58 34 75

هاتف : 961 (1) 58 11 21 - 961 (3) 58 11 21

بريد إلكتروني : NOBILIS_INTERNATIONAL@hotmail.com

الطبعة الأولى : 2007

العميد الركن أبو طلال الفغالي

ماجستير في التاريخ

معارك العرب

منذ ما قبل الإسلام

وحتى حروب الخليج

المجلّد (18)

عصر الامارة اليمنية

NOBILIS
2007

الباب الأول

مدخل إلى حروب ومعارك

الأمير فخر الدين المعني الثاني

(١٥٩٠ - ١٦٣٥)

المقدّمة

يرجع تاريخ لبنان الحديث إلى الأمير فخر الدين المعني الأول وهو الرابع عشر من أمراء بني معن، وأولهم الأمير معن الأيوبي الذي أتى إلى هذه البلاد السنة ١١٢٠ وضرب خيامه في بلاد الشوف، وهي يومئذٍ تكاد لا تكون مأهولة بالسكّان. «ثمّ ترك الخيام وبنى المنازل وصار يحثّ قومه وأصحابه على البناء حتى كثر السكان».

يوم غزا السلطان العثماني سليم الأول سوريا السنة ١٥١٦، وانتصر على المماليك في مرج دابق، كان الأمير فخر الدين الأول يتولّى الحكم في لبنان، فمضى، على رأس وفد كبير من الأمراء للسلام عليه في دمشق، وقد ألقى بين يديه دعاء شائقاً فأحبّه السلطان لجسارته وقرّبه إليه وأقرّه على إمارة لبنان وجعله مقدّماً على الجميع. وإذ اطمأن الأمير على مصيره مضى في تعمير بلاده وتحصينها، «فمدّ سلطانه من حدود يافا في فلسطين إلى طرابلس». ولم ينل بسوء حتى وافته منيته السنة ١٥٤٤، فخلفه ابنه قرقماز الذي نهج نهج والده السليم فعمّ الإزدهار هذا البلد الصغير. وكان ان عظم بطش السلاطين العثمانيين واشتدّت وطأتهم. فباتوا ينظرون، وهم في بلبلتهم، بعين الكره إلى لبنان الناهض، فسعوا إلى إخضاعه لسيطرتهم بكلّ وسيلة.

حاولوا إثارة الفتن الداخلية فما نجحوا، فجردوا جيشاً كبيراً احتلّ الجبل ومارس الإرهاب على الشعب. ومات قرقماز مغلوباً على أمره، واضطرّ ولداه فخر الدين الثاني ويونس إلى التخفي مع والدتهما الست نسب في انتظار غد أفضل.

لما اشتدّ ساعد فخر الدين الثاني قرّر استعادة استقلال الإمارة، فوحّد الكلمة بين الطوائف والأسر ونظّم الجيش ووسّع البلاد وبنى الحكم على قاعدتي القومية والكفاءة، وراح يتحرّر شيئاً فشيئاً من نفوذ الاستانة. وكانت للأمير فخر الدين كرامة جلّى في لبنان لأسباب عديدة، منها ترفّعه عن التعصّب الديني وإحلاله المصلحة الوطنية والقومية فوق كلّ اعتبارات أخرى. لكن ردّة الفعل العثمانية، هذه المرّة، جاءت أشد وأعنف، فاحتلّت جيوش السلطان لبنان وأرغمت فخر الدين على الهرب فسافر إلى اوروبا، يستعين بحلفائه هناك على هؤلاء الطغاة.

بعد غياب خمس سنين في توسكانة – إيطاليا، عاد الأمير العربي اللبناني إلى عرينه لبنان واستأنف القتال، لكن جيشه الباسل هزم من جديد أمام الجحافل الهائلة بعديدها وعتادها. إنما فكرة الاستقلال للبنان الموحّد الكلمة التي زرعها الأمير فخر الدين في نفوس مواطنيه لم تمت، بل نمت مع الأيام وتأصّلت في ظل الظلم وأثمرت.

لقد حكم الأمير على قاعدة القوميّة والكفاءة لا على أساس الدين والمحسوبية، وجعل غايته طيلة مدة حكمه توسيع حدود البلاد ونزع سيادة الدولة العثمانية عن لبنان. فحاربها في سبيل إدراك تلك الغاية حروباً طويلة وعقد تحالفات مع أوروبا بغية مواكبة تطوّر الحضارة الأوروبية.

وعلم فخر الدين أن القوّة هي محور كلّ عمل، فنظّم جيشاً يضارع أرقى جيوش ذلك العهد عدّة وعدداً ونظاماً. إنما لم يفته أن أساس الملك هو العدل فأجراه في البلاد على يد رجال أحسن اختيارهم فكانوا عند ثقته بهم. ولما استوثق من مناعة جيشه أبرز نياته إلى حيّز العمل فزحف بجيشه على الولايات المجاورة فاكتسحها واستولى عليها. ومن المأثور عنه في ذلك قوله «فكلّما تملّكنا بلاداً نتقوّى برجالها وأموالها وننتقل إلى غيرها». فكيف قاتل جيش فخر الدين الأعداء في الداخل والخارج؟ هل كان الأمير قائداً عسكرياً فذّاً وعبقرياً أم أن الحظ خدمه أولاً ومن ثمّ تخلّى عنه في النهاية، لينتهي مشرّداً ومتهوّراً في عاصمة السلطنة العثمانية، ليقتل خنقاً مع أولاده بيد مماليك عبيد هربت الرحمة والشفقة من نفوسهم!

الفصل الأول
التنظيم العسكري المملوكي

١ - توطئة

قبل الشروع في درس التنظيم العسكري العثماني لا بدّ من القاء نظرة خاطفة على التنظيم العسكري للدولة التي حاربها هؤلاء العثمانيون وانتصروا عليها، أي دولة المماليك.

لقد درج المؤرّخون على تقسيم العهد المملوكي إلى قسمين: دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجيّة. ومن الواضح أن المماليك كانوا ارقاء دأب الملوك الأيوبيون على شرائهم من أسواق الرقيق لاغناء عديد الجيوش لديهم، ثمّ قد توسعوا جداً في هذا الصدد وجعلوا الجيش حكراً على الارقاء فقط. والارقاء كانوا ذكوراً وإناثاً، فالذكور للخدمة العسكرية والإناث لتزويجهن من أفراد الجيش كي يبقى هذا الجيش منيعاً ومتميزاً عن باقي السكان. وكان هؤلاء من جنسيات مختلفة كالأتراك والشركس واليونان والأكراد والتركمان، إنما الأفضلية كانت للعنصر التركي.

كان السلطان يشتري الأرقاء ويوزّعهم على الثكنات العسكرية ليدرّبوا تدريباً عنيفاً على فنون الفروسية والقتال في الحروب وكان الانضباط العسكري الأساس ومصدر القوة الرئيسية للجيش. ولكن مع الأيام كثر عدد الارقاء وانخفض مستوى التعليم والتدريب العسكريين في المواقع والثكنات

ونخر الفساد جسم الجيش المملوكي وذهب عز الانتصارات الحربية.(١)

٢ - فئات المماليك

يمكن تقسيم المماليك إلى فئات عدّة، من أبرزها:

أ - المماليك السلطانية:

تشمل هذه الفئة المماليك الكتابية، أي الصغار الذين يشتريهم السلطان من ماله الخاص أو من بيت مال المسلمين ويعمل على تربيتهم التربية العسكرية الصارمة ليكونوا عماد الجيش ومن هؤلاء ينتخب الأمراء إجمالاً.

أما الفئة الثانية فهي مماليك الأمراء، أي المماليك الذين يقتنيهم الأمير وفق منزلته ومرتبته، فهم جيشه وخدمه، ولا يسمح لهم بدخول الثكنات العسكرية لأن مهارتهم القتالية متدنية، لذلك اعتبروا أدنى درجات المماليك، ونادراً ما سمي أحد منهم أميراً.

أما الفئة الثالثة فهم مماليك أجناد الحلقة ويقسمون إلى قسمين: القراصنة، أي مماليك السلاطين المتوفين، والسيفية، وهم مماليك الأمراء المتوفين وأولاد الناس. وقد شكّلوا قوّة عسكرية مهمة ولكنها غير متجانسة وكانوا يحصلون على الاقطاعات يرتزقونها، بعكس المماليك السلطانية الذين يحصلون على رواتب شهرية.

ب - قادة الجند - الأمراء:

شكّل المماليك الأمراء القادة العسكريين والإداريين في الدولة، وكانوا على درجات في الرتب:

أولاً - أمير مئة ومقدّم ألف: هي أعلى رتبة عسكرية وإدارية. ويحق لهذا المقدم أن يشتري من ماله الخاص مئة مملوك ويربيهم كما يربي السلطان مماليكه، ولا يحق لهم دخول الثكنات. وكان الأمير يقود في أيام الحرب ألف مملوك من أجناد الحلقة ومن المماليك السلطانية لذلك سمي «مقدم ألف».

---

(١) ضومط انطوان، الدولة المملوكية: التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الثانية، ص ٤٨.

ثانياً - أمير أربعين: يلي مرتبة أمير المئة ويحق له شراء أربعين مملوكاً من ماله الخاص. ويجوز أن تقرع له الطبول أمام منزله صباحاً ومساء، لذلك سمي أيضاً «أمير طبل خاناه».

ثالثاً - صغار الأمراء: هم الأمراء القادة لعدد معيّن أقل من الأربعين مملوكاً، ويدفعون من أموالهم الخاصة لشرائهم.

ج - اتابك العسكر:

كان اتابك العسكر قائداً للجيش المملوكي، وخوّله مركزه صلاحيات عسكرية واسعة سمحت له بفرض هيبته وسطوته على أمراء المئة. وفي بعض الأحيان كان وصياً على العرش السلطاني في حال اعتلاء العرش أحد أطفال السلطان المتوفي. ولا يحق اشغال هذه الوظيفة إلا من كان أمير مئة ومقدم ألف.

٣ - النيابات الإدارية والعسكرية

قسّمت دولة المماليك إدارياً إلى قسمين أساسيين: مصر وبلاد الشام، وهذه الأخيرة قسّمت إلى نيابات عدّة وفق الأهمية: الشام - حلب - طرابلس - حماه - صفد - الكرك. وقد أسند الحكم فيها إلى أمراء مئة في وجه عام. وخصّصت لكلّ نيابة قلعة يحكم منها نائب القلعة الذي كان يعيّنه السلطان مباشرة ولا يحق له الاجتماع بنائب السلطان في الشام وحلب وطرابلس. والنيابة قسّمت إلى نيابات عدّة صغرى أو ولايات يرأس كلّ واحدة منها والٍ. ولكلّ نيابة جيشها الخاص من أجناد الحلقة ولا يحق له زيادة العدد في نيابته.

كان لبنان في هذا العهد موزّعاً إدارياً ما بين ثلاث نيابات، فخضع قسمه الشمالي أي من جسر المعاملتين وإلى الشمال، إلى نيابة طرابلس، ومن جسر المعاملتين وإلى نهر الأولي بما فيه جبل لبنان والبقاع، إلى نيابة الشام، ومن جسر الأولي وحتى الحدود مع فلسطين لنيابة صفد.

٤ - الجيش المملوكي

٤١ - البحرية:

لم يهتم المماليك بسلاح البحرية حتى السنة ١٣٦٥ ولم يكن لديهم هذا السلاح

على ساحل لبنان وسوريا. ولكن عندما غزا الفرنجة الإسكندرية ونهبوا المدينة، فكّر المماليك باقتناء أسطول حربي بحري، فقرروا بناء هذا الأسطول في بيروت بغية أن يغزوا به جزيرة قبرص. ذلك لأن الأخشاب مؤمّنة في لبنان، وخاصة خشب الصنوبر الموجود في حرج بيروت، فصدر الأمر للمباشرة بالبناء، فبنيت منها ناقلتان على اسمي أميرين من أمراء المماليك هما سنقر وقراجا، إلاّ أن العمل توقف فجأة وتركت السفن هذه والزوارق البحرية في مكانها قبالة بيروت.(١)

٤٢ - الخيالة والمشاة والمدفعية:

كان المماليك يعتمدون كثيراً على الخيالة في معاركهم، فهي زهرة الجيش المملوكي وسلاحه الأساسي، بينما المشاة فقد اهملت إلى حدّ ما. أما قوة النار الأساسية المتمثلة بسلاح المدفعية فقد أهملت في شكل بارز ولم يأخذ المماليك العبرة من مدفعية الأسطول الفرنسي الذي قصف بيروت العام ١٤٠٤(٢) قصفاً مريعاً، وكي نكون منصفين في أحكامنا، نقول ان المماليك أما أنهم لم يمتلكوا هذا السلاح الجديد أو أنهم استعملوه على نطاق ضيق لم يعطِ النتائج المتوخاة، لذلك فاجأهم العثمانيون في معركة مرج دابق وقضوا عليهم نهائياً.

٤٣ - أجناس الجند:

يشكّل السلطان وأمراؤه وجنوده طبقة عسكرية حاكمة مغلقة، ولم يكن يحقّ للسكان في بلاد الشام الانتساب إليها. وقد حدّد الانتماء إلى هذه الطبقة بشروط لم تتوافر في أهالي البلاد المحليين مثل العرق والرق والتربية في الثكنات والعتق والتدرّج في رتب الأمراء.

لقد ازداد الإكثار من شراء الرقيق اغناءً للجيش المملوكي ولم يميّز بين أجناس

---

(١) ابن يحيى، صالح: تاريخ بيروت، تحقيق الأب هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق ١٩٦٩، ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) Lammens, Henri, La Syrie, Beyrouth - imprimerie Catholique, 1921, T2, P. 19.

المماليك، ففي القرنين الثالث عشر والرابع عشر، كانت قبائل (الاوردو الذهبية) أي القبائل التترية في بلاد القوقاز وروسيا البيضاء، المصدر الرئيسي للمماليك. أما في القرنين الخامس عشر والسادس عشر فقد تدنّى الانضباط وقلت التدريبات القتالية وكثر قتل السلاطين وعزلهم وتوالت الفتن والثورات بين الفرق المملوكية[١] فافتقرت الدولة إلى المنعة، وانعدم توازنها الداخلي «وقلّت مهابتها في الخارج» لاسيما في أواخر عهدها إذ أصبحت الصراعات الدموية شبه مستمرّة. ومردّ ذلك إلى أن أكثرية المماليك كانت من الشركس الأتراك بالأفضلية ومن اليونان والأكراد والتركمان والباقين من أهل البلاد. وكانت للعرب كتائب خاصة يقودها أمراؤهم ويستدعون للقتال عند الحاجة، ككتائب بني حمدان وبني مرداس وبني كلب وآل الفضل وغيرهم.[٢]

٤٤ - الحال العامة للجيش المملوكي في بداية القرن ١٦:

استولى أفراد الطبقة العسكرية على كلّ مقدرات البلاد، الاقتصادية في وجه عام. وكانت الأسواق تنهب ابان الفتن غير المنتهية في هذا العهد. وعلى هذا الأساس تميّزت هذه الطبقة بالثراء الفاحش وراح أفرادها يتاجرون برواتبهم ورواتب جندهم وعتادهم ففقدت الروح القتالية ودخل الجيش المملوكي في حال من الفوضى ودبّ التفسّخ في كتائبه ووحداته، وعمّ الإهمال والانحلال الخلقي عناصره، وفقد الانضباط والمناقبية العسكرية، وراهن الجميع على قرب انهيار النظام والدولة. وما أن اقترب العثمانيون الأتراك من بلاد الشام حتى راح الولاة والقادة يتصلون بهم سراً لخيانة دولتهم والانحياز إلى جانبهم عندما يحين موعد المعركة الفاصلة في مرج دابق العام ١٥١٦.

ولم يعد الناس، كلّ الناس، يثقون بالجند المملوكي، إذ باتوا بسبب عوزهم وقلّة

(١) ضومط، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) كرد، محمد علي، خطط الشام، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٢٧، الجزء الخامس، ص ٢٤.

انضباطهم، وزراً على أهل البلاد، فانهارت المعنويات وهتكت الأعراض ونهبت الأموال وحلّت الغرائز والشهوات محل المنطق والعقل. وكان السلطان من أغبى الحكام الذين عرفهم الإسلام وأقلهم ثقافة، فكيف يزدهر الفكر ويعيش والحروب والفوضى والمرض والجوع والظلم تعم الناس قاطبة؟

إلى جانب كلّ هذا كان المماليك متمسّكين حتى التحجّر بسلاح الخيالة، غير آبهين بالأهمية التي وصل إليها سلاح المشاة بعد تطوّر الأسلحة، ومتجاهلين تماماً وجود سلاح المدفعية، الأمر الذي أدي إلى نهاية دولتهم على يد العثمانيين في مرج دابق العام ١٥١٦.

الفصل الثاني

التنظيم العسكري العثماني

١ – توطئة

بلغت الدولة العثمانية مستوى عالياً من العظمة والتوسّع وأصبحت في مصاف الدول الكبرى في العالم بعد أن كانت في بداية الأمر قبيلة صغيرة لا شأن لها. ففي القرن السادس عشر امتدّ سلطانها ليشمل كل البلاد العربية، إضافة إلى آسيا الصغرى وبلاد البلقان، وأجزاء اخرى اوروبية وصلت أحياناً إلى حدود ڤينا.

وكانت القوات المسلّحة العثمانية، في مطلع هذا القرن، مؤلّفة من القوات النظامية التالية:

٢ – التنظيم العسكري

مرّت الإمبراطورية العثمانية بمراحل ثلاث: مرحلة الانطلاق والصعود نحو القمّة، ومرحلة الازدهار والعظمة، ومرحلة الضعف والوهن والانكفاء. وفي هذه المراحل الثلاث، كان للجيش العثماني الدور الكبير الذي مثّله خلالها، فمصير السلطنة من مصير الجيش.

من الجدير ذكره أن الدولة العثمانية هي نتيجة توسّع قبيلة غازية، احترفت مهنة القتال وازداد تعداد افرادها تدريجياً مما انضم إليها من قبائل وأفراد أتراك وتركمان وغير ذلك. وكان الناس في هذه الدولة ينظرون إلى الجيش العثماني نظرة إكبار، فهو ركن أساسي، إن لم يكن الأساسي، في تكوينها ووسيلة

توسّعها ومجدها وحصانتها، وقد أولته عناية فائقة وقدّرته حقّ قدره.

٢١ - الجيش:

في مطلع القرن السادس عشر، كانت القوات المسلّحة العثمانية مؤلّفة من القوات التالية:

أولاً: القوى البرية - نظرة عامة:

أ - المشاة:

١ - الوحدات الانكشارية، وكانت قوة الجيش الأساسية وموقعها في قلب الجيش العثماني.
٢ - وحدات المدفعية.
٣ - وحدات السلاحية أو القرداحية.
٤ - وحدات النقل البري.

ب - الخيالة:

كانت الخيالة في البدء الأساس في جيوش القبائل التركية، لأنهم كانوا يستعملون الخيول بكثرة، في الفيافي لكن هذا النظام انتقل من الإقطاعيين إلى الخيالة الأتراك، وذلك بان فرق الخيالة كانت تتلقى الأمر من السلطان الذي كانت تتبع له مباشرة. تتألّف وحدات الخيالة من:

١ - السباهية، أو حملة الرماح.
٢ - السلاح دار، أو حملة السلاح.

ولتمييز هذه الوحدات عن الوحدات الأخرى البرية فقد أطلق عليها اسم واحد هو: «الاودجاق».

ج - الوحدات العسكرية الأخرى في المقاطعة:

بالإضافة إلى وحدات الجيش النظامي كان لدى الدولة العثمانية:

١ - وحدات المرتزقة في الإقطاعات العسكرية، وهي التيمار وبالتركية (Timar Sahibi أو Ehl - Itimar) وكلمة تيمار مترجمة من الفارسية للمؤسّسة نفسها ولكن مع التشديد على أن التيمار كمؤسّسة عسكرية عائدة إلى أصول بيزنطية لا فارسية. وكان دخل التيمار بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف اقجة سنوياً، وكان عليه أن يقدم عدداً من الفرسان أثناء المعركة. ثمّ وحدات الزعامات وحاصله السنوي ٢٠ ألف اقجة. ثمّ وحدات الخاص ويضم

أكثر اقطاعات حكام المناطق وكان يطلق عليه لفظة - خاص حميون - ويمنح للولاة المحليين ولم يكن يخضع لتفتيش الدفتردار.

٢ - وحدات الأقاليم وعسكر الايالات.

٣ - الوحدات الخاصة بالباشوات.

٤ - الوحدات الاستثنائية.

ثانياً: البحرية - نظرة عامة:

ابتدأت البحرية العثمانية تأخذ أهميتها بعد فتح القسطنطينية عاصمة بيزنطية السنة ١٤٥٣، وكانت تستند آنذاك إلى أسطول صغير. وفي بداية القرن السادس عشر أصبحت هذه البحرية قوّة لا يستهان بها. أما السلطان سليم الأول فلم يهتم بها كثيراً لانشغاله بحروبه البرية مع الصفويين في إيران ومع المماليك في بلاد الشام.

ثالثاً: القوى البرية:

(١) - المشاة:

أ - الوحدات الانكشارية:

كان لدى السلطان العثماني اورخان (١٣٢٦ - ١٣٥٩) جيش من المشاة يتقاضى رواتب فاحشة. وبغية وضع حد لهذا التبذير، قرّر السلطان، بعد اجتماعه بأخيه علاء الدين وأحد وزرائه قره خليل جاندري، انشاء فرقة الانشكارية، لأن المشاة أصبحوا يشكلون خطراً على السلطنة. وقره خليل جاندري كان أول من اقترح طريقة جديدة لتنظيم الجيش. فقد اقترح تخصيص خمس (١/٥) الغنائم للجيش. وأول فرقة انشئت بانتزاع ألف غلام مسيحي وإجبارهم على اعتناق الإسلام، فنشأت الفرقة الانكشارية على أساس شبه ديني، وانضمّت إلى الطريقة الصوفية البكتاشية، وقيل إن الحاج بكتاش باركها عند تأسيسها وأعطاها اسمه. وعادة أخذ الأولاد أو سلبهم من أحضان أمهاتهم وتدريبهم، أخذها العثمانيون عن البيزنطيين. فالإمبراطور نقفور فوكاس انتزع السنة ٩٦٩م. من حلب عشرة آلاف ولد وألفاً من انطاكية.

لقد اعتقد السلطان آنذاك بأن الخاسر لا يحق له إلاّ أن يكون كلياً بتصرّف المنتصر. إذاً فالعثمانيون عن المنتصرون ولهم الحق بأن يكونوا أسياداً لمتلكاتهم ولنسائهم ولأطفالهم.

وكلمة انكشارية تعني: يني تشري أي الجيش الجديد أو العسكر الجديد. وكانت الانكشارية تقوم على الغلمان النصارى بعد جمعهم من البانيا والبوسنة وبلغاريا وغيرها. وكان جمع الأطفال يتمّ كلّ ثلاث سنين أو أربع في بداية تاريخ هذه الفرقة، ولكن مع الأيام ازداد عدد الانكشارية ولم تعد السلطنة بحاجة ماسة لأطفال النصارى، بل أعطيت الأفضلية لأولاد الانكشاريين أنفسهم. وبقيت هذه الطريقة معمولاً بها حتى نهاية القرن السادس عشر، بعدها دخل في الانكشارية كلّ أنواع الرجال من مختلف الطبقات ومن مختلف الأمم في السلطنة، باستثناء العبيد، طالما أنهم ينتمون إلى دولة منضوية تحت لواء السلطنة.

كان هؤلاء الغلمان يدرّبون تدريباً خاصاً في ادرنة وفي اسطمبول، في السرايا القديمة والسرايا الحديثة والمركز الثالث في مدينة بيري PYRÉE. وكان التدريب صارماً للغاية لأن الدولة كانت ترمي إلى أن تخلق منهم رجالاً أقوياء واشدّاء تعتمد عليهم في الإدارة في زمن السلم وفي الجيش زمن الحرب.

وكان المسؤولون الكبار في الإدارة العثمانية يتخرّجون من فرق الانكشارية.

أما عملية جمع الغلمان النصارى، أو ما يعرف بضريبة الغلمان، تتم كلّ خمس سنين ثمّ أصبحت كلّ سنة ولم يعرف من هذه الضريبة الانكشارية إلاّ مناطق قليلة وهي العاصمة اسطمبول وغلاطة ورودوس. وكان في بادىء الأمر يجمع غلام من خمسة، ثمّ أخذ يجمع كلّ الغلمان السليمي البنية والذين تراوح أعمارهم بين ١٠ و١٥ سنة، ولكن التهرّب من ذلك كان ممكناً عن طريق رشوة الموظفين الذين كثيراً ما سخّروا الأمور إلى أهوائهم ومصالحهم الشخصية وباعوا الغلمان في سوق النخاسة.

توقّفت الضريبة على الغلمان نهائياً في نهاية القرن السابع عشر فكان هؤلاء الغلمان، بعد الحصول على التدريبات الضرورية «وغسل الدماغ» في سن ٢٥ سنة، يلحقون فعلاً بالانكشارية. ولكن الحروب الفارسية - العثمانية، أجبرت السلاطين على خفض هذه السن، أما عدد الانكشارية فلم يزد على ١٥ ألف رجل.

وكان يصرف النظر عن زيادة عددهم بسبب التمرّد الدائم في صفوفهم، خاصة أنهم كانوا يلحقون الطلب بالحصول على هبات كلّما ارتقى سلطان، العرش. ووصل بهم التدخل في شؤون الدولة، وفي زمن السلطان سليم الأول بالذات، إلى إكراهه على قطع رأس الصدر الأعظم وقاضي العسكر وحتى رأس قائدهم بالذات. ولكن بنية هذه الفرقة الانكشارية لم تسلم طويلاً، فدبّ فيها التفسّخ نظراً إلى الأسباب الآتية:

- التدخّل في شؤون السلطنة وفرض آرائهم على السلطان بالذات، ومن ثمّ التدخّل في اختيار السلطان.
- سماح الدولة لهم بالزواج حوالى نهاية القرن ١٦ مما جعل الانتماء إلى الانكشارية وراثياً بصرف النظر عن القدرة العسكرية.
- الإكثار من عدد الانكشارية في شكل فوضوي بسبب الحرب الفارسية العثمانية في بداية القرن ١٦ حتى إذا ما جاءت السنة ١٦٦٥، بدأ عدد الانكشارية يقارب الـ٥٤ ألف رجل.
- إضافة عدد من الرجال، يوازي ٥٠ ألفاً، إلى لائحة الرواتب في الانكشارية، وكان الأولاد يلجأون إلى ذلك تهرباً من الضرائب. وكان القيّمون على الانكشارية يشجّعون على ذلك للإفادة الشخصية.
- تضاؤل رواتب الانكشارية، اضطرهم إلى اعتماد الصناعة اليدوية في حين حاول ضباطهم الافادة من طريق الالتحاق بخدمة السفارات الأجنبية.[١]

ب - أنواع الجند في الوحدات الانكشارية:

كانت الفرقة الانكشارية تتألف من ثلاثة أنواع من الجند هي:

الأولى: جنود الخدمة الفعلية، أو الاشكندجي.

(١) D'Ohsson, Constantin Mouradgéo, Tableau Genéral de l'Empire ottoman, Paris: 1788 - 1824, T3, T5, Liste VII.

- العثمانيون، الجامعة اللبنانية - الفرع الثاني - الفنار - لبنان ١٩٨١.

الثانية: المرتزقة، أي الأفراد الذين في إمكانهم ملء الفراغ عند الضرورة، أي في زمن الحرب، بينما في الأوقات العادية يتابعون أعمالهم المعتادة، ولا يقبضون رواتبهم إلاّ في المدة التي يخدمون خلالها في الانكشارية. وكان عددهم يربو على المائة والخمسين ألف رجل.

الثالثة: العثمانيون، على اختلافهم، وكان عددهم كبيراً. وهؤلاء يفتخرون بانتسابهم إلى هذه الفرقة العريقة في السلطنة. فيحملون اسم الانكشاري ويلبسون زيه ويسمّون «المرشّحين».

ج - أسلحة الانكشارية:

لم تكن الدولة تقدم السلاح إلى العسكريين في أوقات السلم. فالذين كانوا يخدمون في العاصمة يزودون نبابيط فقط.[1] وكان حمل السلاح ممنوعاً عليهم، ويسمح لهم بحمل خنجر يضعونه في زنانيرهم. أما المتمركزون في مواقع الحدود، والبحرية في الموانىء، فقد كان مسموحاً لهم بحمل السلاح مثل السيوف والمسدسات.

أما في زمن الحرب، فكان على الانكشاري أن يجهّز نفسه بالسلاح على حسابه الخاص، لذلك كان السلاح متنوّعاً، من البندقية القداحة إلى السيف والمسدس والدبوس الحديدي والخنجر والصفيحة والفأس... أما الخيالة فكان سلاحهم: السيف والرمح والغدارة والقوس والسهم والرمح القصير والحربة، وأحياناً أسلحة نارية.

د - الامتيازات:

كان العسكري الانكشاري يتمتع بامتيازات عديدة وهامة، لا يتمتع بها رجال باقي الوحدات. فكان يصنف في المرتبة الأولى، ولا يعاقب إلاّ من قبل ضباطه، ولا يدفع ضرائب ولا تصادر أملاكه. وكانت لآغا الانكشارية أفضلية على قادة باقي وحدات الجيش العثماني، وكذلك على وزراء الدولة، ولم يكن يتقدّمه في الاحتفالات العامة سوى قادة الخيالة.

---

(١) عصى غليظة من الخشب لها رأس كبير.

وذلك في احتفالات عيدي الأضحى والفطر فقط. وكانت للآغا مرتبة الباشا في زمن السلم، أي رتبة لواء (شارة ذنبي حصان) وفي الحرب رتبة عماد (شارة ٣ أذناب).

كان للانكشارية الفضل الكبير في ازدياد شأن السلطنة وتوسيع رقعة فتوحاتها. ولكن الامتيازات الفائقة التي منحت لها من قبل السلاطين أدّت إلى سيطرة الانكشارية على المجتمع والحكم باعتبارها القوة الضاربة فيها. فكثرت الانتفاضات والثورات ودبّت الفوضى في روحها وتصرّفاتها. ولم تقف سلطنة الانكشارية عند هذا الحد، إذ تدخلوا في عزل الصدور العظام وقتل بعضهم وتعيين آخرين تأكيداً لمصالحهم، ولكي يزداد جبرؤتهم. وهكذا ارتاع ارباب السياسة من تزايد نفوذهم وتسلّطهم فراحوا يتملقونهم ويلبّون رغباتهم ويحرصون على التودّد إلى كبار آغاتهم، حتى فسدت الإدارة والانكشارية على السواء.

هـ - نهاية الانكشارية:

حاول السلاطين وكبار موظفي السلطنة العثمانية ولاسيما المتنورون منهم، إصلاح الفرقة الانكشارية، ولكن أفرادها تجرأوا على التصدّي وتمادوا في غيهم وأظهروا في القرنين ١٨ و١٩ عجزاً قتالياً مخيفاً، لذلك قرر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) التخلّص منهم والقضاء عليهم نهائياً، فحلّ الفرقة الانكشارية في مختلف انحاء السلطنة العثمانية، وأسس فرقة جديدة استعملها لقتالهم، وقد انتهى منهم بعد مواجهات ضارية عدّة، بقصفهم بالمدفعية وحرقهم في الثكنات التي لاذوا إليها. وهكذا انتهت هذه الانكشارية في ١٦ حزيران من العام ١٨٢٦، بعدما ساهمت بفعالية في إضفاء المجد على السلطنة العثمانية في بداية الأمر ومن ثمّ إزالته.

(٢) - الخيالة:

أ - وحدات السلاح دار:

كان الخيالة في البدء هم الأساس في جيوش القبائل التركية، لأنهم كانوا يستعملون الخيول بكثرة في الفياني، لكن هذا النظام انتقل من الاقطاعيين إلى الخيالة الأتراك النظاميين، لأن الخيالة أصبحوا يتبعون للسلطان مباشرة.

كـان عـديـد هـذه الـوحـدات في عـهـد السلطان محمد الثاني حوالى ثمانية آلاف، وبلغ في عهد أحمد الثالث ١٢ ألفاً. ويسمى قائد هذه الوحدات السلاح دار آغا.

كانت قَوَة الخيالة تتوازى دائماً مع قوّة الانكشارية، وكان عددها يتأرجح ما بين الانخفاض والارتفاع وفق طبيعة الحروب وشخصية السلطان.

ب - وحدات السباهي:

كـان عـديـد هـذه الـوحـدات في عـهـد السلطان محمد الثاني حوالى ١٠ آلاف ثمّ زاده السلطان أحمد ٣ (١٧٠٣ - ١٧٣٠) إلى ١٢ ألفاً وكانت مؤلّفة من بلكين، يقود كلاً منهما بلكباشي، وقائد الوحدات جميعاً يدعى السباهي آغا. وكانت الخيالة في هذه الوحدات على نوعين: السباهي بالمعاش وهم عسكر الباب العالي ويتقاضون رواتب يومية تدفع لهم كلّ ٣ أشهر، والباقي بالاقطاع وهم عسكر الأقاليم.

وكان يلحق بوحدات الخيالة ٤ بلكات تسمى البلكات الأربعة وهي: جند المعاش اليمين وجند المعاش اليسار والغرباء اليمين والغرباء اليسار. وتعتبر هذه أقدم سلاح للخيالة في السلطنة انشأها السلطان اورخان (١٣٣٦ - ١٣٦٩) وسلّمها العلم الإمبراطوري الكبير.

ج - أسلحة جند الاقطاعيين ودور الخيالة:

كان سلاحهم القوس والنشاب والرمح الخفيف والسيف القصير أما الدرع والخوذة الشائكة فلم تستعملا إلاّ تدريجياً. وكانت العمامة هي اللباس العام للرأس. وكانت تربية الخيول من أولى واجبات التابع الاقطاعي، كما أن اهمال ذلك كان يؤدي به إلى فقدان اقطاعه.

في عهد السلطان سليمان الأول، كانت الأراضي المقطعة في أوروبا تقدّم إلى الدولة العثمانية نحواً من ٨٠ ألف فارس، أما الإقطاعات الأسيوية فكانت تقدّم حوالى ٥٠ ألف فارس.

وأما بالنسبة إلى الوراثة في الإقطاع، فلم يكن يحق للولدان يرث الزعامات بل كان عليه أن يبدأ بالتيمار، ثمّ بعد ذلك ينتقل إلى الزعامات لقاء الخدمات

العسكرية التي يكون قد قام بها تجاه الدولة.

كانت السلطنة العثمانية موزعة إلى بكلربيكات عدّة واحدة في الأناضول وأخرى في الرومللي ثمّ في ما بعد واحدة أخرى في بلاد افريقيا. وكان على رأس كلّ واحدة منها حاكم يدعى بكلربيك وكان لقبه باشا. وكانت كلّ واحدة من هذه البكلربيكات مقسّمة إلى سناجق أو ألوية، ويحكم كلاً من هذه الالوية أو السناجق بيك.

وبعد اتساع السلطنة اتساعاً مطرداً، الغيت البكلربيكات وضمّت السناجق إلى بعضها البعض لتؤلّف ولايات أو باشاليق. وقد بلغ عدد الولايات الـ٧٠ في مطلع القرن ١٩. وكان الإقطاع جزءاً من سلطة البكاوات أي حكام السناجق.

(٣) - المدفعية:

هي أهم أسلحة الجيش العثماني، وقد خصّها العثمانيون بعناية فائقة، خاصة منذ تأسيس دولتهم لاسيما في عهد محمد الثاني. لقد جاء هذا الأخير بصنّاع المدافع والمعلّمين المتخصصين في المانيا والمجر. وكانت الفرقة تعرف بالطبجي، وقد بلغ عدد افراد المدفعية في عهد سليم الأول حوالى الألف رجل واعتنى هذا السلطان، ومثله السلطان سليمان القانوني، عناية فائقة بفرقة المدفعية، نظراً إلى حاجته لها في فتوحاته.

(٤) - اللوجستية:

كان الجيش العثماني مواكباً في قوافل عظيمة من الذخائر والمؤن، فمثلاً في زمن حصار فيينا في اوروبا السنة ١٥٢٩ رافق الجيش العثماني ما لا يقل عن ٢٢ ألف بعير محملاً بالدقيق. ورافقه مثل هذا العدد من البغال. لهذا كان أمر العناية بهذه الشؤون منوطاً بفرقة «ونيون» والتي كانت في أغلب الأحيان مؤلّفة من الفلاحين البلغار الذين لا يتقاضون معاشات لقاء إعفائهم من الجزية.

كانت الدولة تقدّم للجيش بعض المواد الغذائية الأساسية مثل اللحوم والأرز والخبز، وتعطي كلّ وحدة كمية إحتياطية منها يومياً. أما بقية المواد فعلى قائد الوحدة تأمينها بطرقه الخاصة.

وفي عهد السلطان مراد الثاني انشئت وحدة خاصة لنقل المدافع إلى الوحدات المقاتلة في الميدان. وكان عديدها حوالى ٣ آلاف رجل ومركزها العاصمة. وكان يقود هذه الوحدة ضابط يدعى طوب عربجي باشي. وكانت رواتب القادة والجند كرواتب الانكشارية.

٢٢ - البحرية العثمانية - الأسطول:

كان الأسطول العثماني يتألّف من دوارع ثقيلة تدعى «ماعون». وأكبر هذه الدوارع كانت تضم ٥٧٦ مجذّفاً من العبيد. كما كان يتألّف من طرادات خفيفة تدعى جكسدري. عدد المجذّفين فيها حوالى ١٥٠. وكانت المدفعية ضعيفة في الاسطول العثماني، ولم تدخل جديداً في عملياته العسكرية إلاّ بعد معركة ليبانتي (LEPANTE) والتي تعتبر بداية الانهيار العثماني. إضافة إلي هذه الوحدات النظامية، كان الأسطول العثماني يعتمد في الدرجة الأولى على القراصنة.

وكان أكثر الملاحين أو البحّارة من النصارى الطليان أو اليونان، يجتذبهم إلى ذلك المغانم التي قد يحصلون عليها، يضاف إلى هذه العناصر عدد من العبيد أقل كفاءة في الحرب من سواهم.

حاولت الدولة تطبيق التجنيد المنظّم في الأسطول من رعاياها الوطنيين، ولكن إمكان البدل كان وارداً مما أضعف الأسطول العثماني، لذلك عمدت الدولة إلى استخدام الجيش البري لحاجات البحرية، ولكن هؤلاء، بالرغم مما أبدوه وخاصة الانكشارية من بسالة وتفوّق، لم يكونوا مهيئين للعمليات البحرية.

كانت القطع البحرية للأسطول تصنع من قبل اليونانيين. أما المشرفون على الصناعة فكانوا من أهالي البندقية الطليان. وبالرغم من تميّز العثمانيين بسرعة بناء الأساطيل، جاءت هذه غير دقيقة وغير متقنة لفقدان روح الأمانة في العمل. وكانت المصادر الأولية لصناعة السفن تأتي من غابات شواطىء البحر الأسود، أما المعادن فكان يؤتى بها من البغدان والافلاق. فيما الأقمشة كانت تستورد من فرنسا.

تميّز تاريخ العثمانيين العسكري بالحروب البرية ولكن بالرغم من ذلك، أضطرّ العثمانيون إلى إنشاء أسطول بحري لدفع خطر الدويلات البحرية، خاصة - البندقية وجنوى. ولقد أحسّ العثمانيون بالخطر الفعلي للبندقية العام ١٤١٦ وذلك بعد معركة غاليوبولي. ومع السلطان محمد الثاني أصبح للعثمانيين شأن كبير كقوّة بحرية بعد سقوط القسطنطينية. ثمّ تابع السلطان سليم، ولكن بقدر قليل، تعزيز الأسطول الذي بلغ مجده مع السلطان سليمان القانوني الذي ضمّ الأسطول في عهده ما يقارب ٣٠٠ سفينة. وقد ذاع صيطه بعد الحاق الأخوين بربروسا بالجيش العثماني وفي عهد هذين الأخوين هدّد العثمانيون شواطىء إسبانيا وفرنسا وافريقيا.

كانت الهزيمة التي مني بها العثمانيون في معركة لوبنتي بداية نهاية الأسطول، فحاولت الدولة إعادة بنائه ولكن محاولاتها باءت بالفشل، ولم يتمكّن العثمانيون من إحراز أي نصر بعد هذه المعركة لذلك اقتصر نشاط الأسطول على خفر السواحل فقط. وبعد السنة ١٥٧٦، لم يكن قد بقي عند العثمانيين غير ٤٠ قارباً كاملة التسليح من أصل ٣٠٠ سفينة. وما تبقى من سفن الأسطول فقد تركت مهملة في الأحواض وعلى الأرصفة.

الفصل الثالث

الوضع العسكري للمقاطعات اللبنانية في بداية القرن السادس عشر

١ – توطئة

كان لبنان الذي نعرفه اليوم، جزءاً من بلاد الشام إلى جانب سوريا وفلسطين. وقد دخله النظام الإقطاعي مستورداً من الغرب الاوروبي مع دخول الصليبيين أراضيه، متخذاً شكلاً مختلفاً عن الشكل الذي اتخذه في البلدان الأوروبية، فهناك كان قائماً على الارث الثابت والدائم وعلى حق البكورة وعلى عدم حق التصرّف بالأرض وبالفلاح المرتبط بها، بينما هنا لا يعترف بالارث الثابت ولا بحق البكورة، ويترك للشخص المنتدب على الأرض حق التصرّف.(١) وعندما استولى المماليك على بلادنا، حملوا معهم فكرة الاقطاع العسكري، فكان السلطان يخوّل كبار حكام بلاد الشام حق تسمية الأمراء والخيالة وحق اقطاعهم إقطاعات في بلادهم، وسنرى في ما بعد كيف كانت خريطة الإقطاع في لبنان في عهد هؤلاء المماليك.

٢ – الوضع العسكري للمقاطعات اللبنانية في بداية القرن السادس عشر

قسّم المماليك المقاطعات اللبنانية المختلفة إلى ثلاث نيابات هي: دمشق – طرابلس وصفد. فكان البقاع واواسط جبل

---

(١) ISMAÏL, ADEL, Histoire du Liban du XVIIe sircle à nos Jours
.- Paris - Librairie orientale - 1955 - P 24.

لبنان تتبع نيابة دمشق، وكان الشمال حتى جبيل يتبع نيابة طرابلس وما تبقى كان يتبع نيابة صفد. وكانت النيابة مقسّمة إلى ولايات، وكان لبنان موزعاً بين إحدى عشر ولاية تتبع النيابات الثلاث الآنفة الذكر. وكانت تتبع النيابة وظائف هامة مثل القضاء (المذاهب الأربعة) والدواوين وأهمها: ديوان الانشاء وديوان النظر (المالية) وديوان الجيش المسؤول عن الجيش وعن التنظيم الاقطاعي وشؤون الاقطاعيين في النيابة. وكانت الوظائف الكبرى من حق المماليك ما عدا ديوان الانشاء الذي يوكل إلى الوطنيين المتمكّنين من اللغة العربية، أما الاقطاعيون فإن أكثريتهم كانت من الوطنيين، بينما انحصرت مهمات الجيش بقادة المماليك وجنودهم.

وفي لبنان ربط المماليك الاقطاع المدني الزراعي بالتنظيمات العسكرية، وأصبح توزيع الاقطاع منوطاً بديوان الجيش في مركز النيابة، بحيث يصدر منشور رسمي يحدد للاقطاعي المناطق المعطاة له وعدد الجنود الذين يتوجّب عليه تقديمهم للدولة حين الحاجة. وكان على المقاطعة الصغرى أن تقدّم وقت الضرورة ٣١ جندياً، ويمكن للمقاطعة الواحدة، أن توزّع بدورها على عدد من الاقطاعيين بموجب مناشير. وكان على الاقطاعي أن يعود دائماً إلى ديوان الجيش، وعلى هذا الأساس فقد كانت له صفة عسكرية في مقاطعته وهو مسؤول عن أمنها وعما تكلّفه به الدولة. وقد أدّى هذا التنظيم الاقطاعي إلى ازدهار كبير في الزراعة واعمار الجبال بالقرى والمزارع. كما أدّى إلى استقدام أعداد كبيرة من الفرسان الأكراد والتركمان للعمل في المقاطعات اللبنانية كإقطاعيين وكجنود أو كفلاحين.(١)

كانت القوّة العسكرية الموجودة في النيابة عبارة عن جنود نظاميين من الأكراد أو الأتراك أو الشركس، يقيمون في مركز النيابة وفي القلاع الرئيسية المنتشرة في أنحاء مناطق النيابة، بالإضافة إلى الجنود

(١) مكي علي محمد – لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني – دار النهار للنشر – بيروت ١٩٧٧ – ص ٢٤٠.

الذين يقدّمهم رجال الاقطاع سنوياً لخدمة الدولة كما تنصّ مناشير الإقطاع، وهم جنود الطوارىء. وكان الثقل العسكري يعتمد على جنود الإقطاع، ولكن الفعالية العسكرية كانت تعتمد على الجنود النظاميين المدربين تدريباً عالياً والموزعين على القلاع اللبنانية كقلاع بعلبك وعنجر والشقيف وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وتبنين. وقد اهتمّ المماليك ببناء الأبراج على طول الساحل اللبناني وفي الجبال المطلّة عليه وسموها «أذواق» ووضعوا في كلّ ذوق قوّة صغيرة من الجند دون العشرة.(١)

٣ - خريطة لبنان الإقطاعية في القرن السادس عشر

انتهى الإقطاع العسكري على أيام المماليك إلى إقطاع عائلي كان أساس التركيز السياسي في المقاطعات اللبنانية في العهد العثماني في ما بعد.

أ - الإمارة التنوخية في الغرب وقسم من الشوف:

هي أقدم الإمارات الإقطاعية في لبنان، وقد تمكّنت من بسط سيطرتها ونفوذها في العهد المملوكي من بيروت إلى صيدا وقسم من الشوف إلى الغرب وإلى المتن. وقد ضعفت بسبب انقسامها إلى يمنية وقيسيّة مما فتح المجال أمام قبيلة بني معن في الشوف للبروز في مطلع العهد العثماني. وقد كان التنوخيون أمراء الغرب لجهة التزام الأبراج وخدمتها ليلاً نهاراً من بيروت إلى صيدا وحراسة هذه الأبراج كانت تستدعي حوالى الثلاثة آلاف فارس مع الاحتياط.

ب - الإمارة العسّافية التركمانية في كسروان:

السنة ١٣٠٧، وبعد الثورات الكسروانية، قدم الأمراء العسّافيون التركمان إلى بلاد كسروان بناء على أمر السلطان المملوكي الذي أقطعهم هذه المنطقة. وكانت مهمتهم حراسة السواحل اللبنانية من حدود

(١) مكي، المرجع السابق، ص ٢٤٢.

انطلياس «على نهر الكلب» إلى مغارة الأسد بالشام،[1] ومنع العبور إلى هذه المقاطعة إلاّ لمن يحمل «ورقة جواز مرور من الوالي أو من الأمراء التنوخيين»[2] وقد نظّموا عملهم تنظيماً دقيقاً، إذ قسّموا أنفسهم إلى ثلاث فرق، تكوّنت كلّ منها من ألف فارس، وواجبها أن تقيم في برج انطلياس وبالتناوب لمدّة شهر.[3] وكان الصراع الإقطاعي يشتدّ بين العسافيين والتنوخيين، مما أدّى في النهاية إلى ضعف الامارتين، وخاصة التنوخية. لقّب هؤلاء التركمان بعشران البر وقد شجّعوا، موارنة الشمال على السكن في كسروان واعماره بعد خلوّه من سكانه الشيعة وهكذا أخذ المد الماروني يتجه من شمالي لبنان نحو بلاد جبيل وكسروان ومنه إلى منطقة الشوف في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني.

ج - مقدمية الموارنة في الشمال:

برزت مقدّمية الموارنة في شمالي لبنان بعد الحروب الصليبية، وكانت تقوم على زعامتين: دينية، وعلى رأسها البطريرك الماروني، وزمنية وعلى رأسها المقدم. وتفيد الأخبار بأن السلطان المملوكي الظاهر برقوق، عيّن السنة ١٣٨٨ في بشري مقدماً من الموارنة، كان قد خدمه أثناء محنته وهربه، وهو المقدّم يعقوب بن أيوب، وكتب له بذلك صحيفة نحاسية تشهد على ذلك، كما أنه أعفى ممتلكات دير قنوبين من الأموال الأميرية بموجب صحيفة نحاسية كذلك.[4] وكان للموارنة في الشمال وضع خاص أقرته لهم الدولة وحافظت عليه النيابة في طرابلس. ويقول الدويهي: «ومن أخبار هذا العصر يستدلّ على أن دولة المقدّمين واحكامهم العادلة وفّرت الراحة لأهل لبنان، وكثرت

(١) الشدياق، طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٧٠، ج ١، ص ٣.

(٢) مكي، المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٣) الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص٣.

- مكي، المرجع السابق، ص ٢٦٤.

(٤) الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

- الدويهي، اسطفان - تاريخ الأزمنة (١٠٩٥ - ١٦٩٩)، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥١ - بيروت، ص ٣٢٨.

عندهم المدارس والكنائس». وفي مطلع العهد العثماني، أصبح الموارنة، بفضل توسّعهم وتملّكهم، مشايخ وإقطاعيين في كسروان وبلاد جبيل والجبال الشمالية.[1]

د - المشايخ الحمادية الشيعة:

برز هؤلاء المشايخ في القرن ١٥، وتمكّنوا من السيطرة على العديد من المقاطعات بين سفوح صنين الشمالية إلى جبّة بشري، بما في ذلك بلاد جبيل والكورة والبترون وبعلبك في الشرق. وكان هؤلاء في تصادم مستمر مع مقدمي الموارنة وأمراء بني عساف في كسروان.[2]

هـ - أمراء البقاع وبعلبك:

كانت هذه المنطقة تتبع لنيابة الشام. وقد سيطر عليها عدد من العائلات الإقطاعية هي: بنو الأعمى وبنو صبح وبنو حرفوش. وفي أواخر القرن الخامس عشر برز الأمير ناصر الدين بن الحنش، وقد لعب دوراً مهماً على الصعيد الداخلي إذ جمع تحت حكمه البقاعين وصيدا وأغلب عربان بلاد الشام، وعند وصول العثمانيين إلى سوريا كان ابن الحنش أقوى أمير في لبنان.

و - أمراء بني سيفا:[3]

ينتسب بنو سيف إلى المقدم جمال الدين الملقب بسيفا، وهو ابن أحد المماليك الجراكسة وعمالهم في طرابلس وعكار وحصن الأكراد وما ولاها.[4] ويقول جواد بولس، أنهم يعودون بأصلهم إلى الأكراد.[5] ويوافقه حتي على هذا الأصل.(٦) وقد استوطن هؤلاء سهل عكار ابان حكم المماليك الذين خبروا اقدامهم وشجاعتهم

(١) مكي، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

(٢) مكي، المرجع السابق، ص ٢٦٦.

- الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٣) الشدياق، المرجع السابق، ج ٢، ص ٧.

(٤) عمائل، ج ١، ص ٢٠٤.

(٥) بولس جواد - لبنان والبلدان المجاورة، بدران وشركاه، بيروت، ص ٣٠٩.

(٦) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ص ٤٥١.

فاتخذوهم أعواناً لهم، كما اتخذوا من قبل التنوخيين والمعنيين في صيدا وبيروت لحماية الثغور البحرية من خطر هجمات الايطاليين والقبارصة. ولما احتلّ العثمانيون سوريا ولبنان ابقوا هؤلا القوم في خفارتهم وكانوا جميعاً من التركمان وقد أسكن السلطان سليم الأول، فريقاً من هؤلاء في قرية رأس نحاش في البترون ليكونوا أعواناً للتركمان الموكولة إليهم خفارة قلعة المسيلحة في البترون أيضاً، لأن واديها هي الطريق الوحيدة التي يمكن العبور منها لاجتياح لبنان وفلسطين.(١) ومن المؤكّد جداً أن بني سيفا كانوا لا يزالون يتحكّمون بحصن الأكراد في السنين الأخيرة من حكم المماليك، فأخذت اسرتهم تبرز في التاريخ اللبناني.(١)

ز - الإمارة المعنية في الشوف:

تمكّن المعنيون من الاحتفاظ بإمارتهم الشوفية منذ وصولهم إلى لبنان في أيام الصليبيين، وكانوا دائما على صلة ممتازة ووفاق مع الشهابيين، أمراء وادي التيم. وقد زادت أواصر العلاقة بينهم في القرن الخامس عشر، بالتزاوج، لكنهم لم يبرزوا في زعامة البلاد، باعتبار أن التنوخيين، أمراء الغرب، كانوا يحتلون مركز الصدارة في الجبال اللبنانية.(٢) لقد تقوّى المعنيون بأنفسهم وبالأمراء الشهابيين، الأمر الذي ساعد الأمير فخر الدين عثمان المعني على البروز في مطلع العهد العثماني.

ح - الإمارة الشهابية في وادي التيم:

الأمراء الشهابيون، هم من ذرية الأمير مالك بين الحرث الذي عدّ من الصحابة، ويقال إنه حضر مع النبي محمد (ﷺ) واقعة حنين السنة ٦٢٢ وأيضاً يوم بدر السنة ٦٢٤. وقد اشترك مع عشيرته في معارك أجنادين واليرموك ومرج الصفر وغيرها. والسنة ٦٣٦، طلب عمرو بن الخطاب من

---

(١) اليان جوزف - بنو سيفا - ولاة طرابلس (١٥٧٩ - ١٦٤٠) - دار لحد خاطر ١٩٨٧، ص ٢٢.

(٢) مكي، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

- حتي، مرجع سابق، ص ٢٢ -٢ ٣.
- الشدياق، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩.

الأمير مالك، أن يقوم في حوران أميراً ينجد «العساكر التي تأتي من الحجاز لمساعدة أبي عبيدة، فأقام فيها وعشيرته وتوطن قرية الشهباء»(١) وقد لقب بشهاب لأن أمه كانت من ذرية شهاب بن عبدالله بن الحرث ابن زهرة القرشي.(١)

وفي السنة ١١٧٣، غادروا حوران إلى وادي التيم في لبنان وحاربوا الصليبيين فيها وتمكّنوا مع الأيام من السيطرة الكاملة على هذه المنطقة وأصبحوا أسيادها بلا منازع. وكثيراً ما كان الشهابيون يختلفون ويتقاتلون مع إقطاعيي البقاع، كأبناء صبح وأبناء الأعمى ومقدّمي مشغرة، بينما كان الاتفاق دائماً وأبداً بينهم وبين المعنيين في الشوف.

ط - مقدمية جزين الشيعية:

عندما استولى المماليك على بلادنا، كانت جزين مركزاً دينياً شيعياً هاماً. وقد عمرت وازداد سكانها، خاصة عندما نزح إليها شيعة كسروان (١٣٠٥ - ١٣٠٧) ابان المعارك التي دارت هناك بينهم وبين المماليك. وقد حاول شيعة جزين القيام بثورة ضد السلطان المملوكي الظاهر برقوق، لكنهم فشلوا وفشلت ثورتهم وأخذت الزعامة الشيعية تنتقل إلى الجنوب اللبناني تدريجياً لتصبح منطقة جزين تحت السيطرة المعنية. وكانت مقدمية جزين متحالفة مع مقدمية مشغرة الشيعية بزعامة بني صبح.(٢)

ي - إمارة بني بشارة الشيعية في الجنوب:

يعرف القسم الجنوبي من جبل لبنان باسم «بلاد بشارة» نسبة إلى عائلة إقطاعية تولّت المنطقة حتى مطلع القرن ١٦. وتنتسب هذه العائلة للأمير حسام الدين بن بشارة الذي حارب مع صلاح الدين الأيوبي في القرن ١٢. وظلّت هذه العائلة الاقطاعية تسيطر على تلك المنطقة حتى

(١) الشدياق، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) مكي، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

بـدايـة الـقـرن السـادس عشـر، عـنـدمـا اصطدمت بالأمير ناصر الدين بن الحنش الذي قضى على دور هذه العائلة بعد معركة شيحين. وعند وصول العثمانيين إلى لبنان بدأ التفسّخ الاقطاعي في بلاد بشارة وجبل عامل يظهر إلى الوجود.

٤ - وصول الجيش العثماني إلى بلاد الشام - معركة مرج دابق (١٥١٦)

أ - توطئة:

خلافاً للدول الشرقية السابقة التي دُمّرت بعدما هرمت ووهنت قواها فخلفتها دول أكثر فتوة، كانت دولة المماليك حتى أوائل القرن السادس عشر، قوية بالمقدار الكافي كي لا تخاف مصيراً مماثلاً. وكانت كلّما ازدادت حال البلاد الإقتصادية، الواقعة تحت حكم المماليك سوءاً، فَقَدَ المماليك قوتهم ونفوذهم. وكان العدو المتربّص بهم في الشمال يشاركهم العقيدة الدينية، (السنّة) ولكنه كان أصلب عوداً من كلّ عدو آخر واجهوه في ساح القتال.

هؤلاء هم الأتراك العثمانيون الذين كانوا في أول عهدهم، قبائل من البدو الرحل يجوبون فيافي اواسط آسيا.

وقد انفصلت عنهم بعض القبائل التي أصبحت في ما بعد تعرف بالعثمانيين وقد انشأوا لهم دولة قامت على أنقاض دولة السلاجقة. وفي السنة ١٤٥٣ فتح محمد الثاني، السلطان التركي، مدينة القسطنطينية عاصمة البيزنطيين الروم، وجعلها عاصمة لدولته، ودخلت العلاقات المملوكية العثمانية في طور التوتر الشديد.

في شهر آب ١٥١٤، وقف الجيش العثماني وجهاً لوجه أمام الجيش الفارسي في ميدان القتال قرب بحيرة اورميه، ولم تدم المعركة طويلاً، إذ انهزم الصفويون أمام هجمات الفرق الانكشارية في جيش السلطان سليم الأول الذي احتلّ عاصمتهم تبريز وقسماً من ارمينيا والعراق.

ب - معركة مرج دابق (١٥١٦):

في العام ١٥١٦ زحف الجيش العثماني في اتجاه بلاد الشام، الأمر الذي حمل السلطان المملوكي قانصوه الغوري على

التوجه بجيشه من مصر إلى سوريا لملاقاة جيش عدوّه بقيادة السلطان العثماني سليم الأول القادم من البقاع التركية. مرّ في دمشق فاستقبله نائبها سيباي، الذي دعا له «بالعز والنصر المبين»(١) ثمّ انتقل إلى حماه حيث لاقاه نائبها جانبردي الغزالي، ومن ثمّ إلى حلب فاجتمع مع خايربك. وأصبح الجيش المملوكي يضم قوات خايربك والغزالي والأمراء اللبنانيين.

في ٢٤ آب من العام نفسه، وقعت المعركة الكبرى والفاصلة بين الجيشين في مرج دابق، شمالي حلب. وقد تمكّن العثمانيون من استمالة الغزالي وخايربك اللذين انضمّا إليهم مع عدد من الأمراء اللبنانيين، مما بدّل سير هذه المعركة وجعلها تميل في النهاية لمصلحة السلطان سليم الأول العثماني. وكان العثمانيون يعتمدون على سلاح المدفعية، فيما المماليك يعتمدون على سلاح الخيالة. ولم يطل الأمر حتى قتل السلطان المملوكي الغوري وتشتت جنده وانفتحت أمام السلطان سليم منطقة بلاد الشام ودانت له وخضعت، مستبشرة خيراً بعهده الذي قام على انقاض دولة لم يعرف المشرق العربي حكماً يشبه حكمها في جوره وفوضاه وتعصّبه. لذلك استقبله أهالي بلاد الشام كمنقذ ومحرر، بعد ان أرهقهم حكم المماليك وجعلهم يترقبون الفرج من أي غازٍ جديد.

ولمّا تمّ للسلطان العثماني فتح البلاد الشامية، ولّى الغزالي عليها.(٢)

استغرقت معركة مرج دابق «من طلوع الشمس إلى ما بعد الظهر». وقد بلغ عديد الجيش العثماني نحو ٤٠ ألف مقاتل مجهزين بأحدث المدافع المعروفة آنذاك، وقيل إنهم كانوا ٨٠ ألفاً مجهزين بثمانماية مدفع، مقابل ٤٠ ألف مملوكي من دون مدافع، متكلين على خيالتهم. ويقال إن عسكر الشام والشوف والساحل، قدر

---

(١) الشدياق، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٣.
- حتي، مرجع سابق، ص ٤٣١.

(٢) الشدياق، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٩٣.
- حتي، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

بحوالى ١٣ ألف مقاتل من خيالة التيمار والزعامات والمرتزقة.

ج - النتائج السياسية لمعركة مرج دابق على المقاطعات اللبنانية:

وما أن شاع ان السلطان المملوكي قانصوه الغوري قد قتل على يد السلطان سليم الأول، وأن جنده في تشتت، حتى أسرعت الوفود إلى الغازي العثماني من كلّ أنحاء بلاد الشام، علماء واعياناً مرحبة به. مع العلم أن أمراء بني بحتر التنوجيين، أمراء الغرب في لبنان وقفوا إلى جانب المماليك وساعدوهم عسكرياً. وظلّ أمراءُ بني معن، أمراء الشوف، في موقف المتفرّج المترقب. ويقال إن الأمير فخر الدين المعني الأول، أجرى مفاوضات سرية مع والي حلب خايربك ووالي الشام الغزالي وكلاهما من الذين خانوا المماليك. ويقال إن الأمير المعني قال لرجاله «دعونا ننتظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه».[1] لقد ذهب مع هذه الوفود المرحّبة، وفد لبناني من أصحاب اقطاعات الشوف والمتن وكسروان، على رأسهم الأمير فخر الدين المعني الأول أمير الشوف، وجمال الدين التنوخي من الغرب، والأمير عساف التركماني من كسروان وغيرهم، ما عدا مقدمي الموارنة.

لقد ترتبت على هذه الزيارة المرحّبة بالسلطان سليم الأول، نتائج سياسية عدّة، طبعت لبنان الحديث بطابعها حتى السنة ١٨٤٠، ويمكن اختصارها بالآتي:[1]

١ - تثبيت الإمارة المعنية كوريثة شرعية للإمارة التنوخية.

٢ - تحكّم الصراع الحزبي: القيسي اليمني بتاريخ الإمارة المعنية منذ نشأتها.

٣ - إن الصراع القيسي - اليمني اتخذ طابع العنف. وقد شمل بعض القبائل المجاورة خارج لبنان، فالصراع في لبنان سمح بتدخّل الولاة المجاورين، وقد ظهر العنف في الوشايات بين الأمراء على بعضهم البعض للتفرّد بالسلطة.

٤ - غياب الموارنة عن الزيارة، وهذا يعني أن السلطان لم يعترف بهم كملّة ولم يثبّت

---

(١) العثمانيون، مرجع سابق، الجامعة اللبنانية.

مقدميهم على اقطاعاتهم في الشمال وجبيل وكسروان الأمر الذي ستكون له نتائج سياسية واجتماعية بالنسبة لهم وللإمارة. والجدير ذكره أن الموارنة كانوا مفكّكين تحت سلطة مقدّميهم وملحقين بنيابة طرابلس.

٥ – المعنيون أمراء الشوف

أ – قبيلة بني معن:

كان لبنان منذ وجوده حتى اليوم «أرض الأقليات من الشعوب وملتقى الأمم»،[١] وقد استطاع بفضل هذه الميزة، أن يجسّد دوراً مهماً في تاريخ العالم وأن يساهم في تطوّر الإنسانية بتأثير ثقافة شعبه المتعدّدة الاتجاه.

في بداية القرن الثالث عشر، بدأت حقبة زمنية مظلمة في لبنان وبلاد الشام بسيطرة المماليك، أسياد البلاد المصرية. ولم تنته هذه المظالم المتأتية من هؤلاء إلاّ في السنة ١٥١٦، عندما انتصر السلطان العثماني سليم الأول عل سلطان المماليك قانصوه الغوري في مرج دابق، انتصاراً تاماً. وهذه المعركة بالنسبة إلى مصير بلاد الشام كانت معركة فاصلة حاسمة.

دخل السلطان العثماني مدينة حلب دخول الظافر المنتصر فرحّب به الناس كمنقذ خلّصهم من ظلم المماليك، ثمّ تابع زحفه نحو مدينة دمشق، حيث لاقاه سكانها بترحاب.[٢] وهكذا انتقلت بلاد الشام سلماً، من حكم المماليك إلى الحكم العثماني، لمدّة أربعة قرون من الزمن، انتهت السنة ١٩١٨.

في معركة مرج دابق وقف بنو بحتر، أمراء الغرب في لبنان، إلى جانب المماليك يساعدونهم عسكرياً، بينما ظلّ بنو معن، أمراء الشوف، في موقف المتفرّج المترقّب، في انتظار لمن ستكون الغلبة. وهكذا حلّ المعنيون محل البحتريين والتنوخيين في تولي إمارة لبنان الأوسط والجنوبي وعلى رأسهم

(١) شبلي، ميشال، فخر الدين المعني الثاني – أمير لبنان (بيروت ١٩٨٤)، منشورات الجامعة اللبنانية، ص ١.
(٢) حتي، فيليب: لبنان في التاريخ (بيروت – دار الثقافة – دون تاريخ)، ص ٤٣١.

أمير معني كبير هو الأمير فخر الدين المعني الأول. «... وبه غابت شمس الإمارة التنوخية وأشرقت شمس الإمارة المعنية».(١)

ينتسب الأمراء المعنيون إلى الأمير معن ابن ربيعة الأيوبي المتحدّر من العرب الأيوبيين المتسلسلين بدورهم من ربيعة الفَرَس بن نزار بن معد بن عدنان، المنتسبة إليه العرب المستعربة. وقد ارتحل ربيعة والد معن من الجزيرة العربية إلى الديار الحلبية، وفيها توفي فقام مقامه ولده معن الذي حارب الافرنج في الجبل الأسود وخسر المعركة.(٢)

في السنة ١١٢٠ أمره حاكم دمشق طغتكين بأن يقوم بعشيرته إلى البقاع، ومنها إلى جبال لبنان المشرفة على الساحل، لقتال الصليبيين الموجودين هناك قرب الشاطىء اللبناني.(٣) وهكذا نهض الأمير معن بعشيرته وأتى منطقة الشوف وحلّوا في صحراء بعقلين وجعلوها مقراً ومسكناً لهم.(٤) ويقال إن هذه المنطقة كانت قفراً من السكان... والله أعلم. ومع توالي الأيام تخلّى المعنيون عن حياتهم الرحلية وبنوا البيوت والمنازل الحجرية بعدما تقرّبوا من بني تنوخ أمراء الغرب، وعلى رأسهم الأمير بحتر الذي اتخذ الأمير معن حليفاً وعضداً على محاربة الصليبيين. وقد اشتهر الأمير معن بالبسالة والشجاعة وكرم اليد. فمال إليه الناس وصار مقصداً لكلّ ملهوف ولاجىء من بلاد الشام، فعمرت المنطقة بالأهالي وازدهر العمران وكثر عدد السكان.

ب - الأمير فخر الدين المعني الأول:

توفي الأمير معن الجد الذي ينتسب إليه المعنيون في السنة ١١٤٩، بعدما اطمأنّ إلى سير إمارته نحو السؤدد. وقد خلفه في الحكم عدد من الأمراء المعنيين، كان أبرزهم الأمير

(١) الشدياق طنوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، الجامعة اللبنانية ١٩٧٠، ص ٢٥٠ - ٢١٥.

(٢) الشدياق، المرجع السابق، ص ٢٠٢ - ٢٤٧.

(٣) حتي، المرجع السابق، ص ٤٥٠.

(٤) المحبي محمد، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر (القاهرة) المطبعة الوهبية، جزء ١، ص ٢٦٦.

فخر الدين بن معن بن عثمان أو فخر الدين الأول المعني. ومع هذا الأمير انتقلت إمارة الشوف بصورة نهائية من الأمراء التنوخيين إلى الأمراء المعنيين في مطلع الفتح العثماني لبلاد الشام العام ١٥١٦ عندما خلع السلطان سليم الأول المنتصر في معركة مرج دابق على الأمير المعني خلعة الإمارة، ويقال بأنه لقّبه بسلطان البر «وفوّض إليه كلّ أمور الشام وجعله مقدماً على الجميع».(١)

في معركة مرج دابق انقسم أمراء لبنان إلى قسمين: منهم بنو بحتر أمراء الغرب وقفوا إلى جانب المماليك بينما بنو معن أمراء الشوف وقفوا إلى جانب العثمانيين بالاتفاق مع والي الشام المملوكي جان بردي الغزالي. وحسب تعبير الأمير حيدر الشهابي في تاريخه يقول «إن الأمير فخر الدين طلب من الأمراء التريث لمعرفة لمن ستكون الغلبة».

بعد معركة مرج دابق واصل السلطان سليم الأول تقدّمه نحو الشام فوصلها في أوائل تشرين الأول ١٥١٦ حيث جاءته وفود من بلاد الشام(٢) وهي:

- قيادات القلاع في سوريا.
- الأمراء العرب، مثل ناصر الدين بن الحنش أمير البقاع الذي منحه السلطان سليم سنجقاً وبعض الاقطاعات والتزم ابن الحنش بأن يقدّم البدو ولاءهم للسلطان العثماني.
- دروز لبنان: وكانوا يقسمون إلى قبيلتين: الأولى واسمها «اليمنية»، قبيلة الأمير علم الدين التنوخي والثانية واسمها «القيسية» قبيلة الأمير فخر الدين بن معن. وكي يكسب السلطان ولاء القيسية رفع أحد أمرائهم وهو فخر الدين إلى رتبة سنجق باي بعد أن سلّمه الطبل والبيرق علامة الرضى والاستحسان.

أما الرواية التقليدية فتقول بأن الوفد اللبناني الذي قابل السلطان سليم في الشام كان مؤلّفاً من:

---

(١) الشدياق: المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٢٣٦ - ٢٣٩.

(٢) ضومط، ص ١٩٢ - ١٩٣.

- العثمانيون، مرجع سابق.

- الأمير فخر الدين المعني أمير الشوف (قيسي).
- الأمير جمال الدين التنوخي أمير الغرب (يمني).
- الأمير عساف التركماني أمير كسروان.
- الأمير منصور الشهابي أمير وادي التيم.

من كلّ ذلك نستنتج أن السلطان سليم، بتسليمه الطبل والبيرق، كما يقول مؤرّخ حياته Djihamuna، إلى الأمير فخر الدين المعني، بيّن للجميع علامة الرضى والاستحسان تجاه هذا الأمير الذي أصبح مقدماً على أمراء الوفد، وليس على أمراء الشام، كما يقول بعض المؤرّخين. كما أنه ثبّت الإمارة المعنية كوريثة شرعية للإمارة التنوخية على رأسها الأمير فخر الدين الذي «به غابت شمس الإمارة التنوخية وأشرقت شمس الإمارة المعنية»، التي بقيت حتى القرن السابع عشر (١٦٩٧).

لقد أبقى العثمانيون، بعد انتصارهم العام ١٥١٦، على التقسيم الإداري الذي كان معمولاً به في بلاد الشام في أواخر الحكم المملوكي، مع بعض التعديل واستبدلوا النيابة بالولاية وقسّموا سوريا إلى ثلاث منها هي: دمشق وطرابلس وحلب. وقسّموا كلّ ولاية إلى عدد من الألوية أو السناجق. وقد ظلّ هذا التقسيم معمولاً به حتى أواخر الحكم العثماني، وكانت بيروت وصيدا تابعتين لدمشق. أما طرابلس فقد تضمّنت خمسة سناجق. وكان يعهد بشؤون الولاية إلى والٍ عثماني يمنح لقب باشا، أما السنجق فيعهد به إلى «بك» يسمّى سنجق بكي أي بك اللواء وهو برتبة أمير لوا. والمعروف آنذاك أن الباشا أو البك كان يشتري ولايته أو سنجقه بالأموال عاما بعد عام. مقابل ذلك كان هؤلاء لا يتقاضون رواتب محدّدة، إنما كانوا يفيدون من حصة معيّنة من الضرائب المجباة من المواطنين في السنجق أو الولاية، ولكلّ قاعدة شواذها.

ومن المعروف أن السلطان سليم الأول منح إمارة الشوف امتيازاً خاصاً، وأنعم على الأمير فخر الدين بن معن. بحكم هذه الإمارة، نظراً إلى ما أبداه من ضروب الاخلاص والولاء للسلطان العثماني ابان معركة مرج دابق. وقد بقيت هذه الإمارة في عهدة آل معن أمراء البلاد حتى أواخر القرن

السابع عشر (١٦٩٧) عندما انقطعت سلالتهم بوفاة الأمير أحمد المعني.

ج - التوزيع الجغرافي والطائفي للمقاطعات اللبنانية:

كانت المقاطعات اللبنانية بكاملها تابعة إلى إحدى الولايات العثمانية السابقة الذكر. ويقول حنانيا المنيّر في كتابه «الدر المرصوف في تاريخ الشوف» «كان حدّ البلاد قبل أيام فخر الدين من جزين إلى غزير فقط» وهذه المنطقة كانت تسمى بالشوف أو جبل الدروز وأيضاً بالشوف المعني أو بالشوف الصيداوي.[١] وكان الشوف يقسم بدوره إلى سبع مقاطعات:

- **الشوف السويحاني** - من بيت الدين إلى الباروك وقاعدته بعقلين.
- **المناصف** - من وادي بيت الدين إلى جسر القاضي وقاعدته دير القمر.
- **الشحار** - من جسر القاضي إلى الدامور وقاعدته عبيه.
- **الغرب - الأعلى** وقاعدته عيتات أو عاليه، **والأسفل** وقاعدته الشويفات.
- **الجرد** - من نهر الغابون إلى نهر الصفا ويقسم إلى الجرد الجنوبي وقاعدته رشميا والجرد الشمالي وقاعدته بتاتر.
- **العرقوب** - العرقوب الأعلى وقاعدته عين زحلتا والأدنى وقاعدته الباروك.
- **إقليم الخروب** - وقاعدته شحيم.

وقد برز في الشوف: المعنيون وعاصمتهن بعقلين. والجدير ذكره أن قبيلة بني معن، عندما وفدت إلى لبنان، وفد معها بعض البطون منهم: بنو نكد، بنو تلحوق وبنو عماد. وقد تحالف المعنيون مع الشهابيين في وادي التيم،[٢] أما في الغرب فقد كان التنوخيون في بلدة عرمون وكانوا قيسيين، أما أقرباؤهم في عبيه فكانوا يمنيين وعلى رأسهم الأمير علم الدين. أمّا الأمراء آل ارسلان فكانوا يمنيين وكانت عاصمتهم الشويفات. أما جبل لبنان فقد سكنه الموارنة وكانوا تحت سلطة مقدميهم الذين كانوا يتبعون لولايه

(١) المنيّر حنانيا: الدر المرصوف في تاريخ الشوف - نشر في مجلة المشرق عام ١٩٥٤.

(٢) تحالف الأمير فخر الدين الأول مع الأمير منصور الشهابي بصك على ان يكونا حالاً واحداً.

طرابلس. وجبل لبنان هذا هو المنطقة الممتدة من جبيل إلى عكار وفيها خمسة أقسام:

- جبيل.
- البترون.
- جبة بشري.
- الكورة.
- الزاوية.

وكانت منطقة كسروان تضاف بعض الأحيان إلى جبل لبنان وبعض الأحيان الأخرى كانت مستقلّة. وكان بنو حماده يحكمون جردي البترون وجبيل، ولهم مزارع عديدة في الكورة والزاوية. أما بنو الدحداح المنتمون إلى قبيلة بني الهاشم فكانوا يمنيين. وأما جبّة بشري فقد حكمها بنو الشدياق. وفي كسروان كان بنو عساف التركمان، وقد وسّع السلطان سليم حدود الولاية حتى جبيل، وكانت تمتد من انطلياس إلى المعاملتين. أما منطقة عكار وطرابلس فقد حكمها بنو سيفا الأكراد. والبقاع حكمه بنو حرفوش الشيعة وكان تابعاً لقيادة دمشق. أما منطقة جبل عامل اللبنانية فقد كانت تابعة لسنجق صيدا وكانت مؤلّفة من:

- إقليم التفاح.
- جزين.
- جبل الريحان.

ثلاث مناطق كانت لبنانية ولم يكن أي خلاف عليها هي: الشوف - جبل عامل وجبل لبنان. أما مدن الساحل (طرابلس وصيدا) ومدينة دمشق، فكانت تتجاذب الأسر اللبنانية، مستغلّة بذلك طبيعة التكوين القبلي لهذه الأسر، ولأغراض قد تلائم الذهنية القبلية وتخدم أهداف السياسة العثمانية.

أما القبائل فكانت تعيش علاقات تقارب أو تنافس، فعندما كان ولاة صيدا وطرابلس ودمشق يتجاذبون الأسر اللبنانية، كانت تقع الحروب ويتفجّر الثأر والكراهية. وقد استغلّ العثمانيون هذه الخلافات لمصلحتهم لأنها كانت تضعف الحكام المحليين. والكل يعلم أن الذهنية القبلية وتكوين الأسر القبلي يتنافيان مع مفهوم الاجتماع السياسي الذي هو كناية عن الدولة قاعدة السلطة الموحّدة.

وإذا استثنينا الموارنة من الأسر اللبنانية التي عددناها، نرى أن أغلبية الأسر متحدرة من القبائل العربية التي استقرّت في لبنان

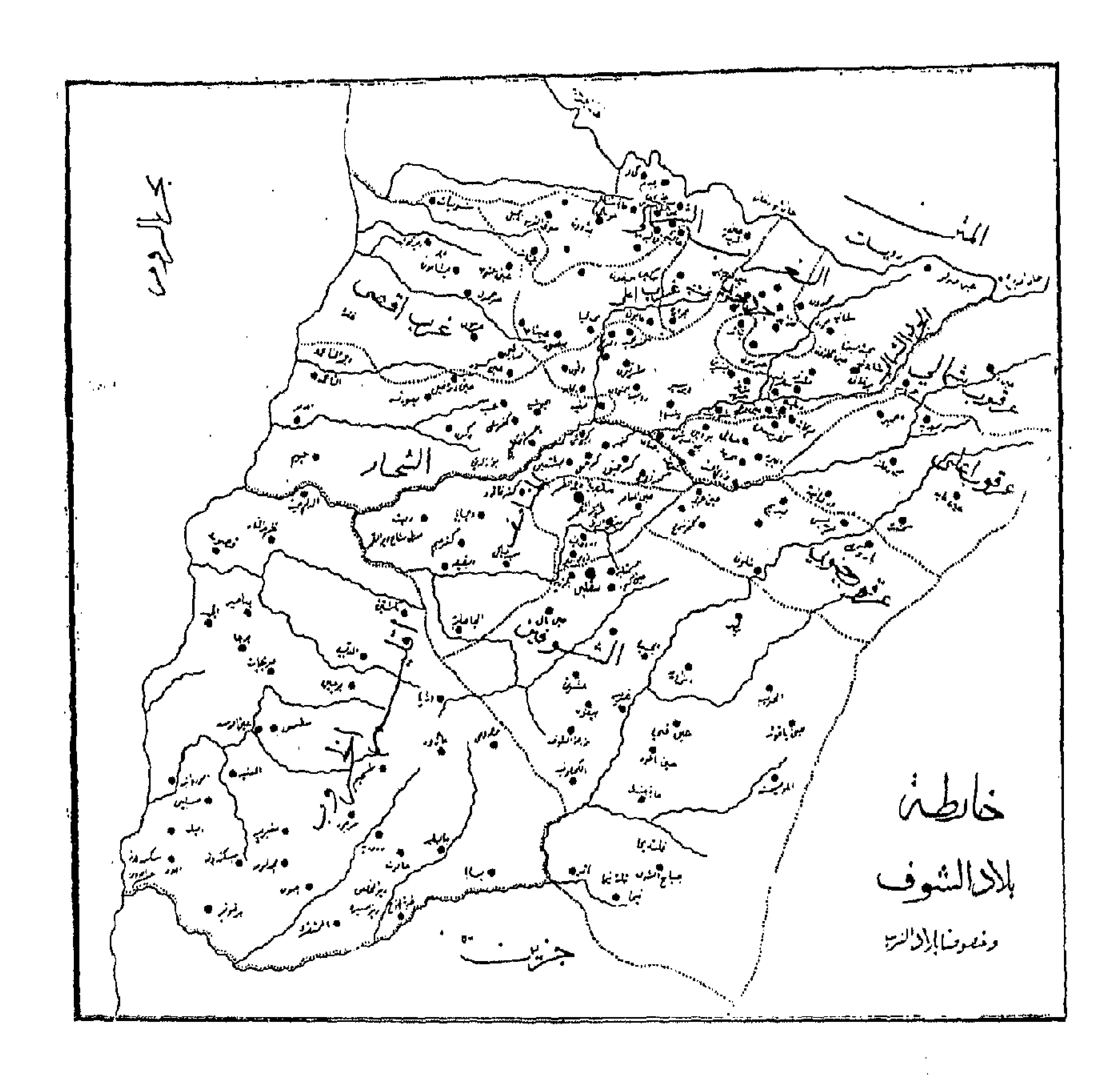
منذ الفتح العربي، وقد حملت معها عندما نزحت عن الجزيرة العربية كلّ خصائصها القبلية. فتبلورت في لبنان من جهة بالانقسام الحزبي بين القيسية واليمنية ومن جهة أخرى بالتبعية للسلطة المسيطرة عسكرياً. ومن هنا كانت تحالفات القبائل للمحافظة على شخصياتها. فالوالي العثماني كان يمثل الحكم، أي السلطة التنفيذية، أما السلطان فكان يمثل السلطة الكلية الكاملة. لذلك حاول الأمراء اللبنانيون الارتباط مباشرة بالسلطان.

لقد توزّعت الأسر في لبنان ما بين الموارنة والدروز والسنة والشيعة. وهذا التوزيع الطائفي اتخذ أيضاً أبعاداً جغرافية، بمعنى أن الموارنة والدروز كانوا في جبل لبنان والشوف، والسنة والشيعة في الساحل والداخل. وباختصار كلي كانت معركة مرج دابق نقطة تحوّل في تاريخ الشرق الأوسط نظراً لفسحها المجال أمام ظهور قوة عسكرية وسياسية مركزية صارمة على أنقاض التشتت الإقطاعي المملوكي. وهذه الوحدة السياسية اعتبرها المؤرّخون إحياء للمركزية الهامة التي كانت أيام العباسيين في أوج عزّهم وسؤددهم. وبالرغم من ذلك، فقد عزلت منطقة الشرق الأوسط عزلة تامة طيلة حقبة طويلة، عن مجاري التطوّر الحضارية والتجارية التي كانت تعيشها اوروبا.

كانت المقاطعات اللبنانية تُعطى لمن يقوم بخدمة الدولة العثمانية وتنتقل بالإرث إلى أبنائهم وإخوانهم من بعدهم طالما استمرّوا بخدمة السلطان ودفعهم الضرائب له. لقد أكد العثمانيون ما أمكن نفوذهم في هذه المقاطعات وحافظوا على الأسس الاقتصادية والاجتماعية السائدة في المنطقة الخاضعة لهم مع تطبيق الشرع الإسلامي على أساس المذهب الحنفي ولذا بقي حكمهم قليل التأثير في حياة هذه المجتمعات التي خضعت لهم. لذلك تفاوت شكل سيطرتهم على هذه المقاطعات، فبقيت شكلية في المناطق الجبلية أو البعيدة عن مركز السلطنة واستمرّت الزعامة المحلية تبسط سيطرتها على مقاطعاتها باسم السلطان وتؤدي للدولة «العلية» قدراً معيناً من الجزية والضرائب. والجدير ذكره أن المقاطعجية كانوا يفرضون سلطانهم على

مقاطعات غير مقاطعاتهم، وذلك نسبة إلى قوّة المقاطعجي. وهذا الأمر سنراه مع الأمير فخر الدين الثاني المعني حيث حكم مناطق واسعة مثل عجلون ونابلس وتدمر عدا إمارته اللبنانية. حتى أن بعض الحكام المعنيين اتخذوا لهم عاصمة ثانية خارج مقاطعتهم بالذات أي في صيدا وبيروت، وقد اعترف لهم بها السلطان العثماني. وهذا الشيء كان له الدور الإيجابي في إيجاد ركائز إمارة متحدة على أرض لبنان الحالي.

خارطة بلاد الشوف رقم واحد
وخصوصاً بلاد الغرب[1]



(١) بن يحيى، صالح، تاريخ بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص ٢، بيروت، ١٩٢٧.

الفصل الرابع
الصراع الحزبي في العهد المعني

١ - نظرة عامة

في العام ١٤٥٣، حقق العثمانيون الأتراك حلماً عظيماً تجلّى باحتلال السلطان محمد الثاني الفاتح مدينة القسطنطينية. وهو حلم ظلّ يراود كبار الخلفاء والسلاطين منذ العهد الأموي حتى أيام العثمانيين. وكانت لسقوط القسطنطينية نتائج هامة منها التأثير النفسي في البلدان الإسلامية والأمل بان العثمانيين سيوحّدون العالم الإسلامي ويقودونه، بدلاً من السلطنة المملوكية، إلى اوج العز والسؤدد.

في العام ١٤٠٠، وبعد الغزو المغولي لبلاد الشام، نزح عدد كبير من سكانها إلى الجبال اللبنانية طلباً للأمان مما أدّى إلى امتلائها بالناس وراح الإقطاع يتحوّل إلى عائلات إقطاعية مستمرّة تتوارث عملها من دون أن يكون هناك حق التوريث. وتحول الاقطاعي إلى صاحب سلطة لأنه كان يقوم بمهام الدولة، وتحوّلت العائلات الاقطاعية حكومات محلية مصغّرة تتحالف وتتناحر وفقاً لمصالحها الخاصة وليس وفقاً لمصالح الدولة.

وقد تميّزت هذه الحكومات الاقطاعية في لبنان عن بقية مناطق الاقطاع المملوكي، بطابع طائفي، ولكنه سرعان ما امتصّه الصراع القيسي - اليمني الذي رسم الخط السياسي لتاريخ لبنان في العهد العثماني.

٢ – القيسية واليمنية

انقسم مجتمع الإمارة المعنية انقساماً حزبياً لا طائفياً كما على أيام المماليك بين الحزبيتين القيسية واليمنية، وانضوت العائلات من مختلف الطوائف ومن دون حساسيات مذهبية أو اتنية، تحت لواء هذين الحزبين الوحيدين آنذاك.

تعود القيسية واليمنية في أصولهما إلى عرب الجاهلية، وقد كانت قبائل نزار وتميم ومضر وربيعة قيسية. أما اليمنية فقد استقطبت أغلبية القبائل التي نزحت من جنوبي الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشام وخرسان، وعلى رأس هذه القبائل قبيلة بني كلب في الشام وقبيلة الازد في خرسان.

وعندما جاء الإسلام حمل معه في فتوحاته هذين الحزبين السياسيين. ففي البداية اشتدّ الصراع القيسي – اليمني في العهد الأموي وبعده في العهد العباسي. وانقسم الناس ووقعت الخلافات الدموية بينهم حتى شمل العالم الإسلامي كلّه، ودام حتى معركة عين داره في لبنان العام ١٧١١، حيث انتصرت القيسية انتصاراً كاملاً مع الأمير حيدر الشهابي وقضي على اليمينية قضاءًا مبرماً.

غذّت السلطنة العثمانية هذا الانقسام السياسي وشجّعته مستفيدة من مقولة «فرّق تسدْ» فعمّ الانقسام الناس من كافة المذاهب في المقاطعات اللبنانية وخارجها ووقعت الحروب الطاحنة بين الحزبين ودفع الأهالي الدماء الغالية ثمناً لها.

لقد تحكّم الصراع القيسي اليمني بتاريخ الإمارة المعنية منذ نشأتها، وهذا يؤكّد أمرين اثنين: **الأول**، أن السلطة المجزّأة هي تعبير عن وضعية اجتماعية مفككة بين الأسرة الحاكمة. **والثاني**، أن طبيعة الاجتماع السياسي هي طبيعة تعاقدية حول السلطة أي يتعاقد الفرقاء حول السلطة من دون أن يذوبوا في بعضهم البعض. فالقبائل العربية التي نزحت إلى لبنان واستوطنت فيه كوّنت مجتمعاً قبلياً حيث السلطة تعود إلى شيخ القبيلة الذي كان يرفض تدخّل أي سلطة خارجية مع سلطته. ان الصراع القيسي – اليمني انعكس على طبيعة الاجتماع السياسي في لبنان. فكلّ الذين تعاونوا مع

الحزب القيسي أو اليمني، تعاونوا تعاقدياً للوصول إلى السلطة، فالحاكم كان حَكَماً.

لقد اتخذ هذا الصراع الحزبي طابع العنف فشمل بعض القبائل المجاورة خارج لبنان والإمارة المعنية، وهذا الصراع في الإمارة سمح بتدخّل الولاة العثمانيين المجاورين. وقد ظهر العنف في الوشايات بين الأمراء بعضهم ضد البعض للتفرّد بالسلطة. أولى بوادر هذا الصراع بدأت في بداية وصول العثمانيين إلى بلاد الشام، مع قصة خروج ناصر الدين بن الحنش[١] ومعه أمراء من التنوخيين، كآل علم الدين وغيرهم، وأمراء من المعنيين، بالعصيان على الدولة ومحاولته الاستقلال والتمرّد في البقاع، مما أغضب السلطان العثماني سليم الأول الذي هزم هذا الاتحاد فقتل ناصر الدين وحليفه علم الدين وزالت الزعامة التنوخية اليمنية في لبنان، وبرزت زعامة جديدة قيسيّة قائمة على تحالف آل معن في الشوف وآل شهاب في وادي التيم، ومن أبرز قادتها، ولعله الأول، كان الأمير فخر الدين المعني الأول.

قاد هذا التحالف سياسة لبنان مدّة طويلة من الزمن، أي حوالى ثلاثة قرون، كما أنه فرض إلى حد كبير «الخطوط الرئيسية العامة لتاريخ لبنان الحديث».

والجدير ذكره أن الانقسام إلى قيسية ويمنية لم تشهده مناطق الإمارة التنوخية قبل العهد العثماني، كما أن هذا الانقسام لم يكن نتيجة اختلاف الانتماءات العصبية للعائلات التي تمحورت حول الحزبين، بل لأسباب سياسية كان للعثمانيين دور في إذكائه.[٢]

٣ - بروز الإمارة المعنية مع فخر الدين الأول

عُرف هذا الأمير في قومه وجواره بالفطنة والجرأة ومرجعاً للقريب والبعيد. توفي السنة ١٥٤٤ تاركاً إمارته «سلطنة البر» لوحيده

(١) أمير صيدا والبقاعين وشيخ العربان.

(٢) حمزة، نايف، نديم: التنوخيون - دار النهار للنشر. ص ٢١٦.

الأمير قرقماز[1] وفيها بعض الاهتزاز والهدوء غير التام، فيما المنطقة التي تحيط بجبل لبنان، تمرّ بانتفاضات محلّية شبه متعاقبة، سواء في سوريا أو في فلسطين. والسبب في هذه الاضطرابات الثائرة أن الناس فوجئوا بعيوب الحكم العثماني الذي إتّبع أسلوب حكم المماليك الجائر وسياسة «فرّق تسد» فالسلطان العثماني اقتنع بلقب حامي الحرمين الشريفين وخليفة المؤمنين، كما أنه نصّب حكاماً ممّن استأمنوا إليه أو خانوا المماليك من أهل البلاد وتقرّبوا منه.

إن تقديم الأمير فخر الدين الأول على بقية الأمراء والمقاطعجية اللبنانيين نتج عنه الحسد والريبة لديهم، فابن الحنش شيخ العربان وابن حرفوش شيخ شيعة بعلبك وابن سيفا الكردي في عكار وطرابلس وابن عساف التركماني في كسروان، جميعهم يريد أن يكون مع الأمير ابن معن على قدم المساواة إن لم يتفوّق عليه. وقد شذّ موارنة الشمال القابعون في قممهم ووهادهم بعيداً من «الفتح والفاتح» العثماني، يفتّتون الصخور ويسهرون على شجرة التوت ودودة الحرير، قانعون بشظف العيش لأجل أن تبقى لهم حريتهم الدينية والدنيوية. وسيحالفون الأمراء المعنيين طوال عهدهم تحالف الصدق والوفاء، وقد بادلهم بنو معن الوفاء بمثله.

٤ – الأمير قرقماز وحادثة جون عكار

رافق حسد وريبة الاقطاعيين المحليين لآل معن، طمع وجبن وطيش وتقلّب. فالأمير قرقماز اتبع نهج والده فخر الدين، فوطّد الاستقلال وعدل في الرعية وسعى قدر طاقته إلى العمران، مراعياً «الدولة العلية» بتأدية الأموال الأميرية في مواعيدها بعد جبايتها من الحكام المحليين من دون عناء وإرهاق «ولا تبليص»، بينما هؤلاء يبتزّون الفلاحين والأهالي.

استمرّ حكم الأمير قرقماز على هذا المنوال حوالى الأربعين سنة، إلى أن حلت الكارثة المرعبة التي قضت عليه.

[1] إسم تركي يعني «الجريء».

في السنة ١٥٨٤، كانت قوّة من الجند العثماني تنقل الأموال الأميرية المحصّلة من مصر ولبنان إلى اسطنبول عاصمة السلطنة، ولدى وصولها إلى جون عكار سطا عليها مجهولون، اتفق المؤرّخون على القول أنهم لصوص، والحقيقة أن رجال الأمير يوسف باشا سيفا حاكم عكار هم الذين قاموا بهذا العمل اللامسؤول. فهل يعقل أن يأتي أناس غرباء عن المنطقة للسلب والنهب واسم حاكمها يلقي الذعر في النفوس والقلوب.

اتهمت السلطنة فوراً حاكم عكار يوسف سيفا، عندها زحف حاكم طرابلس، القريب من المكان، إلى عكار وبدأ بإحراق المنازل، فأرسل يوسف سيفا من يهمس في أذنه بأن اللصوص إنما هم من الشوف، رجال الأمير قرقماز، والكسروانيين رجال الأمير عساف التركماني. وهكذا وجّه السلطان إلى الشوف فرقة من الجند للاقتصاص من الأمير وتغريمه بالمال المسلوب، وكان يقود هذه الحملة العسكرية إبراهيم باشا والي مصر وصاحب الأموال المرسلة، وقد عرف عنه البطش، ويقال انه خطر في باله ذات يوم أن يهدم الاهرام. فقد انزل إبراهيم باشا بالشوفيين صنوف الويلات، وضرب عليهم نفقة جنوده وأمسك عليهم طريق البقاع والبحر وصادرهم بمليون غرش، وسلخ جلد مقدم دير القمر وهو حي وقطع رؤوس الكثير من العقال الدروز في عين صوفر وأرسلها إلى السلطان العثماني.

حضر إلى مقام إبراهيم باشا كلّ من الأمير محمد بن جمال الدين التنوخي من عرمون وابن عمه الأمير منذر من عبيه والأمير محمد عساف من غزير (المتهم مع الأمير قرقماز) وغيرهم. وقد أتوا للوشاية على الأمير قرقماز وليشدّوا من أزره ليستمرّ في بطشه وغيّه. وقد ألحّ إبراهيم باشا في طلب حاكم الشوف الأمير قرقماز الذي آلمه أن أمراء لبنان انحازوا إلى الوزير التركي وغدروا به وتركوه منفرداً. تجاه هذا الواقع توارى الأمير المعني مع عياله ومدبّره وفرّ إلى مغارة تيرون قرب بلدة نيحا الشوف. ويقال انه لشدّة تأثّره مما حلّ ببلاده أصيب بداء عضال أودى بحياته السنة ١٥٨٤، مكسور الخاطر مقهوراً، تاركاً يتيمين أحدهما وعمره ثماني سنين واسمه يونس والآخر ابن اثنتي عشرة سنة هو الأمير فخر الدين، ومعهما

والدتهما الست نسب التنوخية في عنفوان عمرها.

بعد غدره بعقّال الدروز في عين صوفر وتأكّده من وفاة أمير الشوف، أبحر إبراهيم باشا من بيروت إلى اسطنبول في أسطول من عشرين مركباً تركياً، حاملاً معه ثلاثة أمراء أسرى ومدير جمركي طرابلس وبيروت وأكثر من «مليون ذهب» عدا عن الهدايا والأمتعة الثمينة من حرير وغيرها كان قد أهداها له المقاطعجية لاتقاء شرّه، ومما نهبه مع عسكره من القرى اللبنانية.

بعد وفاة الأمير فخر الدين الأول، كما أشرنا سابقاً، امتدّ إقطاع الأمير منصور عساف من حدود نهر الكلب إلى حدود حمص وحماه، مما وفّر له مزيداً من المال والرجال فتضاعفت قوته. وقد أشاد قصراً عظيماً في جبيل، كما بنى أيضاً جامعاً وخاناً في غزير.[1] وابتداء من العام ١٥٧٩، بدأت الدولة العثمانية، تنظر بعين الخشية والقلق إلى تعاظم نفوذ الأمير منصور وسلطته فأخذت تعمل ما في وسعها لإضعافه، خاصة أنه بعد معركة لوبنتي البحرية العام ١٥٧١ والتي انتصر فيها الاسبان على العثمانيين، فتحت أمامهم أبواب المشرق، وخاصة بلاد الشام.

(١) دويهي - «البطريرك» اسطفان - تاريخ الطائفة المارونية - نشره رشيد الشرتوني، المطبعة الكاثوليكية - ص ١٥٨.

الفصل الخامس
الأمير فخر الدين الثاني المعني

١ - نشأة الأمير وتسلّمه الحكم

١١ - ولادة الأمير فخر الدين ونشأته:

وُلد الأمير فخر الدين الثاني في العام ١٥٧٢ في بلدة بعقلين عاصمة الإمارة المعنية يومذاك والده الأمير قرقماز، الذي ورث حكم إقطاعة الشوف السنة ١٥٤٤ عن أبيه، «سلطان البر»، الأمير فخر الدين المعني الأول. أما والدته فكانت «الست نسب» شقيقة الأمير سيف الدين التنوخي. نشأ الأمير فخر الدين وترعرع مع شقيقه الأمير يونس الذي يصغره بأربع سنين، في كنف والديه حتى بلغ الثانية عشرة من عمره في عام ١٥٨٤، يوم توفي والده في مغارة تيرون،[١] بعد حادثة جون عكار واتهامه بافتعالها.

مات الأمير قرقماز «واستأسد» معارضوه، فرأت الست نسب أن الحكمة تقضي بابعاد ولديها إلى مكان آمن خوفاً من اغتيالهما من قبل خصوم والدهما.[٢] ويقال ان خال اليتيمين، الأمير سيف الدين التنوخي، هو الذي خلف الأمير قرقماز المعني بحكم ولاية الشوف. ويقال أيضاً ان الست نسب اتفقت مع أخيها على إبعادهما إلى مقاطعة أخرى ريثما تهدأ الأمور وتعود إلى مجاريها الطبيعية. لذلك استدعت أحد أنصار البيت المعني، الحاج كيوان الماروني

(١) الشدياق، ج ١، ص ١٨٦.

(٢) الشدياق، مماثل، ص ٢٩٤.

الأمير

فخر الدين المعني الثاني الكبير

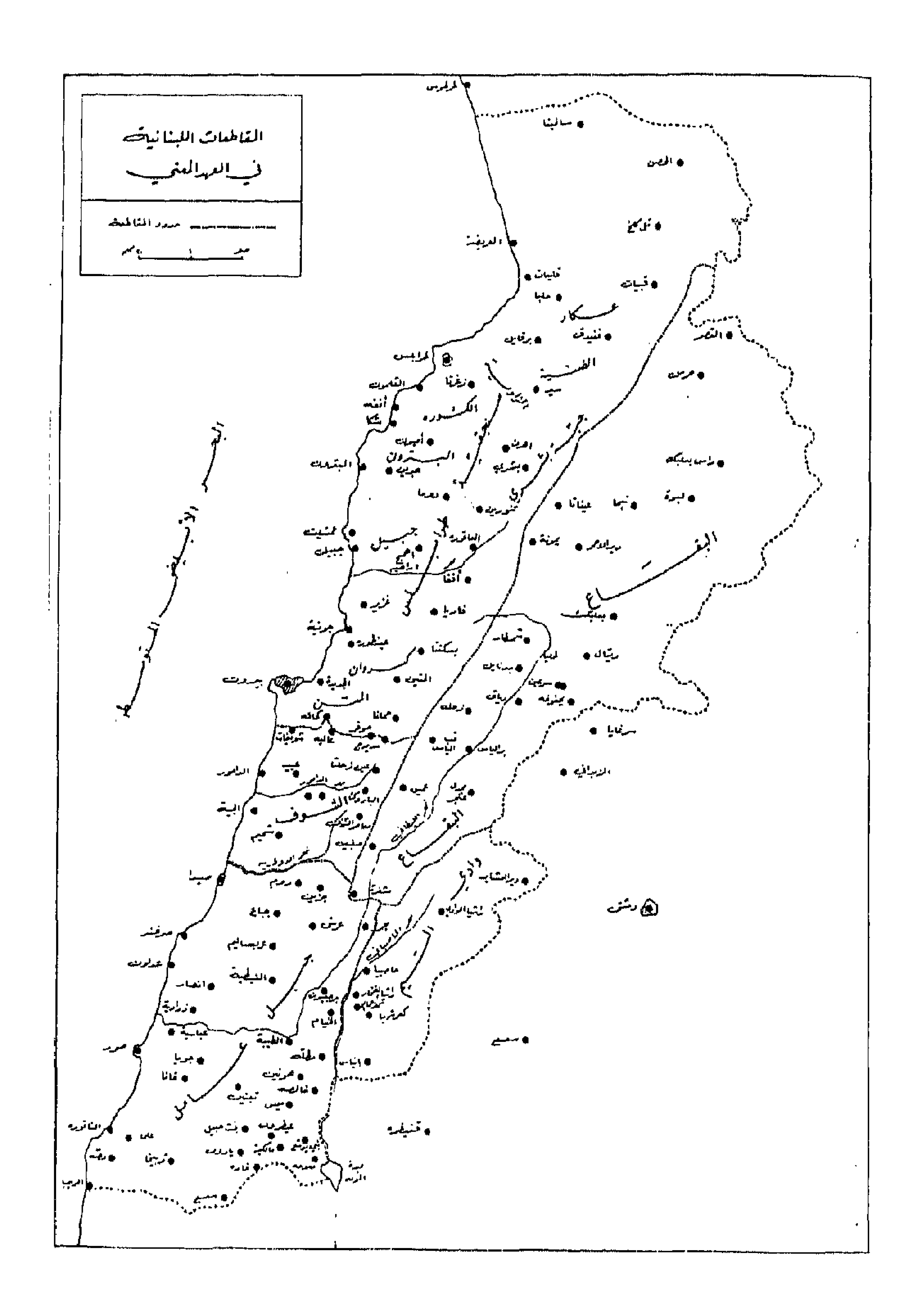


Ismaïl, Adel, Histoire du Liban, T 1, P. 5.

(صورة وجدها المؤرّخ الدكتور عادل إسماعيل في إحدى المخطوطات عن الدروز في المكتبة الوطنية بباريس).

(Fond arabe, No, 1429, F80)

خارطة رقم ٢
المقاطعات اللبنانية في العهد المعني



من بلدة دير القمر في الشوف وطلبت منه ان يخفي الصغيرين بعيداً من أرض الإمارة. وقد حقق للوالدة، النقية الطاهرة صاحبة الفطنة والذكاء، أمنيتها[1] وخبأهما في انطلياس عند صديق له يدعى إبراهيم الشدياق سركيس الخازن، الذي انتقل بهما إلى مزرعة صغيرة نائية عن أعين الفضوليين من الناس، في إحراج كسروان اسمها «بلونة» من أرض عجلتون، فعاشا فيها متنكّرين أكثر من ست سنين، أحدهما باسم فخر والثاني باسم يونان. وقد قام بتربيتهما إبراهيم سركيس الخازن (أبو صقر) وأخوه رباح.

في العام ١٥٩٠، «لما صارت الراحة في لبنان»،[2] استدعى، الأمير سيف الدين التنوخي، الأمير فخر الدين وأخيه الأمير يونس إلى بلدة عبيه، ولما حان الوقت، ولّى الأمير فخر الدين إمارة أبيه حيث انتقل إلى السمقانية في الشوف فاجتمع إليه حوالى ١٥٠ فارساً وبايعوه الإمارة وحملوه إلى بعقلين. ويقول الشدياق «ولمّا بلغا أشدّهما، سلّمهما ولايتهما في الشوف...». وهكذا أصبح فخر الدين أميراً للدروز أو أمير الشوف أو أمير آل معن.

١٢ - شخصية الأمير:

يقول الخالدي:[3] «اعلم رحمنا الله وإياك... ان حضرة الأمير فخر الدين... متواضع... حليم عند الغضب... يصغي إلى المظلوم فينصفه من ظالمه ويرثي لحاله فيكون له خير راحم...» ثمّ يقول «... مهاب جليل ذو عطاء جزيل يباشر تدبير مملكته بنفسه ويضبط أموالها ويتقي أمورها بقوّة حدسه... قوي العزم شديد الحزم، حسن التدبير، وكما يعطف على الغني يحنو على الفقير...» هذه هي الصفات الايجابية التي ذكرها الخالدي، الأمر الذي يدلّ إلى أن الأمير كان مطّلعاً على أوضاع إمارته

(١) الشدياق، ج ١، ص ٢٩٤.

(٢) الشدياق، ج ١، ص ٢٩٤.

(٣) الخالدي، الصفدي، لبنان في عهد الأمير فخر الدين الثاني - منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩، ص ٣ - ٤.

ويتصرّف انطلاقاً منها ويعرف ان أي تصرّف أرعن يمكن ان يؤدي إلى اقتتال.

إلى جانب هذه الصفات الإيجابية، هناك من يتهم الأمير كبعض الرحالة، وباجيه سانت بيار في كتابه «الدروز» وكان معاصراً لفخر الدين، فيأخذون عليه مساوماته وخيانته، خاصة عندما يتعرّض لأعدائه. ففي ما يتعلّق بالمساومات، فإن الأمير وجد في مرحلة كانت فيها الدولة العثمانية في وضع مفكك، وكانت الرشوة الأساس في تعاملها مع ولاتها، فإذا ما ساوم الأمير فإنه يساوم ضمن التقاليد العثمانية السائدة وبناء على مصلحته. وانطلاقاً من وضع الدولة يمكن أن نفهم خيانة الأمير: أن يخون الأمير العثمانيين، أمر بسيط جداً ومعروف، خاصة في عصر تسيطر عليه المصالح الفردية، وعلى كلّ والٍ أن يحفظ رأسه بقدر المستطاع. والخيانة كانت من التقاليد السياسية المتبعة في الدولة العثمانية.

ولفهم مساومات الأمير وخيانته، إذا كان هناك من خيانة، علينا أولاً الإحاطة بأوضاع العصر وتقاليد السياسة العثمانية يومذاك، وكلها كانت قائمة على المساومات والرشوة والخيانة.

وانطلاقاً من وضع الدولة، يمكن أن نفهم محاولة الأمير التوفيق بين مطامعه الشخصية والخطة السياسة الهادفة في وسط فوضوي يقوم على الدسائس والمطامع. فهذه الدسائس والمطامع التي كانت تحرّك أولاً الولاة العثمانيين في ما بينهم وثانياً مع الدولة العثمانية، فرضت على الأمير سلوكاً خشناً، أي أن يكون حازماً قوي العزم حسن التدبير، ثمّ عليه أن يتقن فن المداورة أو المساومة ليتجنّب على الأقل الأخطار المحدّقة به. في هذه الحال وجد الأمير نفسه في خطر، ان هو لم يتدارك أمره بحنكة سياسية ودراية.

٢ – حياة الأمير السياسية

٢١ – سيرته في الحكم:

عندما وصل الأمير فخر الدين الثاني المعني إلى حكم الإمارة العام ١٥٩٠، كانت إمارته محاطة بإمارات غنية وقوية، يرأسها أمراء دهاة وأذكياء شديدو البأس والشكيمة، بالإضافة إلى ما ورثه من خصومات محلية وعداوات مع بعض الولاة العثمانيين خارج الإمارة المعنية.

كانت طموحاته السياسية كبيرة، وكبيرة جداً، ولا يمكنه تحقيقها إلاّ إذا استطاع أن يرسم بحكمة ودراية خط سيره، موازياً بين إمكاناته وطموحه. لذلك راح يداهن خصمه القوي ويضرب خصمه الضعيف ضربة قاضية كي يرهب الآخرين - يمد يده للحليف القريب والبعيد ويشتري سكوت الدولة بالمال والهدايا. فكان له في عاصمة السلطنة، مريدوه ومبغضوه. أمام كلّ هذا راح فخر الدين يجمع قواه ويعزّزها ويرصّ الصفوف حول مركزية الحكم، فكثر محازبوه ومؤيدوه في الداخل، أما في الخارج، أي خارج أرض الإمارة، فقد اكتسب الأنصار والحلفاء بالمال والمصاهرة وبالعون العسكري.

وكي يصل إلى تنفيذ طموحاته السياسية، باشر بإنشاء جيش قوي ومنظّم، متعاوناً مع خصومه من اليمنين، وهو قيسي، متزوّج من ابنة الأمير جمال الدين الارسلاني وأنجب منها ابنه علياً.[1] ثمّ تابع ما كان أجدده فعلوه سابقاً بان أكمل تحالفه مع الأمراء الشهابيين في وادي التيم وتزوّج إحدى بناتهم. وحالف امراء آل حرفوش حكام بعلبك والأمراء العسّافيين حكام كسروان وأيضاً آل جنبلاط في حلب، كما حالف بعض أمراء العرب وهادن الأمير يوسف باشا سيفا الذي كان السبب الأساسي في مقتل والده الأمير قرقماز على اثر حادثة جون عكار الشهيرة، فقد نمي أنه هو الذي وشى به لدى العثمانيين، زوراً وبهتاناً.[2]

عندما اطمأنّ الأمير المعني إلى قوّته العسكرية وتنظيمها وإلى وحدة الإمارة المعنية ومحبّة الناس له، قرّر آنذاك البدء بتنفيذ ما كان قد خطط له للوصول إلى طموحاته القريبة والبعيدة.

تميّز حكم الأمير فخر الدين بمراحل ثلاث وخاتمة مأسوية:

- **المرحلة الأولى:** وتمتدّ من تاريخ تسلّمه

(١) المعلوف، عيسى اسكندر - تاريخ الأمير فخر الدين الثاني المعني - المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦، ص ٥٨.

(٢) سويد، ياسين: التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج ١، ص ١٢٣، ومنشورات الجامعة اللبنانية (باللغة الفرنسية).

الحكم العام ١٥٩٠ حتى العام ١٦١٣.

- **المرحلة الثانية:** من العام ١٦١٣ إلى العام ١٦١٨، حين ترك الإمارة والبلاد تحت الضغط العثماني الغاشم إلى توسكانا في ايطاليا.
- **المرحلة الثالثة:** من حين عودته من ايطاليا العام ١٦١٨ إلى العام ١٦٣٣ يوم هاجمه العثمانيون بقوة واجبروه على الاستسلام.
- **المرحلة الرابعة:** استسلامه إلى العثمانيين ونفيه إلى اسطمبول، ثمّ تدبير مقتله بوشاية من أحمد كجك باشا.

لقد حاول الأمير، في سياسته العامة، بناء إمارة مستقلّة، وقطع علاقاته نهائياً مع الأتراك والسير بهذه الإمارة نحو الحضارة العصرية. أما في سياسته الداخلية فقد شدّد على الأمن للجميع والازدهار الاقتصادي والتسامح الديني. وكان الأمير يعلم أن مجتمع الإمارة كان مجتمعاً قبلياً، إذاً يجب التوفيق ما بين هذا المجتمع والولاء للإمارة. لذلك ترك للأعيان والمشايخ بعض الصلاحيات فيما ترك لنفسه السياسة الخارجية. وهنا يكمن الضعف؛ فإذا اعترض الأعيان والمشايخ على الولاء للأمير انهارت السلطة. إذاً كان عليه توحيد الولاء للإمارة عبر شخصه. وكان عليه أيضاً أن يوفّق بين التعدّدية الاجتماعية والسياسية في الإمارة، فالولاء الاجتماعي ربط الأعيان بالأمير، لذلك حقّق مشاريع سمحت للفرد بان يجمع ثروة ويعيش بأمان وحرية. لقد جعل نفسه حكماً متجدداً ومتجاوباً مع تطلّعات الطوائف السياسية.

استطاع الأمير التوفيق بين استقلال الإمارة والتبعية للسلطان العثماني الذي أرضاه بدفع الأموال والضرائب في حينها، مما جعله في نظر السلطنة موالياً لها بينما سياسته الخارجية كانت تنبع من قناعاته وأهدافه الشخصية. في المرحلة الثالثة المذكورة أصبح الأمير يتحمّل مسؤولية الإمارة وليس كما كان في المرحلة الأولى حيث تحمّلت الإمارة مسؤولية الأمير.

أولاً - المرحلة الأولى من حكم الأمير (١٥٩٠ - ١٦١٣):

تميّزت هذه المرحلة بثلاثة أمور:

أ - الأمر الأول: القتال ضد ابن الفريخ ويوسف باشا سيفا:

عندما اطمأنّ الأمير إلى تقوية حكمه في الداخل، عزم على منازلة خصومه بكلّ وسائل النزال، فابتدأ بالأمير منصور بن الفريخ، حاكم نابلس وصفد وعجلون والبقاع. كان ابن الفريج هذا على قدر من القوّة والدهاء، كما كان حليفاً للأمير يوسف باشا سيفا، العدو الأساسي للأمير في الشمال. وكانت إمارة ابن الفريج تحيط بالإمارة المعنية من الجنوب والشرق. وبدلاً من منازلته وجهاً لوجه، فقد عمد الأمير إلى التآمر عليه، بأن أغرى والي الشام مراد باشا بقتله[1] لقاء مبلغ من المال لا بأس به، وكان ذلك العام ١٥٩٣. ثمّ دبّر مؤامرة أخرى مع الأمير موسى بن حرفوش حاكم بعلبك الذي قتل قرقمازاً بن منصور بن الفريخ[2] وكان ذلك في العام نفسه حيث استولى الأمير فخر الدين على البقاع فحكمها بدلاً منه. ثمّ في العام ١٥٩٤ استولى الأمير على صيدا، بواسطة والي الشام مراد باشا، لقاء دفع الأموال، وجعلها عاصمة لإمارته.[3] وعندما استقرّ الحكم للأمير في صيدا والبقاع، رنت عينه ونفسه لقتال خصمه الأقوى والأدهى يوسف باشا سيفا والي طرابلس حيث كانت تخوم ولايته ملاصقة لتخوم الإمارة. وكان الأمير يوسف المذكور قد قتل الأمير محمد عساف العام ١٥٩٠ واستولى على كسروان وبيروت وتزوّج أرملته، كما قبض على أولاد حبيش وقتل منهم الشيخ سليمان والشيخ منصور وفرّ بقية المشايخ إلى بلدة الشويفات مقر الأمير محمد بن جمال الدين الارسلاني بعدها ضبط كلّ أموال ومقتنيات محمد عساف وانتهت به إمارة العسافيين[4] الذين كانوا حلفاء فخر الدين.

١) سويد، ج ١، ص ١٥٤ - ١٥٥.
٢) المحبي خلاصة الاثر، ج ٤، ص ٤٢٦ - ٤٢٨.
٣) سويد، ج ١، ص ١٥٥.
٤) البيان، ص ٥٨ - ٥٩.

جرت أولى معارك فخر الدين مع يوسف باشا العام ١٥٩٨ عند نهر الكلب حيث هزم ابن سيفا واستولى الأمير المعني على كسروان وبيروت وحكمهما لمدّة سنة ثم تركهما برضاه وعاد إلى الشرف. أما الواقعة الثانية فقد نشبت في جونيه العام ١٦٠٥ وانتهت بانتصار الأمير فخر الدين على يوسف باشا.(١) من جديد وعلى أثر هذه المعركة ضمّ فخر الدين بيروت وكسروان وجبيل إلى إمارته.(٢) وجعل أبا نادر الخازن حاكماً على كسروان ومنذراً التنوخي على بيروت ويوسف السلماني على غزير.(٢)

ب - الأمر الثاني: نجدة الأمراء والولاة:

في السنة ١٦٠٦، عيّن الباب العالي أحمد باشا الحافظ والياً على الشام بدلاً من مراد باشا الذي أصبح الصدر الأعظم. وكان الوالي الجديد «ظلوماً، سيء الأخلاق فتّاكاً، يضمر الحقد والعداء للأمير فخر الدين الذي كان يطمح إلى استقلال الإمارة. فأخذ يرفع التقارير إلى الآستانة محرّضاً إياها على الأمير المعني».

وفي هذه السنة اعتدى الوالي على الأميرين يونس الحرفوش حاكم بعلبك وأحمد الشهابي حاكم وادي التيم فاستنجدا بالأمير فخر الدين وكانا من أنصاره، فلبّى دعوتهما ونجدهما ومنع أذى الوالي عنهما، الأمر الذي زاد في حنق الحافظ عليه وقرّر تحطيمه مهما كانت العوائق.

في هذه الأثناء كان والي حلب علي باشا جانبولاد قد خرج على طاعة السلطان، وجمع جمعاً عظيماً من جنود السكبان «حتى صار عنده ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل وامتنع عن دفع المال المترتب عليه».(٣) وكانت السلطة العثمانية قد عيّنت أحمد باشا الحافظ قائداً لجيش الأناضول فأعطى أمراً للأمير يوسف باشا سيفا بالخروج مع عسكر الشام لمقاتلة علي باشا. حشد بن سيفا مقاتليه وانضمّ إليه

(١) الشدياق، ص ٢٩٤.

(٢) الشدياق، ص ٣٠٥.

(٣) اليان، ص ٦٩.

الانكشارية من دمشق بقيادة أحمد باشا الطوشي. استنجد جنبولاد بحليفه ابن معن وجرت بين الفريقين، في «عراد» قرب حماه، وقعة انتهت بهزيمة والي الشام وحليفه ابن سيفا الذي فرّ إلى طرابلس فدهمه الأمير فخر الدين، مما اضطره لإرسال أسرته إلى دمشق وأبحر هو إلى بلاد حارثة،[١] بين صفد وجبل نابلس مستجيراً بالأمير أحمد ابن طربيه، الذي أجاره ثمّ أوصله إلى دمشق سالماً عن طريق حوران. فلحق به جنبولاد والأمير فخر الدين إلى هناك وحاصراه، إلى أن افتدى نفسه بماية ألف قرش قبضها علي باشا الذي جمع عسكره وعاد عن طريق البقاع حيث فارقه المعني. تابع سيره حتى وصل قبالة حصن الأكراد وراسل يوسف سيفا طالباً الصلح والمصاهرة. فقبل هذا الأخير وأعطاه مبلغاً من المال وزوّجه ابنته وتزوّج منه أخته لابنه الأمير حسين ثمّ قفل راجعاً إلى حلب.[٢]

عاد الأمير فخر الدين إلى الشوف غير راض عما جرى، لكنه خضع للأمر الواقع واتفق الثلاثة على أن يحكم يوسف سيفا لبنان الشمالي وحمص وما فوق شمالاً، وأن يحتفظ الأمير فخر الدين بلبنان الجنوبي والفتوح وكسروان علاوة على إمارته.

بعد هذه الحادثة هاجم مراد باشا الصدر الأعظم حلب ومعه والي الشام ويوسف سيفا، فحاول جنبولاد المقاومة، إلاّ أنه لم يتمكّن، فأدخل عياله ورجاله وماله إلى القلعة واناب عنه شخصاً من أنصاره وهرب هو إلى شاه إيران طالباً النجدة. لكن عاصمته سقطت تحت ضربات القوة العثمانية وبيعت عيال علي جنبولاد في سوق الدلالة كما بيعت أمه بثلاثين غرشاً. في هذه الأثناء أرسل فخر الدين ابنه علياً يستعطف مراد باشا صديقه القديم ومعه ٣٠ ألف غرش «خدمة».[٣] فرضي الصدر الأعظم عنه وأنعم عليه بسنجقية بيروت

(١) اليان، ص ٦٩.

(٢) اليان، ص ٧١.

(٣) سويد، ج ١، ص ١٥٦.

وصيدا وغزير.[1] في السنة ١٦١١، توفي الصدر الأعظم وتولّى الصدارة بدلاً منه نصوح باشا، فخسر الأمير سنده الأكبر في الآستانة. وراح الصدر الأعظم الجديد يستمع إلى وشايات أعداء الأمير ومنهم والي الشام طالبين منه الحد من طموحه وقوته.

لم يستقبل الصدر الأعظم، مدبّر الأمير فخر الدين ببشاشة، ولم تعجبه هدية الخدمة وهي كناية عن ٢٥ ألف قرش وعدد من الخيل وكمية من المنسوجات، بل طلب من الأمير المعني تسليم قلعة بانياس وقلعة شقيف ارنون إلى والي الشام وإبلاغه أنه قطع عنه رواتب السكمان الذين كانوا بتصرّفه[2] فبانت الحقيقة واضحة للأمير وبدأ يعدّ نفسه لصراع مرير وطويل مع السلطنة.

وفي السنة ١٦١٣، نجدَ الأمير المعني، الأمير يونس الحرفوش والأمير حمدان قانصوه في عجلون والأمير عمر شيخ عرب المفارجة وأمير حوران، وجميعهم أنصاره وحلفاؤه وقد أمدّهم بالسلاح والرجال ضد حافظ باشا الذي عزل حمدان باشا من عجلون لصالح فروخ بك. أما المفارجة فكانوا في حوران فعزلهم لصالح رشيد شيخ عرب السردية.[1] ويقال إن الأمير فخر الدين عندما نجد الأمير أحمد الشهابي، أرسل له عسكراً جرّاراً. وعند نجدة حمدان شيخ عرب المفارجة، نجده بثلاثة آلاف فارس. ثمّ جهّز عشرة آلاف مقاتل من رجال بلاده ورجال يوسف سيفا ورجال الأميرين يونس الحرفوش وأحمد الشهابي وذلك يفسّر مونة الأمير على هؤلاء، فقد كان يتمتّع بقوة عسكرية، وبالإضافة إلى ذلك هناك مرحلة فرض فيها الأمير سطوته حتى على آل سيفا الذين هابوه حتى سنحت لهم الفرصة. لقد انجد الأمير أيضاً نصّوح باشا السنة ١٦١٣ ضد مدينة كلسّ.

(١) الشدياق، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.
- الدويهي، ص ٦٢٤ - ٦٢٥.
(٢) الشهابي، م. ن، ج ١، ص ٦٢٦.

ج - الأمر الثالث: الخلاف مع السلطنة العثمانية:

ابتدأت بوادر الخلاف مع وصول نصوح باشا إلى الصدارة العظمى والمطالب الظالمة التي عاد بها رسول الأمير من الاستانة، رغم المبالغ الطائلة من الأموال التي أرسلها إلى والي الشام وإلى السلطان والصدر الأعظم شخصياً. وفي السنة ١٦١٣، كان نصوح باشا في حلب، فتقدّم منه والي الشام حافظ باشا والبعض من أعداء الأمير المعني، شاكين له فخر الدين، واطمعوه ببلاد ابن معن قائلين «انها عامرة وأحوالها وافرة» واتفقوا معه على محاربة الأمير وسلب بلاده.(١)

صحيح ان الأمير دفع كثيراً من المال، وتلك كانت صفة عصره. إنما ما يهمنا هي الأموال التي دفعها، حوالى الاربعماية ألف غرش، تضاف إليها المصاريف التي كان يتكبّدها على عسكره، ثمّ اجور السكمان. وهذا يدلّ إلى ان الأمير، إلى جانب تمتّعه بقوة عسكرية، كان يتمتع بثروة هائلة أتته، كما يقول بعض المؤرّخين، عن طريق ازدهار التجارة الخارجية والداخلية وازدهار الزراعة في إمارته (من إحدى هداياه، حمولة مركب من الصابون اللبناني الفاخر).

ان قوّة الأمير بدأت منذ أن وصل إلى الحكم وبالضبط من السنة ١٥٩٨، هاتان القوة العسكرية والسطوة السياسية وهذا الغنى الاقتصادي، توصّل إليها الأمير في خلال عشرين سنة.

وإذا ما عدنا إلى تقارير ١٦٠٦ و١٦١٠ نرى أن عدد الجيش كان ٤٠ ألف مقاتل، منهم عشرة آلاف مسيحي وعشرة آلاف درزي، والعدد الباقي كان من السكمان. وبفضل هذا الجيش امتدّت سطوة الأمير إلى كلّ لبنان. وكانت له صداقات تعاقدية مع بقية الأمراء فيه، لتأسيس إمارة له. لقد بنى الأمير هذا الجيش لتنفيذ خطة سياسية استقلالية عن السلطنة. وفي رسالة لدوق توسكانا في ايطاليا يقول هذا الأخير «أنهم يريدون الأراضي المقدّسة فقط، وفيما

(١) الشدياق، ص ٢٩٦.
- الخالدي، ص ٧.

تبقى سيتركون الأمراء المحليّين على إمارتهم...».

إن قوّة الأمير العسكرية، مكّنته من لعب دور الحكم بين الأمراء والولاة الأتراك، هذه القوة كانت منظّمة تنظيماً دقيقاً وفي خدمة سياسية عسكرية.

كان الشائع في تلك الأيام، أن يبعث أصحاب الإمارات والاقطاعات بهدايا تسمى «خدمة» تليق بالمقام، لكلّ والٍ أو صدر أعظم يتولّى حديثاً شؤون الولاية، ولم يشذّ الأمير فخر الدين عن هذه العادة المألوفة، وقد دفع الكثير منها. وكان الأمير يدخل في روع السلطان العثماني بواسطة الهدايا والرسائل أنه موالٍ للتاج مخلص له، «ولكنه في الوقت عينه كان يستميل حكام المقاطعات الواحد تلو الآخر، إلى أن تمّت له السيطرة من نهر الكلب إلى جبل الكرمل بما في ذلك صفد وبانياس وطبرية والناصرة...».[1]

يقول فرديناند أمير توسكانا في رسالة له، يصف فيها جيش الأمير مقدراً عدده بما بين ١٢ ألف إلى ٢٠ ألف مقاتل مدرّبين، وأن الأمير سيطر على مرفأي صيدا، المعد لانزال بحري، وبيروت. يضيف ان الأمير يمكنه أن يعتمد على حوالى ٢٠ ألف مقاتل مسيحي مما يجعل جيش الأمير يتراوح بين ٤٠ أو ٥٠ ألف مقاتل.

في السنة ١٦١٠ أكّد السائح الإنكليزي جورج سانديز الذي زار لبنان في تلك السنة أن جيش الأمير يبلغ ٤٠ ألف مقاتل. كما أنه يصف الأمير فخر الدين بقوله إنه كان «قصير القامة، لكنه عملاق في شجاعته ومأتيه. عمره أربعون سنة، ذو دهاء كالثعلب وفيه ميل لأن يكون طاغية...».[1]

في السنة ١٦٠٨ أكّد الأمير فخر الدين للمفوّض التوسكاني ويدعى ليونشيني أنه يملك جيشاً أقل عدداً من جيش علي باشا جنبولاد (٨٠ ألف) لكنه أحسن تدريباً. ويضيف ان بلاده محصّنة طبيعياً وأنه يسيطر على قلعتين: بانياس وشقيف ارنون، ويذكر الأمير بان هاتين القلعتين يجب أن تتقوّيان بعشرة مدافع على الأقل لتصبحا مركزاً

(١) حتي، مرجع سابق، ص ٤٥٥.

دفاعياً كبيراً. ثمّ يضيف انه باستطاعته ان يسيطر على الأراضي المقدّسة في فلسطين بسهولة لكنه يحتاج إلى مساعدة للاحتفاظ بها.

في سنة ١٦١٥ صرّح الأمير لقوزما الثاني ولنائب ملك اسبانيا في نابولي بأن عدد الجيش يتراوح بين ١٢ إلى ٢٠ ألف مقاتل يستطيع أن يقاوم بهم العثمانيين في البر. ويقول فيليب حتي «كان باستطاعة الأمير أن يجمع جيشاً عدده مئة ألف محارب».(١)

لقد استمع نصوح باشا إلى نميمة أعداء الأمير المعني وعلى رأسهم حافظ باشا والي الشام، وصارت الضغائن تتفاعل بينه وبين الوزير والوالي من جهة أخرى. لقد ابتدأ والي الشام بضرب حلفاء الأمير في وادي التيم وبعلبك وسنجقية عجلون وحوران، وكان الأمير يدعم بلا تردد هؤلاء الحلفاء بالسلاح والرجال لأنه كان يعي أن اضعاف قوته يبدأ بقص أجنحته، أي بالقضاء على حلفائه من حكام المقاطعات الآنفة الذكر. في السنة ١٦١٣ وقعت المعركة العسكرية بين الوالي والأمير في المزاريب بحوران، فخاض جيش فخر الدين بقيادة ابنه علي، وقوامه ٣ آلاف مقاتل، معركة طاحنة انتهت بهزيمة عسكر الوالي ودخل الأمير علي عين جالوت في عجلون، ومنها إلى إربد، وتراجع عسكر الشام إلى بصرى وأقام فيها. وأعاد الأمير علي الأمير حمدان إلى سنجقيته في عجلون والشيخ عمر إلى حوران.

عندما وصلت أنباء انتصار الأمير على عسكر الوالي، إلى الاستانة أمر السلطان بتجهيز حملة من ٥٠ ألف مقاتل بقيادة حافظ باشا للقضاء على الأمير اللبناني. حوصر الجبل براً وبحراً: براً بقيادة الوالي حافظ باشا وبحراً بقيادة محمد باشا، قابودان البحر. محمد باشا أرسل كمقدّمة للسيطرة على الجبل ومحبّي باشا الذي نزل في صيدا مع بعض المراكب بانتظار وصول الاسطول العثماني.(٢) تجاه هذا الواقع المرير، انحاز أمير وادي التيم علي شهاب وحاكم بعلبك

(١) حتي، ص ٤٥٥.

(٢) سويد، ج ١، ص ١٥٧.

الأمير يونس حرفوش إلى الوالي ووضعا نفسيهما بتصرّفه. ولم يبق إلى جانب فخر الدين من حلفائه سوى القلّة من المخلصين. تقدّمت قوات الوالي باتجاه الجبل فاحتلّت بيروت وكسروان واعادتهما إلى يوسف باشا سيفا، ثمّ احتلت الغرب والجرد والمتن وعينت عليها الشيخ مظفر العينداري أحد خصوم الأمير. وأرسل حافظ باشا إلى كلّ من صيدا وصفد والياً من قبله ليتسلماهما من أصحاب الأمير المعني الذي وقع في حيرة من أمره أو في قلق كبير على مصيره ومصير إمارته ويبدو أن محبّي باشا كان صديقاً لفخر الدين فاستقبله الأمير وعرض عليه الوضع، ومن المحتمل أنه دفع له مبلغاً من المال «على قد المقام» فانسحب بمراكبه إلى عرض البحر بحجة القبض على قراصنة كانوا يجوبون تلك المنطقة.[١]

لقد رأى الأمير أنه من الحكمة ألاّ يقاوم هذه القوّة العظيمة[٢] خاصة أنه رأى من أنصاره «قلّة تصلّب وكثرة تراخي وكبرت عليهم الأمور من تزايد العدو وكثرة العدد من العساكر والسايرة إليهم... فشار عليه الحاج كيوان مستشاره بالنزول إلى البحر...».[٣] ويقول الشدياق «لما خلت صيدا من المراكب قدم إليها مركبان فرنساويان ومركب فلمنكي وأما الأمير فحضر إلى الدامور واستدعى أخاه الأمير يونس والأمير منذر والأمير ناصر الدين التنوخي ومشايخ الأريع مقاطعات والمشايخ الخوازنة ووجوه لبنان وأكابره واستنهضهم معه لقتال حافظ باشا فلم يجبه أحد منهم فتركهم ورجع إلى صيدا ومعه أخوه الأمير يونس ففوض إليه أمر الولاية»[٤] ثمّ سافر مع زوجته وحاشية صغيرة إلى

(١) الشذياق، ج ١، ص ٣٠١.

(٢) حتي، ص ٤٥٩.

(٣) الخالدي، ص ١٧.

(٤) الشدياق، ج ١، ص ٣٠٢.

- قرألي، بولس، فخر الدين المعني الثاني - حاكم لبنان ودولة توسكانة، دار لحد خاطر، بيروت ١٩٩٢، ص ٢٠٨.

ايطاليا حيث بقي منفياً فيها حوالى الخمس سنين.

ثانياً - المرحلة الثانية من حكم الأمير (١٦١٣ - ١٦١٨):

لّما عزم الأمير فخر الدين على السفر، أسرّ بنواياه إلى أخيه الأمير يونس وابنه الأمير علي فأوكل شؤون الإمارة إلى ابنه علي وسلّم قيادة الجيش إلى أخيه الأمير يونس وأوصى هذا الأخير ان يكون مستعداً للحوادث، وأشار إليه بالانتقال من بعقلين إلى دير القمر والإقامة فيها. فاتفق الأميران على ما يلزم «وودّع الأمير يونس أخاه فخر الدين وانتقل بمن معه إلى دير القمر وكان ذلك بدء انتقال المعنيين إليها».

في ١٥ أيلول ١٦١٣، أقلع الأمير من صيدا كما ذكرنا تحدوه الآمال الكبيرة وهو إذ ذاك في الواحدة والأربعين من عمره. وفي ٣ تشرين الثاني من العام نفسه، وصل الأمير إلى ليفورنو في مقاطعة توسكانا الايطالية معرّفاً عن نفسه بالقول «أنا فخر الدين المعني أمير جبل لبنان».(١)

بالرغم من سفر فخر الدين من لبنان، لم تهدأ الأحوال في الإمارة. لقد تابع الجيش العثماني بقيادة حافظ باشا هجومه الشنيع للقضاء على الإمارة، فحاصر قلعة شقيف ارنون لمدّة شهرين كاملين من دون أن يتمكّن من النيل منها، لكن الحياة بداخلها أصبحت لا تطاق، مما أجبر الأمير يونس على مفاوضة الوالي لفك الحصار لقاء دفع مبلغ من المال كما كان يحصل (ماية ألف قرش). وافق حافظ باشا على هذا العرض وفكّ الحصار وعاد إلى مركز ولايته دمشق مصطحباً معه الست نسب والدة الأمير رهينة عن المال المطلوب.(٢)

وفي العام ١٦١٤ تجدّد القتال بين الوالي وآل معن في الباروك وانقسم الشهابيون في ما بينهم، فالأمير أحمد قاتل إلى جانب الوالي

(١) تشرشل: ج ٢، ص ٣٥٢.
- قرألي، ص ١٨٦.
(٢) الشدياق، ج ١، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

والأمير علي إلى جانب الأمير يونس المعني وقد انتهت المناوشات بانتصار المعنيين. ثمّ قاتلهم الوالي في مرج بسري وانتصر. ومن هناك اتجه نحو دير القمر فاحتلّها وباقي قرى الشوف ثمّ قفل راجعاً إلى دمشق.(١)

لم يطل الوقت حتى تبدّلت الأحوال بالنسبة إلى المعنيين، ففي السنة ١٦١٤، عزلت السلطنة العثمانية والي الشام حافظ باشا وعيّنت مكانه والياً آخر هو «جركس باشا» كما أنها عيّنت والياً على المناطق التي كان فخر الدين قد ضمّها إلى إمارته وهي: بيروت وصفد وصيدا وكسروان. متخذاً صفد مركزاً لولايته.(١) تجاه هذا الواقع، طلب الأمير يونس من أنصاره ومن أهالي الشوف العودة إلى ديارهم، وقد عادوا، واقتصرت الإمارة المعنية من جديد على منطقة الشوف فحسب.

في ١٦١٦ حاول آل سيفا التحرّش بالمعنيين، فتجدّدت المعارك بينهم وانتهت بانتصار الأمير علي الذي دخل بقواته إلى بيروت وصيدا وصور وصفد وبلاد بشارة وكسروان والغرب والجرد والمتن وأعادها من جديد إلى الإمارة المعنية ووزعها مقاطعات على أنصاره وحلفائه. كلّ ذلك حصل برضى السلطنة التي وافقت على أن يؤدي الأمير المعني الأموال المتوجّبة عليه من جراء توليه عليها.(٢)

في ايطاليا فاوض الأمير فخر الدين، كوزما الثاني أمير توسكانا، بشأن مساعدته على محاربة الدولة العثمانية التي كانت آنذاك قوية الشوكة مرهوبة الجانب. فلم يسع قوزما القبول فوراً وهو لا يعرف ما لفخر الدين من القوة في لبنان. لذلك اقترح على الأمير المعني أن يرسل بعثة تقصّي الأحوال ثمّ تعود إليه بتقرير وافٍ يبني عليه قوزما القبول أو الرفض،(٣) وعلى الشيء مقتضاه.

وافق الأمير على فخر الدين على هذا الرأي، فأعدّت البعثة وفيها عددٌ كبير من

---

(١) سويد، جزء ١، ص ١٩١.
- الشدياق، ج ١، ص ٣٠٨ -٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) الشدياق، ج ١، ص ٣١١ - ٣١٢.

(٣) السودا يوسف، في سبيل لبنان - منشورات دار لحد خاطر، ١٩٨٨، ص ١١٧.

المهندسين الفلورنسيين، ثمّ سافرت في اتجاه الشواطىء اللبنانية حاملة معها رسائل عديدة إلى الأمير يونس وإلى أعيان البلاد ينبئهم فيها الأمير فخر الدين بما تمّ له في ايطاليا ويطلعهم على غاية البعثة ويحضّهم على «حفظ القلاع... ويوصيهم بالتيقظ والاستعداد».

وصلت البعثة إلى صيدا وصعد الجميع إلى دير القمر حيث مقر الأمير يونس وسلّموه الرسائل التي له ولأعيان البلاد. وقد أكرمهم الأمير وسهّل لهم إتمام مهمتهم، فطافوا أنحاء الإمارة وعرّجوا على القلاع يبحثون وينقبون ليتحققوا بأنفسهم مما كان فيها من قوات وحصون وأموال ووسائل دفاع من كلّ نوع.[1]

في هذه الأثناء وردت إلى الأمير يونس أجوبة الأعيان وفيها بيان وافٍ عن أحوال البلاد وإخلاص أهلها للأمير فخر الدين، إلاّ واحداً منهم قال: «إن الأمير فخر الدين مغضوب عليه من الدولة فلا نقدر أن نجيبه».[1]

ثالثاً - المرحلة الثالثة (١٦١٨ - ١٦٣٣):

كان عزل حافظ باشا عدو فخر الدين الشخصي حدثاً مهماً للأمير إذ خلق الظرف المناسب للتفكير بالعودة إلى الوطن. لقد أرسلت والدته الست نسب تخبره بما جرى وكيف هي أحوال البلاد وتطلب منه العودة بأسرع ما يمكن. وكان فخر الدين قد أتمّ مهمته في توسكانا فعاد إلى لبنان العام ١٦١٨[2] واستقبل بحفاوة متناهية من قبل أعيان البلاد وعلى رأسهم ولده علي والأمير يونس شقيقه وتقاطرت الناس إلى ملاقاته أفواجاً وهرع إليه الأمراء والمقدّمون والمشايخ من كلّ أنحاء لبنان، أخصّهم مشايخ الشوف وصفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا والأمير علي الشهابي

(١) السوداء، ص ١١٨.

(٢) سويد، ج ١، ص ١٥٩.

- الشدياق، ج ١، ص ٣١٨.

والأمير أحمد الحرفوش وغيرهم من الأعيان.[1]

عاد الأمير إلى البلاد لكن عودته لا تعني أبداً عودة الاستقرار والهدوء إلى ربوعها، فالخصوم «لا يزالون كثراً وعلى مواقفهم ومواقعهم وقد زادتهم عودة الأمير حقداً وضغينة، خاصة خصمه يوسف باشا سيفا الذي تجبّر وتكبّر أثناء غيابه».[2]

ولمّا استقرّ المقام بفخر الدين، راح ينظّم الجيش والمالية وأمور البلاد على النمط الذي خبره في اوروبا، واضعاً نصب عينه تحقيق الغاية التي من أجلها غادر لبنان وأنشأ التحالفات. لقد كان الأمير ذكياً للغاية، فلم يظهر عداءه للدولة بل فضّل أن يتحيّن الفرص وينتهي من المقاطعجية الواحد بعدالآخر حين يأمن شر اتفاقهم وتضافرهم ضده.

وحانت ساعة الانتقام، إذ اغتنم أول فرصة لينقضّ على ابن سيفا في عكار الذي كان أكبر عثرة في سبيل توحيد الإمارة، فاستوثق أولاً من رضى عمر باشا الكنتجي والي طرابلس ومساعدته، فكتب إليه يشكو أعمال يوسف سيفا فأجابه الوالي «... إذا شئت أن تحاربه فأنا أكون مساعداً لك...» وكان ذلك العام ١٦١٨. هاجم الأمير عكار وحاصر يوسف سيفا في قلعة الحصن[3] حصاراً شديداً حتى اضطر ابن سيفا إلى طلب الصلح على الشروط التي يرتئيها أمير البلاد، وذلك بعدما دخلت إليه ابنته زوجة حسن بن يوسف باشا سيفا ملتمسة منه العفو عن آل سيفا، وقد أجابها إلى طلبها،[4] مشترطاً ان يدفع له الأمير يوسف ٣٠٠ ألف قرش، منها ٢٥ ألف وفاء لدين و١٥٠ ألفا عوض ما ضبطه من مواشٍ لا في البقاع

---

(١) الشدياق، ج ١، ص ٣١٨ - ٣١٩.
- المعلوف، ص ١٧١.

(٢) سويد، ج ١، ص ١٥٩.

(٣) يوسف السودا، ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٤) الشدياق، ج ١، ص ٣٢٥ وما يليها.
- السوداء، ص ١٢٩.

وعكار ومن محصول بيروت وكسروان مدّة ثمانية أشهر، والباقي لوالي طرابلس.[1] وكان فخر الدين أثناء الحصار الذي دام شهراً كاملاً، قد أمر بهدم منازل آل سيفا وسرايا عكار، كما فعل يوسف سيفا بدور آل معن في دير القمر سابقاً، أثناء غياب الأمير في توسكانا. نقلت حجارة هذه الدور إلى بيروت ومنها إلى دير القمر حيث بنيت فيها سرايا الأمير وبيته تنفيذاً لما وعد به قبل خمس سنين عندما قال:(٢)

«نحنا صغار وبعيون الأعادي كبار
انتو خشب حور ونحنا للخشب منشار
وحق طيبة وزمزم والنبي المختار
ما بعمّرك يا دير إلاّ من حجر عكار»

في السنة ١٦٢٠ تجدّد القتال بين أمير البلاد ويوسف سيفا، فحاصر فخر الدين طرابلس وقلعتها من البر والبحر ودارت معارك عنيفة بينهما استعمل ابن سيفا خلالها المدافع لضرب قوات الأمير، ولم تهدأ الحال إلاّ بعد تدخّل مباشر من الباب العالي الذي كان ينفذ المبدأ العام لسياسة السلطنة «فرّق تسد».

بعدما هزم فخر الدين يوسف سيفا وكسر شوكته، مال على غيره من المقاطعجية وزعماء العشائر. ففي السنة ١٦٢٢ حمل على أحمد طربيه لانحيازه إلى جانب خصمه بشير قانصوه. وكان طربيه حاكماً على سنجق جنين. بعدها هاجم ابن حرفوش في بلدتي قب الياس والكرك حيث قبض على الرجال فيها ثمّ أحرقها ودخل سرعين مقر الحرافشة فنهبها وأحرقها وكذلك فعل بمعظم قرى وبلدات البقاع الشرقي التابعة لابن حرفوش. وكان أثناء سيره في البلاد يشيد القلاع في طريقه جاعلاً له فيها قواعد حصينة يستند إليها في المواقع القتالية.

---

(١) الشدياق، ج ١، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.
(٢) سويد، ج ١، ص ١٩٩.
- المعلوف، ص ٢١٨.

في السنة ١٦٢٣، وقع القتال بين الأمير فخر الدين ووالي الشام مصطفى باشا في عنجر وانتهى بهزيمة الوالي هزيمة منكرة ومخزية وبأسر الوالي نفسه ثمّ إطلاق سراحه من قبل الأمير تلطفاً.(١) بعد ذلك انتقل إلى بعلبك فحاصر قلعتها، مكان تمركز جند ابن الحرفوش، حتى استسلمت فأمر بهدمها، ثم انتقل إلى وادي التيم فأطاعه الأمير احمد الشهابي، وفي حاصبيا الأمير علي الشهابي، وسار نحو بانياس فرمّم قلعتها، وإلى صرخد فبنى فيها قلعة، ثمّ نهض إلى بعلبك فرمّم قلعتها ثمّ إلى قب الياس فبنى فيها قلعة.

في العام ١٦٢٤ مات الأمير يوسف باشا سيفا، العدو اللدود للأمير فخر الدين وبوفاته سلّم بنو سيفا قلعتي الحصن والمرقب بالإضافة إلى قلعة طرابلس إلى أمير البلاد المعني. وفي هذا العام أيضاً، «تعهد الأمير للسلطنة بدفع مايتي ألف ذهب، فانعم عليه السلطان بولايات عربستان من حدود حلب إلى حدود القدس ولقّبه بسلطان البر...».(٢) لقد عظم شأن الأمير حتى بلغ مرتبة قيل فيها انه لم يبق بعدها إلاّ أن يدعي السلطنة.(٣) وحدث أثناء ذلك غلاء في دمشق فأرسل أهل المدينة يشكون حالهم إلي الأمير الذي أرسل إليهم حالاً «أربعة آلاف حمل جمل قمحاً. ثمّ أتى إلى مرجة دمشق فخرج أهلها كباراً وصغاراً لملاقاته، يدعون له بالنصر وطول البقاء».(٤) ثمّ سار إلى غربي حماه فأطاعه أهلها وشرع ببناء قلعتين، إحداهما شمالي قلعة الشماميس، تجاه حلب والأخرى فوق انطاكية.

(١) الخالدي، ص ١٤٨ - ١٥١.
- الشدياق، ج ١، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.
(٢) الشدياق، ج ١، ص ٣٦٣.
(٣) المحبي، محمد، خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، المطبعة الذهبية، ١٢٨٤، ج ٣، ص ٢٦٧.
(٤) السودا، ص ١٣٠.

رابعاً - نهاية الأمير ومقتله (١٦٣٣ - ١٦٣٥):

يعود الفضل الأكبر في انتصارات فخر الدين إلى التفاف اللبنانيين، كلّ اللبنانيين، حوله، يحاربون جميعهم تحت لوائه على اختلاف مذاهبهم باتحاد تام في سبيل غاية وطنية واحدة هي الدفاع عن حريتهم واستقلالهم.

في العام ١٦٣٣، بلغت الإمارة المعنية أوج عزها ومجدها وبات الأمير فخر الدين عزيز الشوكة واسع السطوة، وقد أقرّته الدولة على فتوحاته. وأصبح لبنان في ذلك العهد مملكة ضخمة قوية واسعة الأطراف مرهوبة الجانب يمتد سلطانها من حدود حلب إلى حدود القدس الشريف. لكن ذلك لم يمنع تجدد القتال في هذا العام بين الأمير والدولة. فقد أصدر السلطان مراد أمره إلى الصدر الأعظم خليل باشا فعبّئت الجيوش وزحفت إلى لبنان بقيادة الكجك أحمد باشا والي الشام فوصلت إلى الجبل يوم كانت انقطعت عن فخر الدين مساعدة حلفائه الاوروبيين الذين انشغلوا عنه. ففوزما الثاني أمير توسكانا انهمك بوباء الطاعون المتفشي في ايطاليا لإبعاده عن بلاده، فكفّ عن إرسال الأسلحة والذخيرة إلى الأمير واستدعى من لبنان «الكافليير» رئيس البعثة مع مهندسيه. إلى جانب ذلك كان الاوروبيون منهمكين في حرب الثلاثين سنة بين الكاثوليك والبروتستنت فلم يعد باستطاعة البابوية أن تمدّ الأمير المعني بمساعدة، فاوروبا يومئذ كانت غارقة في بحار فتنها وحروبها الهائلة.[1]

لقد جُهّز الوالي بجيش لجب مع أسطول بحري كبير. وجهّز الأمير لمقابلته جيشاً قدّر عدده بـ٢٦ ألف مقاتل بالإضافة إلى بعض الحلفاء والأنصار. بدأت المعارك في وادي التيم وكان من نتيجتها مقتل الأمير علي بن فخر الدين وتخلي معظم حلفاء الأمير عنه، فلجأ إلى قلعة شقيف تيرون فلحق به الكجك إلى هناك ففرّ إلى مغارة جزين، فحاصرها الوالي وتمكّن من أسر الأمير وأولاده الثلاثة، حيدر ومنصور وبلك،

---

(١) حرب الثلاثين سنة هي سلسلة منازعات وحروب دينية سياسية شغلت اوروبا من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨.

وساقهم جميعاً إلى دمشق ومنها إلى الاستانة ليلقوا حتفهم فيها خنقاً العام ١٦٣٥.

٣ - سياسة الأمير الخارجية

٣١ - توطئة:

لا يمكن أن نلمّ إلماماً كاملاً بسياسة الأمير الخارجية إلاّ من خلال أمرين هما:

- فكرة الحملة الصليبية إلى الشرق.
- علاقة فخر الدين بالغرب الأوروبي.

كما أن هذه السياسة يجب ان تدرس ضمن إطارين اثنين:

- وضع السلطنة العثمانية المفكك (سليمان القانوني).
- اهتمام اوروبا بالشرق وبشكل خاص بالأراضي المقدّسة.

انطلاقاً من هذه الفكرة كان على اوروبا أن تهتم بمستقبل الدولة العثمانية. وهذا الاهتمام ليس جديداً إنما يعود إلى القرون الوسطى أي إلى الحملات الصليبية. فبعد سقوط مدينة عكا العام ١٢٠١ بيد المماليك، وكانت آخر حصن للصليبيين في الدولة اللاتينية، لم تسقط في اوروبا فكرة تجدّد الحملات الصليبية. فهذه الفكرة كانت لا تزال تراود مخيلة الملوك والباباوات في الغرب، خاصة لتخليص الأراضي المقدّسة ولجعلها تحت يد مسيحية اوروبية. وقد تبلور مع الأب جوزف الذي كان يعيش بفكرة تحرير القدس، فاتصل بكل الملوك والأمراء الاوروبيين داعياً إياهم إلى تخليص هذه المدينة.

في مؤتمر لاتران (LATRAN)، بين العامين ١٥١٢ - ١٥١٧ أذاع البابا ليون العاشر براءة يشجع فيها الحملات الصليبية، ثمّ بعث برسالة إلى ملك فرنسا فرنسوا الأول موضوعها التفكير الجدي بإعداد حملة عسكرية إلى الشرق.

العام ١٥٢٣ في ٣ آذار، بعث البابا اوربان السادس رسالة إلى فرانسوا الأول يدعوه مجدداً إلى حملة صليبية. كذلك دعا البابا غريغوار الثالث عشر (١٥٣٢ - ١٥٨٥) للدفاع عن المسيحيين في الشرق ضد الأتراك.

رغم موقف Duc De NEVERS الطامع بالشرق، وهو موقف فرنسا أصلاً، واندفاعه

القوي للحملات العسكرية، فإن الدولة الفرنسية تراجعت، العام ١٥٣٦، عن فكرة الحروب في الشرق عندما حصلت على امتيازات مهمة في السلطنة، فأمّنت بذلك سوقاً تجارية مهمة هناك.

في العام ١٥٣٧ وقّعت جمهورية البندقية مع الدولة العثمانية معاهدة تجارية، فتفكك الحلف المقدّس الكبير بخروج دولتين منه، فبادر البابا إلى إنشاء الحلف الصغير الذي اقتصر على توسكانا وإسبانيا والدولة البابوية وجزيرة مالطا وجمهورية جنوى.

بين تلك الدول كانت توسكانا الدولة الأقوى، لأنها كانت الأقوى عسكرياً. بينما الدولة البابوية كانت تؤيّد بالمعنويات وتساعد جنوى التي كانت تسعى للتوسّع في الشرق تجارياً للوصول إليه في ما بعد عن طريق الحملات العسكرية.

مقابل هذا الاتجاه السياسي كان هناك اتجاه آخر. فقد فتحت البابوية السنة ١٥٨٤ مدارس لليونان، ثمّ للأرمن. ثمّ المدرسة المارونية الرومانية. بالإضافة إلى كلّ هذا فقد أقامت علاقات مع الأحباش وبلاد فارس التي كانت على علاقة متوترة مع العثمانيين، مستغلّة هذا العداء.

٣٢ - موقف الأمير فخر الدين من الغرب الاوروبي:

استغلّ فخر الدين هذه الفكرة المشار إليها واستطاع إخفاء شعوره المعادي للأتراك. فقد كان يريد توسيع إمارته حتى القدس ولذلك اتصل بالغرب الأوروبي ووافق على إدخال بعض السكان الأوروبيين إلى إمارته. وحسّن الجباية وسهّل الأمور للإرساليات الأجنبية وأول إرسالية وصلت إلى صيدا كانت الكبوشيين. ومن خلال الاتصالات وتسهيل أمور الارساليات، بعث فرديناند الأول أمير توسكانا، رسالة شكر للأمير اللبناني سنة ١٦٠٧، كما أرسل العديد من عملائه لدرس حال المشرق والإمارة عن كثب، وإرسال التقارير عن أحوال البلاد. وعقد المعاهدات الحربية والتجارية مع الثائرين، وعلى رأسهم علي باشا جنبولاد حاكم حلب وكلسّ وغيرهم مثل الصفويين في بلاد فارس وحسين باشا حاكم الحبشة وثوار العرب في اليمن واباظه

باشا الجلالي في بغداد وابن قلندار في الأناضول.[1] وتشجيع كلّ انتفاضة ثورية بوجه العثمانيين.[2]

وفي السنة ١٦٠٦، عندما ثار علي باشا جنبولاد واحتلّ شمالي سوريا وموقعين حربيين في الاناضول، أرسل فرديناند إلى الأمير فخر الدين وعلي باشا جنبولاد مبعوثه الخاص الخوري مخايل قريع اللبناني للتفاوض والاتفاق معهما ضد الدولة.

إلى جانب الرسائل المتبادلة، هناك مسعى تجاري وعسكري من قبل فرديناند وإرسال مخايل قريع كان للحصول على معاهدة مع علي باشا. بالمقابل اتصل علي باشا بالأمير فخر الدين وأظهر له أنه قريبه على بعد النسب، فحضر إليه واجتمعا معاً عند نبع العاصي في الهرمل وتشاورا على أن يقصدا طرابلس لأجل الانتقام من يوسف باشا سيفا، ويرجّح المؤرّخون أن يكون علي باشا قد اطلع الأمير فخر الدين على اتفاقه مع أمراء الغرب. ويذكر ڤون هامر Von Hammer «أن الخطر الذي يهدّد كيان السلطنة نشأ في حلب حيث ثار جنبلاط الكردي بالاتفاق مع فخر الدين الدرزي، فقد كانا يسعيان في تحويل سوريا إلى مملكة مستقلّة...». في هذا الظرف تنبّه الدوق الأكبر فرديناند واستغلّ الأحداث وسارع إلى إرسال مخايل قريع إلى الشرق مع التعليمات التالية:

«- إن هدفنا الأكبر والأسمى وهدفهم كسر شوكة السلطنة الغاشمة.

- ليطمئن الباشا وكلّ الخارجين على الدولة العثمانية إلى أن الأمراء المسيحيين ليس لهم مطمع في شبر من أرض آسيا، بل جلّ غايتهم أن يعمل كلّ بدوره على دكّ الدولة العثمانية، حتى إذا ما فازوا بأمنيتهم تركوا للثوار أن يتولى كلّ منهم مقاطعته ولا يعود لنا مأرب في تلك البلاد سوى تمكين النصارى الأوروبيين من زيارة الأراضي المقدّسة والإقامة في ظلها مطمئنين...».

---

(١) هشي، سليم، علي باشا جنبلاط - لحد خاطر، منشورات سنة ١٩٨٦، ص ٥٧ - ٧١ - ٧٢.

(٢) قرألي، ص ٨ - ٩.

إن ثورة علي باشا شجّعت أمراء الغرب علـى الاتصال بـالأمـراء الشـرقيين، إلا أن هزيمته السنة ١٦٠٧ أثّرت في موقف فخر الدين. وهناك رسالة من مخايل قريع إلى الدوق فرديناند تعود إلى هذه السنة يقول فيها:

«... لذلك عقدت النية على التوجّه إلى تلك البلاد انشاء الله اجري من ذهابي إلى الأمير فخر الدين أو إلى غيره لأنه ما زال هو وبعض الأشخاص في كفة الميزان لا يدري على أي شيء يعتمد... وهناك إشاعة مفادها أن الأمير يجهّز بعض المراكب للهرب إلى ايطاليا إذا عنّ للوزير أن يركب عليه لأنه يتحاشى مقاتلته...».

في السنة ١٦٠٨، تمّ الاتفاق بين فرديناند الأول والأمير فخر الدين على السفر إلى الغرب ووضعت بنود الاتفاق السرّي. وكان اتفـاقاً سيـاسيـاً وعسـكريـاً ينصّ عـلى ما يأتي:(١)

- أن يجري تبادل عسكري بين البلدين.
- أن يرسـل فرديـنانـد الأسلحة والذخائر للأمير.
- أن يـوضـع تحت تصـرّف الأمير مـراكب للسفر وخبراء.

وفي السنة ١٦٠٩ جدّد قوزما الثاني أمير توسكانا الجديد علاقة الصداقة مع الأمير المعني. إلى جانب هذا التجديد، كتب البابا لـلأمير يشـكـره عـلـى حسـن مـعـامـلـتـه للمسيحيين في بلاده.

في السـنـة ١٦١١، كـلّـف الأمير، الخوراسقف جورج مارون، مطران نيقوسيا في قبرص ومندوب البطريرك الماروني لدى الكرسي الرسولي في روما، أن يبحث مع البابا وبلاط توسكانا إرسال حملة عسكرية لاسترداد الأراضي المقدّسة.(٢)

من هذه الأمور التي سردناها، يتبيّن أن هناك تعاطفاً بين الأمير وملوك اوروبا ودوق تـوسـكـانا بالضبط واهتمام مباشر لأوروبا بأوضاع الشرق الثائر للافادة منها في سبيل تحقيـق حـمـلـة عسـكـرية جـديـدة تستعيد

---

(١) قرألي، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) قرألي، ص ١٦٣ - ١٦٤.

الأراضـي المقـدّسـة وتسـيـطـر عـلـى تجارة الشرق. إلاّ أن ردّة الفعل العثمانية قضت على هذه المحاولة وأجبرت الأمير المعني على السفر إلى ايطاليا.

إن سفر الأمير إلى ايطاليا لا يمكن أن يتمّ بناء على مشورة الحاج كيوان أو على تخاذل مؤيدي الأمير عن القتال أو نظراً لضيق الوقت، ولكن ذلك حصل لأن الأمير كان قد طلب أذناً بالدخول إلى إيطاليا السنة ١٦٠٨. والاتفاق بينه وبين أمير توسكانا السنة ١٦٠٧ للسفر إلى هناك في حال وجود خطر معيّن. فعندما تبيّن للأمير أنه لا يستطيع محاربة حافظ باشا فضلّ الانسحاب.

٣٣ - تطلّعات فخر الدين الجديدة:

يذكر الشيخ أحمد الخالدي في كتابه تاريخ فخر الدين المعني، «إن فخر الدين اهتمّ له كلّ ملوك اوروبا الذين لهم علاقة مباشرة لخطة اوروبا للشرق وعلى رأسهم ملك اسبانيا الذي أرسل وزيره ونائبه في صقلية المدعو اوسّوما عارضاً على فخر الدين التعاون مع الملك، بتقديم المساعدات العسكرية له. إلاّ أن الأمير رفض ذلك كما رفض أيضاً خدمات فرنسا». مع أن اسبانيا وفرنسا كانتا الدولتين الأقويين، ودوق توسكانا كان بالنسبة لإسبانيا كما الأمير بالنسبة للسلطنة العثمانية. لقد خاف الأمير من أن ينتقل من وصاية السلطان العثماني إلى وصاية جديدة اوروبية. ثمّ أن تعاون الأمير مع ملك اسبانيا يشير مخاوف السلطنة ومرد ذلك إلى أن الملك كان يحمل لقب «ملك اورشليم» الأمر الذي سيؤدي إلى متاعب جمة وخطيرة مع العثمانيين. كما أن دوق توسكانا حذّر الأمير بقوله «... إذا ما تعاونت مع اسبانيا ستدخل بلادك ولن تخرج منها...» لذلك التقى فخر الدين بالتعاون مع أمير توسكانا فقط.

كانت توسكانا تابعة لملك اسبانيا، إنما أميرها كان يتبع سياسة مستقلّة عن الملك وقد تمكّن من إنشاء إمارة قوية لها أسطولها ونظامها الخاص.

لقد أفاد فخر الدين كثيراً خلال مدّة وجوده القسري في ايطاليا. ولم يبحث مع أمير توسكانا سوى الأمور العسكرية، لكنه قارن ما بين وضعه مع العثمانيين ووضع

الدوق مع اسبانيا. وهذه المقارنة هي التي أطلقت فخر الدين نحو خطة جديدة تختلف عن خطة السنة ١٦٠٨ حيث كان هو العميل والمنفّذ لخطة غربيّة، إنما بعد عودته سيستقل بسياسته الداخلية والخارجية.

٤ - الأمير يحكم الإمارة بأفكار وخطة جديدة (١٦١٨ - ١٦٣٣)

خلال وجوده في اوروبا، اطّلع الأمير فخر الدين على معالم الحضارة الاوروبية. وكما يقول مرافقه الحاج كيوان، فقد اعجب الأمير بهذه الحضارة، لذلك سيحاول بعد عودته أن ينقل بعض هذه المعالم إلى لبنان: هكذا أنشأ حديقة حيوانات وبنى قصراً في بيروت ورمّم قصره في دير القمر على الطراز الاوروبي.

وقد لاحظ الأمير أن قوّة الحكم تقوم على طموح الحاكم أو الأمير، وتبيّن له أن تلك الإمارة الصغيرة - توسكانا - تمتّعت بقوّة وسطوة نادرتين، وهذا يعود إلى تخطيط الحاكم ووضوح الهدف. فطموح الحاكم لا يكفي لتثبيت الحكم، إنما أيضاً القدرة على ترسيخ العدالة والأمن ومن ثمّ تشجيع العمران. كلّ هذا يؤدي إلى خلق الطموح عند الشعب. فقوّة الحاكم تكمن في قدراته على نقل طموحه وأهدافه إلى شعبه، وذلك بالانجازات التي تؤمّن لمواطنيه حياتهم وتنقلهم من مرحلة البدائية إلى مرحلة التطوّر الجديد.

انطلاقاً مما ذكرنا، نرجّح أن فخر الدين عند عودته السنة ١٦١٨، كانت لديه خطة واحدة تقوم على:

- ربط لبنان حضارياً بأوروبا عبر توسكانا.
- وضع خبرات اوروبا - الزراعية والصناعية والعمرانية، في خدمة مصلحة وطنية تقوم على أساسين:

- أولاً: المجتمع النامي القومي المتناسق الأهداف:

هذا المجتمع الموحّد الغايات فيه العنصران الماروني والدرزي، وقد تمكّن الأمير من تنسيق الأهداف لأن الموارنة تاقوا للاتصال بالغرب، لذلك استعملهم كعامل انفتاح عليه، كما أنه اعتمد عليهم كرسل فيه: أمثال جرجس بن مارون

الاهدني والمطران حنا الحصروني وخاصة إبراهيم الحاقلاني.

أما العامل الدرزي فقد اعتبره عامل الانفصال عن المحيط العثماني فالانفتاح على الغرب الاوروبي والانفصال عن المحيط العثماني يلتقيان عند مفهوم الاستقلال الذاتي انطلاقاً من تمايزهما الاجتماعي في البيئة العثمانية. لقد ربط الطوائف بالأرض ليبعدها عن ارتباطها بالولاء للسلطان.

- **ثانياً: السياسة في خدمة المجتمع:**

هذه السياسة كانت تهدف إلى معرفة ما يريده الدرزي والماروني، فكلاهما يسعيان للاستقلال، والاستقلال يعني التحرر من تبعية السلطنة العثمانية إلى حدٍ ما. لقد تمكّن الأمير من توحيد السلطة السياسية في شخصه، رغم أن مجتمع الإمارة كان مجتمعاً قبلياً: فهناك القبائل والأسر بحيث أن الفرد كان تابعاً لقبيلته وأسرته. وهذا الوضع انعكس على السلطة التي لا يمكن أن تكون موحّدة. فحاول فخر الدين أن يوحّدها بشخصه هو، وهذا التوحيد يصطدم بولاء الاعيان والمشايخ. فكان لا بدّ له من كسبهم إلى جانبه، وقد استطاع ذلك إذ ترك لهم بعض الصلاحيات، لكنه، في المقابل، أدار دفة السياسة الخارجية في مختلف مجالاتها. ان الولاء لشخصه لا يكفي، لذلك عمل الأمير على توحيد الولاء للإمارة مما مكّنه من ممارسة سياسة السيادة على المجتمع وكانت عبر ما حققه من مشاريع سمحت للفرد بأن يجمع ثروة ويعيش بأمان وحرية واستقلال.

لقد برزت أمام فخر الدين مشكلة موقف السلطنة العثمانية من الإمارة وإلى أي حدّ يمكن للأمير أن يلتزم بسيادة السلطان مع الإبقاء على استقلال الإمارة وتدعيم هذا الاستقلال. فالاستقلال يعني التعالي على السلطنة وجعل الأمير نفسه كالسلطان العثماني، لكن الأمير كسب رضى الباب العالي بدفع الأموال والضرائب والاكراميات مما جعله في نظر العثمانيين موالياً لهم. ولكن سياسته الداخلية كانت تنبع من اقتناعه الشخصي وأهدافه الثابتة. إن رضى السلطان عنه سرعان ما أعطى نتائجه الايجابية كما يقول الخالدي (صفحة ٢٤٢): «... وفي أول شهر ربيع الأول من

السنة ١٠٣٤هـ (١٦٢٤م)، اجاه أحكام سلطانية فرمان عالي الشأن خط همايوني يكون متولياً على ديرة عربستان من حدّ حلب إلى حدّ القدس ومعطي اسم جدّه المرحوم المغفور له الأمير فخر الدين سلطان البر على المقاطعات المذكورة بحيث تؤدي ميرتهم إلى الخزينة وسلوك طرقاتهم وانتظام أعمارهم... وجعل لأجل ذلك... الاحكام الشريفة خدمة إلى خزينة مولانا السلطان مئتي ألف ذهب...».

هذا الفرمان الهمايوني أدّى إلى اصطدام الأمير مع والي الشام السنة ١٦٢٤ في موقعة عنجر. وتنفيذه هذا الفرمان أدى إلى الاصطدام بآل سيفا وتصفيتهم السنة ١٦٢٧. لقد وصل الأمير، بهذا الفرمان، إلى ذروة مجده وراودته نفسه على السلطنة «كلّما حكمنا بلاد نتقوّى في رجالها وأموالها وننتقل إلى غيرها...».(١)

لقد اعتمد الأمير على فكرته هذه فابتدأ يبني في بيروت «حارة للوحوش» تقليداً للسلطنة. كثر الحاسدون والمبغضون وأرسلت الشكاوى إلى الباب العالي فوصلت إلى السلطان نفسه «أن الأمير على وشك أن يعلن نفسه سلطاناً» فغضب عليه وأرسل جيشه السنة ١٦٣٣، بقيادة الكجك أحمد باشا، للاقتصاص منه ومن شعب الإمارة.

السؤال الذي يطرح نفسه وفق المؤرّخين: هل حاول فخر الدين حقاً إعلان نفسه سلطاناً؟ وهل كان يريد الجلوس مكان السلطان نفسه أم الاستقلال؟ مما لا شك فيه أن حركته تعني الاستقلال، أي ألاّ تكون هناك سلطة فوق سلطته. وانطلاقاً من هذا المفهوم للسلطة يمكن أن نفهم علاقة الأمير بالغرب الاوروبي. هذه العلاقة التي تحوّلت من علاقة تبعية إلى علاقة سياسية يكون فيها الأمير حليف أمير توسكانا، خاصة على الصعيد الحضاري، وبالتالي فإن الأمير لم يعد مرتبطاً بالسياسة الاوروبية في الشرق. ومما يؤكّد ذلك أن البعثات الفنية

(١) سويد، ج ١، ١٧٤.
- LAMMENS, T 2, P 86.

التي استقدمها الأمير كانت على حساب الإمارة ولم تكن مساعدة، ثمّ أن الأسلحة التي امتلكها كانت شراءً وليست هبات. والسياسة العمرانية التي انتهجها توضح بكل جلاء أنه لم يعدّ للحرب كما في مرحلة حكمه الأولى، إنما كان يبني إمارة مستقلّة مع كلّ ما توفّره اوروبا من خدمات وبمعنى آخر فإن الأمير، في مرحلة حكمه الثانية، أصبح في موقف التعاون والتعامل مع الغرب وعلى أساس المساواة والمصلحة المتبادلة على الصعيدين الحضاري والاقتصادي. ونتيجة هذه السياسة، أصبح الأمير رمز الإمارة المستقلّة، يتحمّل وحده مسؤولياتها، وليس كما في المرحلة السابقة عندما تحمّلت الإمارة مسؤولية حكم الأمير فتمّ حرق وتخريب قرى ومدن الشوف وغيرها من أرض الإمارة المعنية.

ربما يخيّل للبعض أن الأمير كان مجرّد مغامر عسكري أو عميل توسكاني، لكنه كان في الحقيقة بعكس ذلك تماماً. فقد كان رجل دولة من الطراز الرفيع، بالإضافة «إلى خياله الواسع في إدارة شؤون الدولة وطموحه الكبير في بنائها على أسس عصرية وحديثة، ولذا نال كلّ الشهرة الواسعة في اوروبا وآسيا معاً».

٥ – مقوّمات الدولة في إمارة فخر الدين

٥١ – الإدارة:

لم يخرج فخر الدين في إدارته بلاده عن مفهوم الإدارة الذي كان سائداً في النظام الاقطاعي في ذلك العهد. فالأمير هو الإقطاعي الأكبر أو الحاكم العام الذي يتولّى حكم الإمارة أو المقاطعة فيوزّعها على إقطاعات يعهد بكلّ منها إلى مقاطعجي من أتباعه. وكان المقاطعجي عادة يتحدّر من عائلة تنتسب إلى طبقة أعلى من طبقة باقي العائلات في الإقطاعة.

كان فخر الدين، ككلّ الاقطاعيين آنذاك، يوزّع أراضي إمارته على الفلاحين لقاء بدل سنوي يتقاضاه أجراً لها.[1] وكان يقطع

(١) قرألي، ص ٦٤ – ٢١٣.
– سويد، ج ١، ١٩٢.

الإقطاعات الأخرى أصحابها أو رجالاً من قبلع يديرونها لقاء مبلغ من المال، وعليهم أيضاً أن يجنّدوا عدداً من المقاتلين لصالح جيش الأمير أثناء الحروب، وقد فعل ذلك مرات عديدة. ففي السنة ١٦٠٥ ولّى الشيخ يوسف المسلماني حكم مقاطعة غزير، والشيخ أبا نادر الخازن حكم بلاد جبيل والمقدم يوسف الشاعر حكم بلاد البترون العام ١٦١٨. والشيخ أبا صافي الخازن حكم جبة بشري العام ١٦٢١. وفي أثناء غيابه في اوروبا، قام ابنه الأمير علي بإعادة توزيع المقاطعات وفق ما كانت تقضي مصلحة الإمارة، فولّى عمه الأمير يونس على حكم مقاطعة الشوف وبلاد بشارة وكسروان، والأمير منذر التنوخي بيروت والأمير ناصر الدين التنوخي مقاطعتي الغرب والجرد ومقدمي كفرسلوان اللمعيين المتن إلى آخره وبدوره ولّى الأمير يونس من قبله الشيخ أبا نادر الخازن حكم بلاد كسروان.(١)

٥٢ - القضاء:

كان القضاء في الإمارة المعنية يخضع لشرائع الإقطاع التي تحدّد صلاحيات الاقطاعي والمقاطعجي. وهذه الشرائع كانت مستمدّة من عادات وتقاليد القبائل والعشائر على مرّ الأجيال. وكان العرف بمثابة القانون، إلى جانب القوانين والأوامر التنفيذية التي كانت تعمّمها السلطنة العثمانية وتلزم بها الاقطاعي. وكان الشّرع الإسلامي في طليعة الشرائع، وخاصة في ما يتعلّق بالأحوال الشخصية، ما عدا بالنسبة لغير المحمديين، فقد ترك حلّ تلك الدعاوى على عاتق رؤساء الطوائف، وخاصة الطائفة المارونية.

كان يعود للأمير وحده حق الحكم بالجرائم الكبيرة التي تستوجب الاعدام أو القتل أو بتر أحد الأعضاء، وكذلك في الدعاوى المالية والمدنية الكبيرة، وهكذا نسبياً في ما يخص المقاطعجي. أما الخلافات

---

(١) الدويهي، اسطفان - تاريخ الأزمنة - المطبعة الكاثوليكية - ١٩٥١ - بيروت، ص ٢٩٧ - ٣١١، ٣١٤.
- الشهابي، الأمير حيدر - الغرر الحسان كان في تاريخ حوادث الأزمان، ج ١ - مطبعة السلام، مصر ١٩٠٢، ص ٦٥٠.
- الخالدي - ص ٥٣ - ٥٤.

التي تحصل بين حكام الاقطاعات التابعة للإمارة، كان الأمير يحلها على طريقته الخاصة وفق الاعراف المتبعة آنذاك إن كانت دعاوى مدنية أو جزائية أو غيرها. فالأمير هو رأس السلطة الاجرائية والقضائية والتشريعية إذا صحّ التعبير. حتى أن فخر الدين كان يتدخّل مباشرة عندما يرى ظلماً قد وقع من قبل المقاطعجي على الأهالي والفلاحين، أو إذا وقع خلاف ما ولم يستطع المقاطعجي حلّه. وكان للأمير صلاحيات رئيس الدولة في ما يختص بعقد المعاهدات وتوقيعها سواء مع الحكام المجاورين أو مع دول أجنبية، كما كان له حق إعلان الحرب والتعبئة الجزئية والعامة، شرط ألاّ يمس ذلك أمن السلطنة وسلامتها.

ويؤخذ على الأمير فخر الدين سوء استعمال سلطته في كثير من الأحوال، كما كانت السلطنة تفعل هي أيضاً. فقد حكم مثلاً على مستشاره المقرّب جداً الحاج كيوان، فوراً وقتله بيده لأجل سبب لا يستحق هذه العقوبة القصوى. ومن مغالاته ان أحد أمراء بعلبك راهن «برأسه أن السلطان لم يهب الأمير فخر الدين هذه القلعة» وعندما استولى فخر الدين عليها دعا ذلك الأمير إلى العشاء وذكّره بما قال سابقاً ثمّ أخذ رأسه بين يديه وقطعه بسكينه.[١]

باختصار كلّي، لقد تمكّن الأمير فخر الدين أن يساوي بين كلّ رعاياه و«يؤلّف قلوبهم وينفخ في صدورهم روح التضامن والوطنية الحقة، التي أوقفت عند سفوح جبالهم كلّ تعدٍ غريب».[٢] بعد وفاة الأمير عادت الولايات السورية إلى نير الحكم العثماني. أما لبنان فحافظ لوحده على فكرة الاستقلال التي كوّنها الأمير في رعاياه.[٣]

٥٣ – الأمن:

إذا كان القضاء صارماً وعادلاً فلا بدّ من أن يستقرّ الأمن داخل الدولة. لقد شهد وكتب كثير من الرحالة والمستشرقين أن بلاد فخر الدين كانت الأكثر أمناً واطمئناناً،

(١) الخالدي، ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٢) قرألي، ص ٤٤.

(٣) لامنس، تاريخ سوريا، ص ٨٦.

فسطوة الأمير وهيبته والتدابير الأمنية الحازمة التي اتخذها داخل وطنه، كان لها الدور الأهم في توفير الراحة والحرية والأمن. يصف الخبير سانتي في تقريره نظرة أهالي الإمارة إلى أميرهم فخر الدين من هذه الناحية فيقول: «يعتبره الجميع أميراً ذا بأس وإقدام، للحروب المتواصلة التي أشهرها على السلطان... فهم يحبّونه ويهابونه لدعته... وهم يعتبرونه ويخافونه، لأنه يعاقب بصرامة وبأحكام عسكرية الجرائم والمخالفات التي يرتكبونها... تطبق الأحكام على العادات الدارجة في البلاد».(١)

كان التجار الأجانب، وأغلبهم من الإنكليز، يحظون بقدر كبير من حرية التنقل والمتاجرة، وكان بإمكانهم أن يحملوا أموالهم معهم دون أي خطر.(٢)

تحت حكم فخر الدين «حلّ العدل والأمن والأمان محل ظلام الظلم والجور... وانقطعت... اثار اللصوس الذين كانوا ينصبون لاذى المسلمين الشصوص، وعمرت البلاد... وزال بسببه هشيم الجور والاعتساف... وزال عنهم به أنواع الهم والغم والترح...».(٣) فعاش الناس كلّ الناس على مختلف مذاهبهم وطوائفهم بعيش رغيد لأنه كان «يصغي إلى المظلوم فينصفه من ظالمه ويرثي لحاله فيكون له خير راحمه.(٣)

كان الأمير يتدخّل شخصياً وفوراً عندما تدعو الحاجة لذلك، وخاصة عندما تقع السرقات وتشليح الناس، فينهب ارزاق اللصوص والمعتدين ويسوق المجرمين إلى السجون، كما فعل في قرية الكوثرية في جنوب لبنان.(٤)

لقد جهّز الأمير بلاده بشبكة متينة من القلاع والحصون والأبراج والأسوار والخانات. فقد بنى بعضها ورمّم البعض الآخر وملأها بالجنود وكلّ ما هم بحاجة إليه لوجستياً، من ذخيرة ومياه وتغذية وغيرها:

---

(١) قرألي، ص ٢١٥.

(٢) سويد، ج ١، ص ١٦٤.

(٣) الخالدي، ص ٢ - ٤.

(٤) الخالدي، ص ١٦ - ٨٦.

أولاً، لـلسـيـطـرة عـلـى طـرق المواصـلات والمحافـظـة عـلـى أمـن الإمارة الـداخلي ضـد القتلة واللصوص ولرفع معنويات الأهالي وان عيون الأمير مفتوحة على كلّ مخلّ بالأمن. وثانياً، للدفاع عن أرض الإمارة من كلّ عدو خارجي يريد السيطرة عليها. إنها نقاط ارتكاز عسكرية ومعاقل ومعتصمات. لـقـد تصـرّف الأمير بحوالي الأربعين قلعة وحصـنـاً، مـثـل انـطـاكـيـة - بـانـيـاس - البحصاص - بخعون - بشري - بعلبك - بيروت - تبنين - تدمر - جبيل - جزين - جنين - حصن الأكراد - حلب - حيفا دوبيه - الصلت - سمار جبيل - شقيف ارنون - صور - صلخد وغيرها. وهكذا قطع دابر الشـقـاوة والـلـصـوصـيـة في الإمارة. إلى جـانب المحافـظة عـلى الأمن براً فقد حافظ الأمير أيضاً على أمن السواحل من غارات قـرصـان الـبـحـر. وفي إحـدى المرات «حجزغليونين لقرصان مالطة لتعديهم على شواطئه فاستخدمهما في الدفاع عن جيشه إذا سـار عـلـى الشـاطـىء ونـقـل الـبضـائـع والذخائر والجنود بين هذه الموانىء كما فعل في حملته على عرب فلسطين.[1]

٥٤ - ميزانية الامارة:

أ - الايرادات:

كانت سياسة فخر الدين الداخلية ترتكز على أمور ثلاثة متناسقة ومترابطة: الأمن لـكـلّ الـنـاس - الازدهـار الاقـتـصـادي والـتـسـامـح الـديـنـي أو عـدم الاعتراف بالطائفية البغيضة. لقد كان الأمن مستتباً في داخـل الإمـارة، كـمـا سـبـق وأوردنا، الأمر الذي يتطلّب أموالاً طائلة، والأموال لا يمكن أن تأتى إلى الأمير إلاّ إذا فرض ضرائب باهظة تثقل كاهل المواطنين، كلّ المواطنين. وفرض الضرائب لا يمكن أن يتمّ إذا لم تكن حـالـة الإمـارة الاقـتـصـاديـة مـزدهـرة، لـذلك شجع الأعمال الصناعية والزراعية والتجارية داخلياً وخارجياً، كي يصبح بمقدور المواطن دفع الضريبة المفروضة عليه بروح طيبة.

كانت الزراعة أحد هموم الأمير الرئيسية في إمارته وخاصة بعد عودته من توسكانا،

(١) قرألي، ص ٧٨.

لذلك عمل على إنمائها مشجعاً تربية المواشي والصناعات الناتجة منها. فقد تظّمها على أتقن الأساليب وأوفرها مورداً[1] فعادت بالرخاء والبحبوحة على الشعب والسلطة معاً. «لأن ثروة الدولة قائمة على ثروة الشعب».[1]

لقد أراد فخر الدين أن يلحق لبنان بركب الحضارة العصرية والسير به في طريق الرقي، فأعاد العلاقات بين لبنان وتوسكانا وتمّ إبدال التمثيل الدبلوماسي واستحضار مهندسي البناء ومهندسي الريّ والاخصائيين في الزراعة ليعلّموا الفلاحين في الإمارة التقنيات الحديثة في أساليب الزراعة، وخاصة الزراعات المنتجة مثل التوت والزيتون والقطن والقصب السكّري والكتان والقمح وسائر الحبوب، وما ينتج عنها من صناعات كالحرير والصابون والسكر والمنسوجات القطنية والكتانية إلى جانب زراعة الأحراج والغابات والبساتين والجنائن الغنّاء. لقد أدخل التوسكانيون إلى بلاد الأمير آلات زراعية حديثة خفّفت من اليد العاملة كما استحضروا أنواعاً جديدة من البقر لتحسين النسل المحلي[2] كما أنه شجّع تحسين نسل الجياد العربية الأصيلة وقام بتصديرها إلى اوروبا ليستحضر منها أنواعاً من كلاب الصيد والحراسة. وقد برع اللبنانيون باستخراج الرماد من حشيشة كانوا يحرقونها في حفر خاصة ثمّ يجمعون رمادها ويصدّرونه إلى البندقية وباقي المدن الأوروبية لاستعماله في صناعة الزجاج النقي.[3]

واشتهر الزيت والزيتون اللبناني وصابونه في الأسواق الشرقية والغربية وكان يباع بأثمانٍ جيدة للغاية. أما الحرير فقد منحه الأمير عناية خاصة فأصبح الأول بين المنتوجات الوطنية. وكان الموارنة من أمهر مربي دودة الحرير فنشروا هذه الصناعة في لبنان كلّه وفي بعض أنحاء بلاد الشام،

(١) قرألي، ص ٤٤.
- حتي، ص ٢٦٤.
(٢) حتي، ص ٤٦٤.
(٣) قرألي، ص ٤٨.

وخاصة سوريا، وفي جزيرة قبرص لدى الجالية المارونية التي توطنت هذه الجزيرة منذ العام ١٤٠٣ بعد نزوحها عن لبنان تحت ضغط ضربات المماليك. وكان القطن والحرير أهم محاصيل الإمارة المعنية.(١) وقد قدّر الخبراء التوسكانيون السنة ١٦١٤، ان ايرادات الأمير من الحرير والكتان كانت تعادل ثلث دخل خزينته آنذاك، حتى أن فخر الدين كان يستخدم الحرير في سداد الأموال الأميرية والتجارية، إلى جانب هداياه للسلطان والوزراء والولاة والأصدقاء.

أما التجارة فقد نشّطها الأمير في إمارته إذ بسط الأمن براً وبحراً وحمى التجار وأعطاهم التسهيلات والميزات والحصانات ما استطاع إليه سبيلاً، فازدهرت المدن اللبنانية الساحلية بعد طول سبات مثل بيروت وصيدا وصور وجبيل وطرابلس، وراحت موانئها تستقبل بارتياح مراكب البندقية وبيزا ومرسيليا وتونس والجزائر ومراكش ومصر والبحر الأسود والسلطنة العثمانية، حاملة المصنوعات الأجنبية والمعادن والنقود لتحمل من موانئنا المنتوجات الوطنية المختلفة التي راجت في بلاد اوروبا وغيرها. ولا يمكن للتجارة أن تزدهر إلاّ إذا كانت المواصلات سهلة وآمنة، لذلك فتح الأمير الطرق وعبّدها وأقام الجسور على الأنهر كجسور بيروت وصيدا والقاسمية ونهر الكلب. وفي السنة ١٦٣٠، قاد فخر الدين بنفسه حملة على تدمر وجهز قلعتها بالاعتدة والرجال حماية للقوافل التي كانت تجتاز صحراء سوريا آنذاك.(٢)

وهكذا تكلّلت سياسة فخر الدين الحكيمة هذه بنجاح باهر وعادت على الإمارة برخاء فريد في تاريخها، فالثغور اللبنانية امتلأت بالتجار من البلدان المجاورة والأجانب نظراً إلى حماية الأمير لهم وللتسهيلات التي كانت تعطى لهؤلاء، فيربح لبنان خبرتهم ونشاطهم ورؤوس أموالهم وعملاءهم وتروج محصولاته ومصنوعاته.(٣)

(١) قرألي، ص ٤٤.

(٢) قرألي، ص ٥٨.

(٣) قرألي، ص ٥٩.

كان الأمير يعامل كل الدول الاوروبية معاملة حسنة سواء اكانت صديقة للسلطنة أم عدوة لها، مستفيداً من الجميع، فيتعاقد جهاراً مع تجار الدولة الحليفة لتركيا ويخوّلهم كامل الحقوق والميزات المنصوص عنها في عقود دولهم مع الباب العالي، أما تجار الدول غير الحليفة، فيتعاقد معهم سراً سياسياً وتجارياً.(١)

ومن الأعمال التي قام بها وكان لها اثر بعيد الغور، سماحه للارساليات الكاثوليكية، ولاسيما للكبوشيين، لتؤسس ارسالية في صيدا تلك الارسالية التي توسعت في أعمالها فشملت بيروت وطرابلس واهدن في الشمال.

كلّ هذه الأمور مجتمعة، أدّت إلى الزيادة في المدخول السنوي لخزينة الأمير. وقد قدرت الميزانية بحوالى تسع مئة ألف ليرة ذهبية، يخسر منها الأمير ٤٣ ألف ليرة كانت ترسل إلى اسطنبول للخزينة المركزية.(٢) هذه الزيادة مكّنت الأمير من متابعة إنشاء جيش قوي.

إلى جانب التجارة والصناعة والزراعة، كان الأمير يجبي الأموال لتنمية موارد الخزينة من موارد أربعة هي:

أولاً: رسوم الجمارك:

كانت الجمارك تستوفي من كلّ مركب يرسو في موانىء الإمارة رسماً قدره ٢٥ قرشاً، وعن كلّ ١٠ ليبرات (الليبرة تعادل نصف كيلوغرام أو رطلاً حصرياً) من الحرير والقطن يدفع ربع سكوت أي ما يعادل بالعملة الفرنسية أنذاك ٧،٢٥ فرنك، هذا عن البضائع التي تباع في البلاد أو تخزّن، أما التي تمر في الإمارة إلى دمشق أو تصدّر من هناك إلى موانىء لبنان فتتحمّل رسوماً باهظة – وكان الأمير يتقاضى من التجار ٣٪ فقط.(٣)

ثانياً: رسوم المواشي:

في العام ١٦١٤ كان الأمير يتقاضى رسماً عن كلّ رأس من البقر والجواميس والجمال

(١) قرألي، ص ٦١.
(٢) حتي، ص ٤٦٥.
(٣) قرألي، ص ٦٣.

والماعز، التي يسلّمها إلى الفلاحين، على أن تكون جلودها له، وان نفقت فهم يتحمّلون ذلك. ولا يسمح لهذا الفلاح باقتناء أكثر من ثلاثة أبقار، وقد قدّرت هذه الرسوم بحوالى الخمسين ألف ليرة ذهبية. ويقال انه كان يجني من كلّ شيء خمسه.(١)

ثالثاً: رسوم المزروعات والأشجار:

كانت ضريبة الأرض تجبى عن الأشجار المثمرة والمنتجة القائمة عليها. وبنشيط زراعة التوت والزيتون، تمكّن الأمير من إدخال المبالغ الكبيرة إلى خزينته. والجدير ذكره، ووفق الشرع، أن كلّ الأراضي الزراعية هي ملك الأمير أو الحاكم، يسلّمها إلى الفلاحين شرط أن يعطوه سنوياً ١٥ ريالاً عن كلّ مئة زيتونة، وعن كلّ مئة شجرة توت ٣ ريالات، والثلث من القطن والحرير، ناهيك عن كميات وافرة من محصول الحرير والقطن يجنيها الأمير من الأراضي التي يستغلّها لحسابه الخاص.(٢)

رابعاً: بدل الخدمة العسكرية:

حرّم الشرع الإسلامي دخول النصارى واليهود في الجيوش الاسلامية لذلك، ففرض عليهم جزية سنوية يدفعها كلّ رجل بالغ منهم. إنما إمارة فخر الدين كانت الوحيدة بين مقاطعات السلطنة، تقبل بانخراط هؤلاء في صفوف الجيش الذي معظمه كان منهم. وكان فخر الدين يتقاضى سنوياً من المسيحيين واليهود ريالين عن كلّ واحد منهم، وكان الأمير على هذا الأساس، يعفي المسيحي واليهودي المجندين في جيشه من الجزية.

كان الأمير مطلعاً على كلّ أشغال البلاد وشؤونها الهامة وأحوال رعاياه وحالهم، يعرف بالضبط أسماء وألقاب الكثير منهم ومقدرتهم المالية. وكان لديه سجل يحوي أسماء كلّ الرجال القادرين على حمل السلاح، ويجدّد دورياً، وسجل آخر يحوي عدد الأشجار المثمرة، وثالث يدوّن فيه عدد الجواميس والأبقار والماعز والثيران وغيرها.

---

(١) قرألي، ص ٦٣.

(٢) قرألي، ص ٦٤.

ويقول الخالدي «إن الأمير كان يدير وبشكل مباشر إمارته بنفسه ويضبط أموالها ويتقن أمورها بقوة حدسه وكان قوي العزم، شديد الحزم، حسن التدبير». وكان يجدّد الاحصاء كلّ خمس أو ست سنين. هذا النوع من التدبير آنذاك، وضمن السلطنة، كان مستحدثاً.

ب - المصاريف:

انحصرت مصاريف الإمارة بأربعة أمور هي: الخراج والجيش والحاشية والأشغال العامة.

أولاً: الخراج:

كانت أراضي الولايات العثمانية معتبرة جميعها ملكاً للسلطان، الذي يوزع المقاطعات على الولاة والحكام لقاء مبالغ مالية محددة سنوياً يسترجعها هؤلاء من فرض الضرائب المتعدّدة على الأهالي. فكانت هذه السلسلة الضمانية تبدأ بالفلاح الذي يستثمر الأرض وتنتهي إلى السلطان المالك الأوحد لأرض السلطنة.

كانت سياسة فخر الدين مع الدولة العثمانية قائمة على سداد الأموال الأميرية بانتظام كلّي محافظة على مركزه وتبديداً للشبهات الحائمة حول طموحاته إلى استقلال بلاده وعلاقاته المشبوهة بالدول الاوروبية المعادية للسلطان. وكثيراً ما كان الأمير يرسل الأموال سلفاً،[1] وقد بلغت السنة ١٦٢٤ حوالى ثلاثمائة وأربعين ألفاً من السكوت، وزادت نسبتها نظراً إلى اتساع إمارته فبلغت العام ١٦٣٠ حوالى الخمسماية ألف.

ثانياً: الجيش:

كان جيش فخر الدين يتزايد عددياً كلّما سنحت الفرصة له لأن يوسّع ميدان فتوحاته فيزداد عدد حصونه وقلاعه. وقد راوح عديد هذا الجيش بين عشرة آلاف وأربعين ألفاً، حتى انه وصل إلى مئة ألف في العام ١٦٣١.[1] في السنة ١٦١٤ كان الأمير يدفع أربعة ريالات شهرياً لكلّ جندي من السكمان الثلاثة آلاف، هؤلاء السكمان

(١) قرألي، ص ٦٦.

الذين كانوا يبتزّون الأمير أو وكيله كلّما سنحت لهم الفرص. فأثناء غياب فخر الدين في توسكانا، طلب السكمانية المتمركزون في قلعة بانياس من قائدهم البلوكباشي حسين اليازجي زيادة على رواتبهم الشهرية «السكمان صاروا اخذين بخشيش الطايفة ثلاث مرات، لكلّ رجل في كلّ مرة خمس غروش والعلوفة كانت لكلّ رجل ثلاثة غروش. فما رضوا إلاّ بأربعة».(١)

كان فخر الدين يعطي لكلّ فارس من خيالته، حصاناً وسائساً ويقدّم الطعام له ولأسرته، لاسيما حرّاس القلاع. أما رواتب القادة فبلغت ثمانين ألف غرش سنوياً.(٢) ناهيك عمّا كان يفرّقه الأمير من بخشيش على جنود جيشه وقادته بعد كلّ معركة وانتصار.

ثالثاً: الأشغال العامة - حاشية الأمير - الهدايا:

لقد أنفق الأمير المبالغ الطائلة على توطيد الأمن في إمارته وعلى بناء القصور والجنائن المنسّقة على الطريقة الأوروبية وعلى ترميم القلاع والحصون والأبراج وتجهيزها بالأسلحة والرجال وعلى إنشاء الجسور والطرق العامة والمعابر وعلى تنشيط الزراعة والتجارة والصناعة ومدّ أقنية الري، ناهيك عن إقامة الخانات والأسواق وحراسة الثغور والشواطىء... أما حاشية الأمير وأسرته فقد بلغ ما أنفقه عليها حوالى مئة ألف ذهباً.(٣)

وأمّا ما كان ينفقه فخر الدين على الهدايا فحدّث ولا حرج، إذ كانت الهدايا من صلب سياسة الأمير آنذاك. وهي عادة متأصّلة في وجدان رجال السلطنة العثمانية. فالوالي له حصّته، كذلك الصدر الأعظم والسلطان نفسه «وكلّ هدية على قد المقام».

لقد زيّن فخر الدين عاصمته الشتوية بيروت، وابتنى فيها الأبراج والقصور وحصّن ميناءها حماية للتجارة من بوارج مالطة، وشجّع بناء الأسطول وامتلك نفسه أسطولاً صغيراً وحديقة حيوانات وزرع غابة صنوبر في جنوبي المدينة لحماية المزروعات

(١) قرألي، ص ٦٦.
(٢) قرألي ص ٦٦.
(٣) قرألي، ص ٦٧.

والحدائق من زحف الرمال البحرية عند شواطىء بيروت الجنوبية.

٦ - تحالفات الأمير العسكرية

٦١ - طموحه:

عندما تسلّم فخر الدين الحكم السنة ١٥٩٠، كانت إمارته صغيرة، وصغيرة جداً، في سلطنة عثمانية واسعة الأرجاء. وقد اقتصرت سلطة السلطنة على ما تفرضه عليها من ضرائب وخراج وجزية. وكان طموح الأمير كبيراً للغاية لا تحدّه حدود. «كلّما تملّكنا بلاداً نتقوّى برجالها وأموالها وننتقل إلى غيرها».[1] لذلك كان يريد توسيع تخوم إمارته بالسيطرة على البلدان والأقاليم التي كانت تحيط بها. وللوصول إلى ما كان يبتغيه، راح يهاجم بلدان المحيط ويدفع للولاة وللصدر الأعظم الأموال الطائلة لغض النظر عما يفعله. وكانت ضمائر المسؤولين العثمانيين فضفاضة حتى الثمالة. فالسياسة عندهم كانت سلعة تعرض في سوق الأخذ والعطاء والعرض والطلب. ولكلٍّ منهم الثمن المناسب. ويقال ان الأمير المعني كانت تدغدغه فكرة الاستقلال عن السلطنة في شكل أو آخر. وقد برهنت عن ذلك تحالفاته الاوروبية، وخاصة مع توسكانا... والله أعلم!

كان يطمح إلى إمارة مستقلّة تتوارثها أسرته من بعده من دون صعوبات، وتتمتع بجيش قوي يزود عن حياضها داخلياً وخارجياً إلى جانب ذلك كان الأمير راغباً بإدخال حضارة الغرب الاوروبي إلى إمارته، مستفيداً مما وصلت إليه عمرانياً وإدارياً وزراعياً وتجارياً وصناعياً كي تتمتع بالرفاه والبحبوحة. وعندما نقول حضارة نقول إمارة ديموقراطية علمانية، بعيدة من المفهوم الطائفي أو المذهبي الذي كان سائداً في ذلك الحين.

لم يوفّق فخر الدين في ما كان يصبو إليه، فطموحه كان أكبر من إمكاناته المادية والعسكرية، تجاه الدولة العثمانية القوية والقوية جداً بالنسبة له، فيما خصومه

(١) سويد، ص ١٧٤.

عديدون تألّبوا عليه وتكاثروا، ولعب الحقد والضغينة والحسد لعبته فسقط فخر الدين وسقط معه طموحه الكبير.

٦٢ - تحالفاته المحلية:

استعمل الأمير، لبلوغ غايته وتحقيق طموحه، القوّة والعطاء. وكان هدفه البعيد إشهار عدائه للسلطنة العثمانية ولا يمكنه أن يفعل هذا إلاّ إذا تحالف عسكرياً، أولاً مع أمراء المقاطعات المجاورة لإمارته لكي يشدّوا أزره ويساعدوه على الصمود في وجه الدولة، وثانياً مع بعض الدول الأوروبية التي كانت تكره السلطنة وتطمح إلى وضع رجلها في هذا المشرق للمحافظة على مصالحها السياسية والاقتصادية.

في بدء حكمه عمد الأمير إلى تثبيت سلطته داخل إمارته، فقضى على كلّ تحرّك مناهض لهذه السلطة، فشّل نشاط الحزب اليمني الذي يتزعّمه آل علم الدين، الخصوم التقليديون للأمراء المعنيين في الداخل والخارج. ثمّ تحالف مع الارسلانيين اليمنيين أمراء منطقة المغرب وأيضاً مع آل أبي اللمع أمراء المتن والأمراء من آل عساف في كسروان والأمراء الشهابيين في وادي التيم، وكان تحالفه معهم تحالفاً وطيداً ومستمراً. كذلك تحالف مدّة من الزمن مع الأمراء آل حرفوش في البقاع، وبعض أمراء العرب في فلسطين. ومع علي باشا جنبولاد والي حلب. وحاول أن يحالف يوسف باشا سيفا والي طرابلس وعكار، وكان من الاقطاعيين الأقوياء الذين يتحكّمون بمصير إقطاعة فسيحة الأرجاء غنية الموارد خاصة بعد مقتل الأمير منصور عساف. وكانت هذه المقاطعة تمتد من أطراف عكار شمالاً إلى بيروت جنوباً مشتملة على ما بينهما. فكان يوسف باشا يقف حجر عثرة أمام تحقيق طموح الأمير في توحيد الاقطاعات اللبنانية تحت إمرته وتأسيس دولة قوية تستطيع أن تنزع النير العثماني عن كاهلها وتتمتع بالاستقلال. لكن الأمير لم ينجح في تحالفه معه، لأن يوسف باشا لم يكن سهل المنال، ومن هنا نشأ صراع عنيف بينهما دام طويلاً تخلّلته المعارك الضارية.

لقد تمكّن الأمير بفضل تحالفاته هذه، العسكرية والسياسية، من أن يصون إمارته في وجه التدخلات الخارجية، لما سمح له بأن

ينطلق بجيشه وبمؤازرة هؤلاء الحلفاء، خارج حدود الإمارة متوسعاً شرقاً وجنوباً وشمالاً.

كانت تحالفات الأمير فخر الدين مع الأمراء الشهابيين، تحالفات ملؤها الأخلاق والفروسية والثقة المتبادلة. فقد رافقوه في كلّ حروبه ومعاركه، سواء ضد العثمانيين أو ضد ابن سيفا والحرافشة والقبائل العربية في فلسطين. وفي النهاية لقي امراؤهم المصير الأسود نفسه الذي لاقاه فخر الدين وأسرته في آخر معركة له العام ١٦٣٣. وباختصار كلي نقول: كان فخر الدين إذا سنحت الفرصة يشدّ المحالفة بأوصال القرابة. صاهر الأمير علي شهاب ويونس الحرفوش ومقدّمي أبي اللمع ويوسف سيفا ذاته. وبرهن لهم أنه أخلص الأقرباء وأوفى الحلفاء إلاّ إذا اشتمّ في حليفه رائحة الخيانة فيعرف كيف يستخدم القرابة لقتله.

٦٣ - تحالفاته الخارجية:

أ - المعاهدة الأولى (١٦٠٨):

كانت توسكانا ترغب، وبحرارة، في أن يكون لها موقع مميز في أسواق المشرق التجارية، لذلك راح أميرها فرديناند الأول يعمل جاهداً لتنفيذ ذلك. ففي السنة ١٦٠٢ حاول هذا الأمير أن يحلّ عملاءه في طرابلس ويفتح فيها سوقاً للمنتوجات التوسكانية، فذهبت جهوده عبثاً. وفي العام ١٦٠٥ أشار عليه رفائيل كاتشاماري البندقي والذي كان على اطلاع تام بالمشرق،[1] بأن الفرصة اليوم مؤاتية للاستيلاء على القدس وقبرص وسوريا، وما عليه إلاّ التحالف مع الأمير فخر الدين أمير لبنان، لأن الأمير يملك جيشاً من ١٢ إلى ٢٠ ألف مقاتل مدرّبين جيداً. وفي السنة ١٦٠٧، كان أول عهد الأمير في تعامله مع الغرب الأوروبي، إذ كان «مخايل حنا قريع» سفير دولة توسكانا، قد نجح في إقناع علي باشا جنبولاد، والي حلب وحليف فخر الدين، والثائر على الدولة العثمانية بعقد معاهدة حربية وتجارية مع فرديناند الأول. وتمّ عقد هذه المعاهدة في ٢ تشرين الأول من العام نفسه. وقد أرسل له العاهل التوسكاني سفينة محملة بالأسلحة والذخائر (ألف بندقية وكمية من الذخائر وعدد من المدافع)، وما أن أصبحت

(١) شبلي، ص ٢١.

هذه السفينة في عرض البحر حتى علم فرديناند بأن علي باشا خسر معركته مع السلطنة، فأمر سفيره ليونشيني باللحاق بها وتحويلها إلى ميناء صيدا، على أن يتصل قائدها والسفير المذكور بالأمير فخر الدين ويقدمان له محتوياتها ويحتفظان بالمدافع، ثمّ يفاوضان الأمير على عقد معاهدة مماثلة لتلك التي عقدت مع علي باشا جنبولاد، تلك المعاهدة الرامية إلى «كسر شوكة السلطنة العثمانية».

استقبل الأمير فخر الدين البعثة في قصره بصيدا وعقد لها جلسة علنية تحت ستار بيعها ثلاثة أسرى توسكانيين. وفي اليوم التالي اجتمع معها في جلسة سرية صارحها فيها بعزمه على مواصلة سياسة العداء للسلطنة العثمانية وبمقدرته على احتلال الشام والقدس.[1] وبغية تنفيذه ذلك وضع الأمير شروطاً للقبول بها أهمها:

١ - أن يوضع في تصرّفه خبير في صبّ المدافع مع المواد الضرورية لصنع عشرة منها أو اثني عشر.

٢ - أن تبذل الجهود لإطلاق سراح الفلورنسيين الثلاثة من يد مراد باشا الصدر الأعظم لمعرفتهم تمام المعرفة بقلاعه.

٣ - أن يأتي له من بابا روما ببراءة يأمر فيها موارنة لبنان بأن يقفوا إلى جانبه في الحروب المقبلة.

٤ - أن يضع في ميناء صيدا مركبين تحت تصرّفه ليستخدمهما في تبادل الرسائل والبعثات وتهريب خزنته عند الحاجة إلى توسكانا.

٥ - أن يزوّده بتذكرة مرور يتسنى له بواسطتها الانتقال والدخول إلى توسكانا إذا اضطره الأمر.

تجاه هذا الواقع وضع العاهل التوسكاني، في تصرّف الأمير قسماً من أسطوله، واستحصل له من الفاتيكان على براءة تسمح لموارنة لبنان بالدخول في جيش الأمير والمحاربة تحت لوائه. وقد جنّد فخر الدين حوالى ثلاثين ألفاً من الرجال في جيش منظّم،[2] الأمر الذي أثار مخاوف الباب العالي في السلطنة العثمانية.

(١) قرألي، ص ١٤٧.

(٢) قرألي، ص ١٤٨.

لكن هذه المعاهدة لم ترَ النور قطعاً، فلا الأمير احتلّ القدس ودمشق ولا الدولة التوسكانية وحلفاؤها نفذوا التزامهم. بل بعكس ذلك، اكتشفت السلطنة أمر هذه المعاهدة عن طريق التجار الإنكليز المقيمين بصيدا، فجردت على الأمير حملة انتهت به لاجئاً في توسكانا السنة ١٩١٣.

أثناء إقامة الأمير في توسكانا رفض عرضاً من ملك اسبانيا باعتناق الدين المسيحي على أن يعطى، لقاء ذلك، بلاداً شاسعة يكون هو حاكمها المطلق. تجاه هذا الرفض أخذت حكومة توسكانا تضيّق عليه، فأهملته ولم تعد تعطيه ما يكفيه ويكفي أسرته وحاشيته[1] وراح الأمير يبيع «صيغة وحوايج ويخرج على نفسه وعياله».[1]

ب - المعاهدة الثانية (١٦٣٣):

يقول الأب قرألي بأن المجتمع المقدّس قد طلب إلى بطريرك الموارنة يوحنا مخلوف، تجهيز اثني عشر تلميذاً إلى المدرسة المارونية في روما، فكلف البطريرك المذكور، الخوري يوحنا الحصروني، أحد خريجي المدرسة نفسها، مرافقة هؤلاء الأحداث. ففي ٢٥ تشرين الأول ١٦٢٤، مرّ الخوري يوحنا ببيروت، وقابل سراً الأمير فخر الدين الذي أرسل معه كتاباً إلى البابا اوربانوس الثامن، يحثّه فيه على السعي وراء مشروع الحملة على الأراضي المقدّسة في فلسطين. وفي السنة ١٦٣٣، وعندما أحدق الخطر بالأمير فخر الدين، عاد ليعرض من جديد مشروعه على توسكانا وروما، مشركاً إياهما في الفوائد السياسية والدينية، بحيث إذا نجحت الحملة «يصبح شقيق البابا اوربانوس الثامن تادي بربرين، أميراً على قبرص، وأن يتوّج أمير توسكانا ملكاً على القدس، ووعد الأمير بأن يجاهر «بنصرانية» ويعمّد أسرته وذويه «ويحمل جميع رعاياه وحلفائه على الاقتداء به».[2] ويتضمّن المشروع بنوداً أهمها وأخطرها.[2]

(١) الخالدي، مرجع سابق، ص ٢٣٥.
(٢) قرألي، ص ٣٤٩.
- سويد، ص ١٨٠.

١ - يقدّم فخر الدين رجالاً ومؤونة للجيش القادم من اوروبا لاحتلال قبرص والقدس.

٢ - يعطي ثغراً أو أكثر من ثغور إمارته إلى الأسطول كي يلجأ إليه في فصل العواصف

٣ - يعد الأمير باحتلال القدس وتسليمها يداً بيد وتقديم كلّ ما يسعه تقديمه من المساعدات في مدّة هذا التحالف.

٤ - يعد بأن يسمح لجميع رعاياه باعتناق المذهب الكاثوليكي وأن يكون هو أول من يجاهر بنصرانية ويعمّد أسرته.

ولقاء هذه العهود التي قطعها الأمير على نفسه يأمل في تلبية مطالبه الآتية:

١ - أن يجهّز البابا وأمير توسكانا عمارة بحرية لا تقل عن خمسين مركباً لتحتل جزيرة قبرص.

٢ - أن يمداه ببعض المعدات الحربية والبارود والرصاص اللازمة له لمقاومة السلطنة.

٣ - أن يعاهداه على نجدته في أثناء الحرب، على الأقل بحراً. وهو يعاهدهما على إنجاد الجيش الأوروبي في زمن الحرب براً وبحراً وتقديم كلّ معونة مفيدة وضرورية له.[1] وفي رسالة صادرة عن روما بتاريخ ١٦٣٤/١١/١١ وموقّعة من أسقف نيقوسيا بقبرص المطران جرجس مارون وموجهة إلى الأمير فخر الدين، الذي كان قد أصبح أسيراً لدى العثمانيين منذ عشرة أشهر، يعرض المطران مارون على الأمير نتيجة مساعيه لدى الكردينال بربرين في صدد هذه المعاهدة، ويطمئنه إلى نجاح هذه المساعي.[2] ومن المحتمل جداً أن هذه الرسالة وردت رداً على استغاثة الأمير فخر الدين العام ١٦٣٣ عندما احدق الخطر به من قبل جيوش الدولة العلية. إن سياسة أمير توسكانا في إرضاء فخر الدين لم تكن سوى «وسيلة للوصول إلى مصالحه التجارية في سوريا».

---

(١) قرألي، ص ٣٥٥ - ٣٥١.

(٢) قرألي، ص ٢٥٣.

٦٤ - سياسة فخر الدين التحالفية داخلياً وخارجياً:

كان هدف الأمير فخر الدين توسيع إمارته والسيطرة على البلدان التي تحيط بهذه الإمارة في بلاد الشام، الأمر الذي أثار ضده عداوات كثيرة، داخلية وخارجية، أدت في نتيجة الأمر إلى القضاء عليه وعلى أهدافه. ومما لا شك فيه أن طموحه إلى التوسّع شرقاً أثار ضده آل حرفوش حكام البقاع وبعلبك. وطموحه شمالاً أثار ضده أمراء آل سيفا حكام طرابلس وعكار. وطموحه جنوباً أثار عليه عرب فلسطين. وفي نهاية الأمر كانت نتيجة هذه العداوات وخروج الأمير على إرادة السلطنية وأحكامها، أن نظرت إليه الدولة العثمانية نظرة غضب وريبة. لذلك رأى أن صموده في وجه السلطنة لا يمكن أن يأتي ثماره إلاّ إذا تعاون مع قوّة خارجية في إمكانها أن تقف معه في وجه الدولة العلية. لكن هذه القوة الخارجية - توسكانا - انشغلت بحرب البيامونت بين إسبانيا وفرنسا وبالطاعون الذي ضربها، إضافة إلى أنها لم تكن راغبة، على ما يبدو، في مواجهة الدولة العثمانية دفاعاً عن الأمير اللبناني. ويمكننا الاستنتاج أن كلاً من الحليفين لم يكن مؤمناً بهذا التحالف أو مطمئناً إليه، فلا الأمير كان مستعداً للتخلي عن سيادة بلاده أو تحرير القدس وتسليمها إلى اسبانيا أو التخلي عن دينه كما ذكرنا، ولا دولة توسكانا وغيرها كانت مستعدّة لأن تتورّط في حرب صعبة غير مضمونة النتائج إكراماً للأميرالمعني.

وهكذا، وفي العام ١٦٣٣، هاجمت الدولة العثمانية بلاد الأمير فخر الدين فانهارت كلّ تحالفاته المحلية والخارجية وانفضّ حلفاؤه الأقربون عنه ولم ينجده حلفاؤه الغربيون. ويقال إن الأمير أرسل في هذه السنة المدعو «بطرس لوجيده» من مرسيليا إلى توسكانا لاعلام البلاط بحاله المزرية، وليطلب من أميرها مساعدته، أو أن يرسل له سفينة واحدة، ليبحر عليها مع عائلته وأولاده، ولكن طلبه لم يلقَ آذاناً صاغية فترك لقدره.[١]

(١) قرألي، ص ٣٤٣ - ٣٤٦.

انتهت الحملة العسكرية العثمانية، بقيادة أحمد كوجك باشا، باستسلام الأمير، فأرسل مع أولاده إلى اسطنبول حيث قتلوا جميعاً ما عدا الابن الأصغر حسين، الذي أصبح في ما بعد موظفاً في الخارجية العثمانية. وهكذا انتهت بانتهاء فخر الدين، كلّ آمال الدولة المعنية وطموحاتها.

لقد كان الأمير طموحاً، مهاباً، منفتحاً على كلّ الأديان والمجتمعات، شجاعاً إلى حدّ المغامرة، مقداماً إلى درجة التهوّر أحياناً. إنما كان إدارياً وسياسياً بارعاً وقديراً، ذكياً نشطاً، حاد البصر والبصيرة. لقد كان سابقاً عصره.

الباب الثاني

حروب ومعارك
الأمير فخر الدين المعني الثاني
(١٥٩٠ - ١٦٣٥)

الفصل السادس
جيش الأمير فخر الدين الثاني المعني

١ – التنظيم العسكري

لمّا كان طموح الأمير فخر الدين السياسي كبيراً. كان من الطبيعي جداً أن يهتمّ بإنشاء جيش قوي يستعمله لتحقيق هذا الطموح المتنامي. لذلك نمّى قواته المسلّحة وطوّرها وعزّزها بالأسلحة حتى أصبحت الأقوى والأكثر تنظيماً في بلاد الشام.(١) لقد بثّ فخر الدين الروح الوطنية اللبنانية في جيشه وإمارته وكان التضامن والتآخي بين أفراد جيشه سر القوّة. لم يفرّق الأمير بين رعاياه، فقد نادى بالحرية الدينية والمساواة المدنية والاخاء. «فالمسيحي يحارب بجانب الدرزي والشيعي والسني والملكي، مازجاً دماءه بدمائهم دفاعاً عن الوطن، الذي أصبح للجميع».(٢) لقد مثّل فخر الدين دوراً كبيراً في منطقة بلاد الشام بفضل قوّته العسكرية المتطوّرة.

كان جيش الأمير مؤلّفاً من فئات ثلاث:

- جيش الإقطاع.
- جيش المرتزقة.
- الجيوش الحليفة، الدائمة والظرفية.

---

(١) Touma, Toufic - Paysans et institutions féodales au Liban, université Libanaise 1971, Beyrouth, P 49.

(٢) قرألي، ص ٦٩.

١١ - جيش الاقطاع:

كان جيش الإقطاع جيشاً وطنياً، مؤلّفاً من اللبنانيين القادرين على حمل السلاح في إمارة الشوف وفي باقي المقاطعات التي كانت تحت سيطرة الأمير المعني. وقد تطوّع فيه عناصر من كلّ الطوائف والمذاهب. وربما كانت إمارة فخر الدين هي الوحيدة في أرجاء السلطنة العثمانية التي تقبل هذا النوع من العلمانية في تكوين الجيوش في ذلك الحين.

لقد اتبع هذا الجيش، في مجالات التنظيم والتجنيد والتعبئة واللوجستية الطرق نفسها التي كانت تتبعها الجيوش الاقطاعية في ذلك الزمن. وعند وقوع الحرب، كان الأمر يُعطى للمقاطعجية الموالين للأمير، وهؤلاء بدورهم يبادرون، بعد المناداة للتعبئة العامة، بجمع الرجال القادرين على حمل السلاح والمسجّلين في أيام السلم في سجل خاص لدى المقاطعجي، من الأهالي والفلاحين في المقاطعة. فيتقدّم الخيالة والمشاة، وهم مجهزون بخيلهم وسلاحهم وزادهم إلى النقاط المحدّدة على الأرض، يقودهم رؤوساؤهم الأمراء والمقدمون والمشايخ، حيث يتم التئام الجيش بكامله. كانت القيادة العامة لهذا الجيش للأمير نفسه أو لأخيه يونس أو لابنه الأمير علي.[١] أما الرؤوساء المقاطعجية فيخضعون اثناء المعركة لأوامر القيادة العامة.

بعد انتهاء المعركة يتفرّق هذا الجيش ويعود المقاتلون إلى بيوتهم وأرزاقهم لمتابعة أعمالهم اليومية كالمعتاد، في انتظار معركة أخرى يفرضها أمير البلاد أو تفرض عليه. وكان لدى الأمير سجلات خاصة بأسماء المقاتلين وصفاتهم واختصاصهم وذلك لمراقبة عملية التعبئة العامة أو الجزئية.[٢]

١٢ - جيش المرتزقة (السكمان):

كان الأمير فخر الدين، كغيره من الأمراء المجاورين، يستأجر جنوداً يهمهم جمع المال والحصول على المغانم والاعطيات وكان هؤلاء جنوداً محترفين يؤجّرون خدماتهم لمن

(١) قرألي، ص ٦٩.

(٢) سويد، ج ١، ص ٢٠١.

يدفع أكثر، يعتاشون من الحرب ويعرفون كلّ أسرار الشرق وكلّ ميادين القتال فيه. وكانوا قساة، شديدي المراس، يقاتلون بشراسة وعناد وبأس.

كان جيش المرتزقة الجيش النظامي الدائم الذي كان يشكّل نواة القوّة العسكرية للأمير. وكان تنظيمه مماثلاً لتنظيم الجيش الانكشاري في الدولة العثمانية ضمن وحدات تسمى أورطة، ويراوح عديد كلّ منها ما بين سرية وكتيبة. وكانت مهمة هذا الجيش حفظ الحدود والأمن وحراسة القلاع والحصون، وكان لهم الفضل الأول في صمود قلعة الشقيف طيلة شهرين كاملين في وجه والي الشام السنة ١٦١٣، وفي أثناء غياب الأمير في توسكانة.

وقد استعمل الأمير مرتزقة أجانب آخرين من الفرنجة والخبراء الاوروبيين، يعتمدهم في تدريب الجند على استعمال الأسلحة، وخاصة المدافع، وفي أعمال الدفاع عن الحصون والقلاع.[١]

كان إخلاص هؤلاء المرتزقة متوقفاً على إخلاص قوادهم، وكثيراً ما كانت الخيانة أساس عملهم، وأحياناً كانوا يرفضون الأوامر ويقتتلون في ما بينهم كما فعلوا في نكبة الأمير الأخيرة حيث فروا من الجيش ولم يبق معه سوى الجيش الوطني.[٢]

١٣ - الجيوش الحليفة:

كان الأمير في حملاته الكبيرة يستنجد بحلفائه في المقاطعات المجاورة لإمارته، وكان هؤلاء الحلفاء نوعين:

- **حلفاء دائمين:** وهم أمراء بيت شهاب السنيين في وادي التيم والأمراء الارسلانيون في الغرب والأمراء اللمعيون في المتن ومشايخ بيت الخازن في كسروان وعلي باشا جنبلاط والي حلب (سقط السنة ١٦٠٧).
- **حلفاء ظرفيين:** وهم الذين كانوا يحالفون الأمير أحياناً ويخاصمونه أحياناً أخرى وفقاً لمصالحهم، ومنهم: الأمراء آل

(١) قرألي، ص ٧١.

(٢) قرألي، ص ٧٢.

حرفوش في البقاع وحكام جبل عامل في سنجقية صفد ومشايخ حوران من عرب المفارجة وأمراء عجلون من آل قانصوه.

١٤ - قيادات الجيوش:

- كان جيش الاقطاع يسير إلى القتال في تنظيمات عائلية مستقلّة كلّ منها عن الأخرى. فتحارب كلّ فرقة «تحت قيادة أمرائها ومقدميها ومشايخها، ويخضع هؤلاء لأوامر القيادة العامة التي يتولاها الأمير بنفسه أو يوليها لأخيه يونس أو ابنه علي». وكانت الراية راية الحزب القيسي الذي يتزعّمه الأمير فخر الدين نفسه.

- وفي جيش المرتزقة يختلف التنظيم عن تنظيم جيش الإقطاع، إذ كان على رأس كلّ وحدة، أو أورطة، ضابط تختلف رتبته باختلاف عديد الوحدة وقوّتها: فهناك السردار قائد الألف، والبلوكباشي قائد المئة. ومن أشهرهم كان السردار حسين اليازجي في قلعة بانياس ومعه عشرة بلوكباشية والبلوكباشي طويل وحسين في قلعة الشقيف ومعه خمسة بلوكباشية.

- وأشهر قادة هذا الجيش هو الحاج كيوان الذي له الفضل الأول في تنظيم جند السكمان عند الأمير نكاية بانكشارية الشام وقد ظلّ في خدمة الأمير حتى قتله هذا الأخير بيده في معركة عنجر العام ١٦٢٣.

- أما الجيوش الحليفة فكان وضعها من حيث القيادة والامرة كوضع جيش الإقطاع.

٢ - تنظيم الجيش

لم تعرف التنظيمات العسكرية في إمارة فخر الدين سوى ثلاثة أسلحة رئيسية هي:

- المشاة.
- الخيالة.
- المدفعية.

أما بقية الأسلحة فلم يكن لها وجود تقريباً، وخاصة اللوجستية العملانية.

٢١ - المشاة:

كان جيش الأمير في معظمه يتألّف من المقاتلين المشاة، وكانوا يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال. يمشون وراء العلم القيسي بلا

ترتيب ويحاربون بلا نظام، لكنهم كانوا ذوي شجاعة وشدّة بأس وبسالة في الحرب. وكانوا ينتظمون في جماعات عائلية وطائفية متحدة تقاتل جميعها جنباً إلى جنب تحت راية الأمير القيسية.[1] «كان جيش الأمير منضبطاً يقاتل ببسالة... يصمد في وجه مايتي الف تركي... وكان الأمير مهاباً دون الاستعانة بقوات السلاطين... وأبناء الأمير مدربون تدريباً ممتازاً على السلاح والصيد الشاق... ولا تعوزهم المهارة والشجاعة والقوة».[2]

في السنة ١٥٩٨ عيّن فخر الدين، الشيخ رباح الخازن قائداً للمشاة. فالمشاة في هذا الجيش، كانوا يلبسون خفيفاً ويحملون البنادق والسيوف العريضة النصال... وكانوا يجهلون الفنون الحربية، لكن الخبرة أعطتهم الكثير من اللياقة وحسّ القتال. وبالرغم من قلّة أسلحتهم، كانوا يتغلّبون على جيوش تفوقهم عدداً وعدّة... وإذا عسكروا لا يحفرون الخنادق ولا ينشرون خيمة أو شيئاً آخر يقيهم لفحات الشمس المحرقة أو البرد وهطول الأمطار. كان الأمير يعرف كيف يرتّب رجاله في ميدان القتال ويعيّن لهم المراكز الملائمة ويستعمل المفاجأة ليضرب ضربته القاضية في المكان والزمان المناسبين. وقد سطعت مواهب الأمير الحربية في موقعة عنجر حين تغلّب بأربعة آلاف مقاتل على جيش والي الشام المؤلّف من اثني عشر ألفاً وفي مقدمتهم انكشارية الشام المشهورين بشجاعتهم.[3]

٢٢ - الخيالة:

يقول الأب قرألي عن لسان «سانتي» الذي يصف في تقريره خيالة الأمير: «أما الفارس فيلبس ثقيلاً، يلتحف بجبة واسعة ويحمل البندقية ذات القداحة، لأن ليس لديهم غيرها، أما بارودة هندية طول قصبتها ستة اقدام، خفيفة ومتينة. وفي رأسها سن

---

(١) قرألي، ص ٧٤.

- سويد، جزء ١، ص ٢٠٤.

(٢) سويد، ج ١، ص ٢٠٤.

(٣) قرألي، ص ٧٥ - ٧٦.

من حديد، يعلق السيف في جنبه والدبوس في السرج ويمسك ترساً يقيه الضربات. يمتطون الجياد العربية الغالية الثمن، الصبورة على التعب وذات السرعة المدهشة، ومع أن طعامها العشب لا غير وحفنة من الشعير فهي تعمل النهار كلّه بلا كلل ولا ملل. يسيرون جماعات بلا بوق ويحاربون أفراداً بين كرّ وفر. والأمر كلّه يتوقف على سرعة الحصان وخفة جرية وحراكياته...».[1] وكانت خيالة الأمير خليطاً من السكمان والأعراب واللاوند - وهو عسكر كانت مملكة البندقية تستعمله قديماً وأهل البلاد أيضاً.

ويرى بعض المؤرّخين أن الأمير فخر الدين قد عيّن الشيخ أبا نادر الخازن قائداً للخيالة. ويظهر أن ذلك كان في السنين الأخيرة من حكم الأمير، ويؤكّد NANTET بقوله «إنه كان على رأس جيش الأمير استراتيجي جيد هو أخوه الأمير يونس، بينما سلّم الأمير في أواخر حكمه قيادة الخيالة إلى أبي نادر الخازن».[2] ويقول الخالدي في كتابه «لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني: في أواخر حكمه عين الأمير أبا نادر الخازن قائداً للخيالة، وأنه كان قد قرّر العام ١٦٢٤ التوجّه إلى سنجق عجلون ونابلس لخلع متسلّمه، فاختار جميع الخيالة وجعلهم قسمين: خيالة السمكانية معه، وخيالة أولاد العرب مع الأمير أحمد الشهابي وابن أخيه الأمير محمد» بينما ترك كلّ مشاة السكمانية والأولاد العرب مع ابنه الأمير علي.

٢٣ - المدفعية:

لم يكن عند الأمير وحدات مدفعية وطنية، إنما كان يستورد المدافع من اوروبا. «فلم يألُ جهداً عن تجهيز جيشه وقلاعه بأحدث الأسلحة واستجلاب الخبراء الاوروبيين لتنظيمه وتدريبه وكان يبتاع بأغلى الأسعار، الأسرى الاوروبيين الخبيرين ويغدق عليهم الرواتب الكبيرة ويعاملهم

(١) قرألي، ص ٧٤ - ٧٥.
(٢) الخالدي، ص ١٨٣.
- سويد، جزء ١، ص ٢٠٦.

أحسن معاملة».[1] وقبل سفر الأمير إلى توسكانا، أرسل إلى قلعة الشقيف ١٨ أسيراً فرنسياً «ماهرين باستخدام المدافع» وقد أداروها بمهارة مدهشة وأنزلوا بالعدو خسائر فادحة. وكان الأمير يلح على أمراء توسكانا، أصدقائه لأن يزوّدوه الخبراء في تركيب المدافع واستخدامها، كما كان يبتاع منهم بسخاء، الأسلحة وخاصة المدافع. وكانوا يقدمون له بدورهم قطعاً من المدفعية كهدية. وقد زوّده أمير توسكانا السنة ١٦١٨ «بخبراء ومهندسين ونجّارين لعمل عجلات المدافع... فضلاً عن خمس قطع مدفعية لتسليح القلاع ورجال ماهرين بإدارتها».[2] وروى الخالدي أن أحمد حافظ باشا استجلب السنة ١٦١٣ من قلعة الأمير في صيدا مدفعاً «كبره خارج عن الفهم ونصبه أمام قلعة الشقيف، فداخل من في القلعة الوهم... وفي حال وصوله ضربوا به مرتين وانغرز».[2] مع العلم أن عدد المدافع السنة ١٦١٨، في قلعة الشقيف كان يربو على العشرة.[2]

عند وصول الأمير إلى توسكانا طلب من أميرها أن يرسل إلى «ذويه خمسين أو ستين قنطاراً من البارود، وما يلزمها من الرصاص، وأربعة أو خمسة مدافع يسع كلّ منها قنابل وزنها من ١٢ إلى ١٥ ليبرة». وقد أعطي الأمير ما طلبه علاوة على ايفاد عشرة رجال ماهرين باستعمال المدافع وصنع العجلات وكلّ لوازم المدفعية.[3]

في السنة ١٦٣١ بعث أمير توسكانا كمية من ذخيرة المدافع، سرّ بها الأمير كثيراً وطلب من المندوب التوسكاني عند عودته إلى اوروبا، أن يشتري له «كمية وافرة من الأسلحة للمشاة وللخيالة، وقارباً لاتينياً مع بحارته، وأن يرسل له مهندسين يجيدون بناء القلاع وترميمها».[2] وقد أفاد الأمير من البارود الذي أرسل له من اوروبا، في حملته على عرب فلسطين السنة ١٦٣٢.

(١) قرألي، ص ٧٦.

(٢) قرألي، ص ٧٧.

(٣) سويد، ص ٢٠٦.

٢٤ - الهندسة:

اعتمد فخر الدين في جيشه، على المهندسين التوسكانيين الذين استقدمهم للاشراف على تحصين وترميم قلاعه وحصونه المنتشرة في ربوع الإمارة عند الممرات الإجبارية، وكذلك في شق الطرق وبناء الجسور لتأمين الاتصال في ما بينها، وقد أرسل أمير توسكانا إلى فخر الدين «عدداً كبيراً من الألغام والبلغامين والمهندسين والفنيين»(١) وكلّ هؤلاء كان همهم تجهيز القلاع بكلّ ما يجعلها قادرة على الصمود طويلاً. وفي العام ١٦٣١، وصلت إلى الأمير من توسكانا هدية مؤلّفة من الفي قنبلة وما يلزمها من البارود والمفرقعات ونيران اصطناعية(٢) كما وصل صانع للمتفجّرات يدعى غبريال بيتارديارو.

٢٥ - الإشارة:

انشأ فخر الدين الدوريات واستعمل الحمام الزاجل لنقل الرسائل من وإلى القلاع والحصون في طول الإمارة وعرضها. واستعمل الجواسيس ليتجسّسوا له في الخارج.(٣) وكانت العادة المتبعة آنذاك في المشرق، في حال إعلان الحرب، أن يجتمع الأمير والأعيان ويقرّروا ما يلزم، ثمّ يحمل امر التعبئة هذا من قبل رسل يتوجّهون إلى كلّ القرى والدساكر ليدعوا رجالها إلى التجمّع مسلّحين في مكان معيّن يدعى نقطة التجمّع. والطريقة المتبعة كانت بأن يصعد المنادون مساءًا إلى قمم الجبال أو إلى الماذن أو إلى قبب الكنائس وينادوا «يا سامعين الصوت صلّوا على المسيح أو على النبي...» ثمّ يتلون نداء الأمير أو الأعيان للتجمّع في النقاط المحدّدة. وكان هذا النداء ينتقل من قريه إلى أخرى في ساعات قلائل حتى يصل إلى آخر تخوم الإمارة. إلى جانب كلّ هذا، كانت الوسيلة الأساسية للاتصال «المناور» أو «المنارات» التي من أصلها انشئت الأبراج أساساً. وهي كناية عن نار توقد في الأبراج المتسلسلة على قمم الجبال، للتحذير من

(١) سويد، ص ٢٠٦.

(٢) قرألي، ص ٧٧ - ٧٨.

(٣) حتي، ص ٤٥٦.

هجوم عدو أو لإيصال إشارة ما. في ظلمة الليل كانت توقد النار، ونهاراً كان الدخان المتصاعد. أنها إشارات سريعة وأكيدة، بالإضافة إلى سعاة البريد ودوريات الاتصال.

٣ – التجهيز والتموين (اللوجستية)

٣١ - اللباس:

لم يكن لجيش الإقطاع لباس موحّد، كما نعرفه اليوم في الجيوش النظامية، بل كان كلّ جندي يرتدي اللباس الذي يريد. وقد ذكر «سانتي» في أحد تقاريره أن المشاة كانوا يرتدون البسة خفيفة تسمح لهم بالتحرّك والقتال، أما الخيالة فكانوا يرتدون «الجبّات – البرانس» الواسعة التي تغطي سرج الحصان ومعظم أجزاء السيف. أما السكمان فكانوا يرتدون قمصاناً فوقها غلالات "Tuniques" أو دلامات "Dolmans" ويلفّون عمامات من القماش الأبيض المشوب بالصفرة. وكانت هذه الألبسة توزّع لهم مجاناً.[١]

٣٢ - السلاح:

كان سلاح المشاة في الجيش الأميري يتألّف من: البنادق والسيوف العريضة النصال والمسدّسات والفؤوس. أما سلاح الخيالة فكان البندقية القداحة والبندقية الهندية المزوّدة في رأسها بحربة صغيرة من الحديد، والسيف والترس والدبوس، وكان المقاتل يقتني السلاح من ماله الخاص، أما الذخيرة على مختلف أنواعها وعياراتها فكانت توزّع على حساب الأمير. وأما السكمان فكانوا يتسلّحون ببنادق خفيفة (Carabines) وبنادق قداحة (Arquebuses) وبنادق قصيرة (Mousquets). وكانت بحوزتهم الكميات اللازمة من الفتيل وعلب البارود والخرطوش وباقي التجهيزات اللازمة لحشو البنادق وإطلاق النار.

٣٣ – التغذية:

بما أن جيش الاقطاع أو جيش الإمارة كان جيشاً ظرفياً يجتمع للقتال عند الحاجة، ثمّ

---

(١) سويد، ص ٢١١.

يفرق بعد انتهاء المعركة، فإن كلّ مقاتل كان يحمل معه تغذية لمدّة ثلاثة أو أربعة أيام باعتبار أن المعركة لم تكن تستمرّ أكثر من هذه المدّة، أما إذا استمرّت لأكثر فتكون التغذية على حساب الأمير. وكانت هذه التغذية توضع في كيس يشدّه المقاتل إلى وسطه. وكانت لدى الأمير مخازن خاصة في صيدا وبيروت لخزن مختلف أنواع الأسلحة والذخيرة التي كان يستوردها من فرنسا. وفي السنة ١٦١٨، شيّد الأمير مخزناً كبيراً في دير القمر لخزن خرج الجند.[1] وقد استقدم الأمير من توسكانا خبّازاً لصنع البسكويت اللازم لجنوده. أما السكمان فكانوا يزوّدون بالمواد الغذائية الأساسية كاللحم والأرز والخبز والزبدة والخضار لتطبخ في مطابخ الوحدات، هذه المطابخ التي كان يشرف على كلّ منها قائد الوحدة شخصياً، كما في أيامنا الحاضرة في الجيوش النظامية. وكانت تضاعف حصة المقاتل من هذه المواد أثناء القتال. وكانت تقدّم للجنود القهوة صباحاً ووجبات من الشعير لخيولهم. أما حاميات القلاع فقد كان الأمير يؤمّن لها كلّ ما تحتاجه من سلاح وذخيرة وغذاء وماء لمدّة طويلة، لأن القلاع كانت عرضة للحصار على الدوام. ويقول الخالدي أن فخر الدين زوّد قلعتي بانياس والشقيف بالرصاص والبارود ما يكفي رجالها لمدّة خمس سنين ووضع فيها برسم علوفات السمكانيةماية ألف غرش.

٣٤ - الرواتب:

لم يتقاضى مقاتلو الجيش الوطني أي رواتب باعتبار أنهم مواطنون يقع على عاتقهم عبء الدفاع عن الإمارة والقيام بالمهمات العسكرية التي يطلبها منهم أمراؤهم وأصحاب الاقطاعات التي ينتمون إليها. وكان الاقطاعي يقدّم أثناء الحملات العسكرية والحروب العدد المطلوب منه من المقاتلين ويراقب الأمير تنفيذ ذلك استناداً إلى سجلات لديه مبوبة ومنظّمة يومياً.

أما السكمان، فكانوا يتقاضون رواتبهم من الأمير، وكذلك الخبراء العسكريون

---

(١) مزهر، يوسف، تاريخ لبنان العام - ج ١، ص ٣٥١.

الأجانب والاسرى الذين كان الأمير يستخدمهم في استعمال بعض الأسلحة وخاصة المدفعية. بالإضافة إلى الرواتب كان الأمير يخصّص المقاتلين السكمان بقسم من غنائم المعارك. ويقال إن أكبر نفقة تكبدها الأمير كانت السنة ١٦١٤، نتيجة لإبقائه ألفاً وخمسماية مقاتل من المشاة ومئة وخمسين فارساً براتب ثلاثة سكوت في الشهر وكان الأمير يعطي كلّ فارس حصاناً وخادماً يسوسه ويقدّم الطعام اليومي لهم ولعائلاتهم ولاسيما حراس القلاع. أما رواتب القواد فباهظة وتبلغ النفقة ثمانين ألف غرش سنوياً.(١)

وكان الأمير يدفع غالياً رواتب الخبراء الأجانب، فالخباز بوتشي الايطالي الذي كان يصنع البسكويت كان يتقاضى ١٠ سكوت شهرياً والطبيب نالري مع خادمه ١٢٠٠ سكوت سنوياً والمهندس والنحات تشوّلي الخبير في بناء الجسور والتحصينات ٤٠ سكوت شهرياً كلّ هذا ما عدا نفقات السفر وتأمين السكن والطعام.(٢)

(١) قرألي، ص ٦٦.

(٢) قرألي، ص ٣١٢.

الفصل السابع

الجهاز الدفاعي في إمارة فخر الدين

لم يكن الأمير فخر الدين يتبع في قتاله تكتيكاً عسكرياً معيناً، ولم تكن تشكيلات القتال العصرية معروفة عنده، وإنما كان يتمتع بنظرة عسكرية لامعة تتيح له تحديد وضعه في المعركة وإتخاذ المبادرة اللازمة لاعتماد الموقف المناسب لربحها.

١ - القلاع

تسلّم الأمير فخر الدين إمارته العام ١٥٩٠ في مواجهة ثلاث قوى لا يستهان بها: وقوّة الأسطول العثماني في المتوسّط، وقوّة والي الشام في دمشق. وقوّة الأمير يوسف بن سيفا في الشمال، عدا عن أمراء العرب في فلسطين. لقد كانت الإمارة محاطة بالاعداء وكان على الأمير أن يدافع عنها عسكرياً وذلك بالوسائل التقليدية المتّبعة آنذاك وهي «دفاع القلاع والحصون». كانت فكرة الأمير الثابتة والتي اعتمدها طيلة مدّة حكمه، تحصين هذه الحصون والقلاع بالأسلحة والرجال اللازمين وبعدد كبير من المدافع المستوردة من أوروبا، ومن توسكانا بالضبط. وكانت قلاع الأمير وحصونه تحيط بإمارته إحاطة السوار بالمعصم: فمن ناحية السواحل البحرية، كانت قلاع صيدا وصور والمسيلحة في البترون وقلعة طرابلس، وفي الداخل كانت قلاع الشقيف وبانياس ونيحا البقاع وقب الياس وغيرها. وكان الأمير كلّما استولى على أرض أو مقاطعة جديدة، يضع يده على ما فيها من حصون

وقلاع فيرمّمها ويجهّزها بالمدافع والأسلحة اللازمة، حتى أنه كثيراً ما كان يبني منها حاجته وفق فكرة المناورة الدفاعية التي اعتمدها للدفاع عن إمارته الموسّعة بالرغم من ممانعة الباب العالي المستترة حيناً والظاهرة حيناً آخر.[1] «وعندما تلقى من السلطنة السنة ١٦٢٤ لقب «سلطان البر» الذي خوّله السلطة على بلاد عربستان قصد على رأس جيش لتفقد ولايته، فمرّ بحمص وحماه واخترق برية سوريا وبلغ دجلة والفرات، وعاد إلى حلب فانطاكية فدمشق فحوران ومنها إلى فلسطين، مرمّماً القلاع ومجهّزها برجاله، محصّلاً الأموال الأميرية من مدنها وعشائرها، منظماً أحوالها، قاطعاً دابر الشقاوة واللصوصية فيها».[1] لقد استولى الأمير على جبال النصيرية واستولى على قلعة صهيون الشهيرة في بلاد العلويين فضلاً عن قلعة تدمر في سوريا الوسطى. في السنة ١٦٢٨ كتب فخر الدين إلى أمير صقلية «إن سألتم عن أحوال البلاد بتاع الاتراك فإن في يدنا بلاد كثيرة وأخذنا منهم حصارات كثيرة وقلع كثيرة...».[1]

لقد اعتمد فخر الدين بصورة خاصة، للدفاع عن بلاده، وطيلة مدّة حكمه، على القلاع الثلاث الشهيرة في تاريخه: نيحا وشقيف ارنون وبانياس، فخصّها بعنايته، وظلّ يحصّنها باستمرار ويزوّدها بالأسلحة والمدافع والرجال والمعدات حتى دخل عدد المدافع في قلعة الشقيف إلى عشرة بين كبير وصغير، وذلك أثناء وجوده في توسكانا بين ١٦١٣ - ١٦١٨. ويقال ان قلاع الأمير قد عصت فعلاً على الدولة العلية وخاصة قلعتا الشقيف وبانياس، اللتان كانتا أمنع من أن تصل إليهما جيوش الوالي أو السلطان.[2]

ويظهر أن شهوة التوسع عند الأمير ازدادت بعد عودته من توسكانا السنة ١٦١٨، فراح يهاجم المقاطعات المتاخمة للإمارة ويلتهمها مستولياً على المراكز المنيعة والقلاع فيها - سلماً برضى السلطان أو حرباً

(١) قرألي، ص ٨٠.

(٢) كرد علي، ج٢، ص ٢٦٤.

- سويد، ج ١، ص ٢٤١.

- فيحصّنها ويزوّدها بما تحتاجه من المؤن والذخائر والسلاح والمدافع، وهو يردّد عبارته الشهيرة: «كلّما تملكنا بلاداً نتقوّى برجالها وأموالها وننتقل إلى غيرها...».

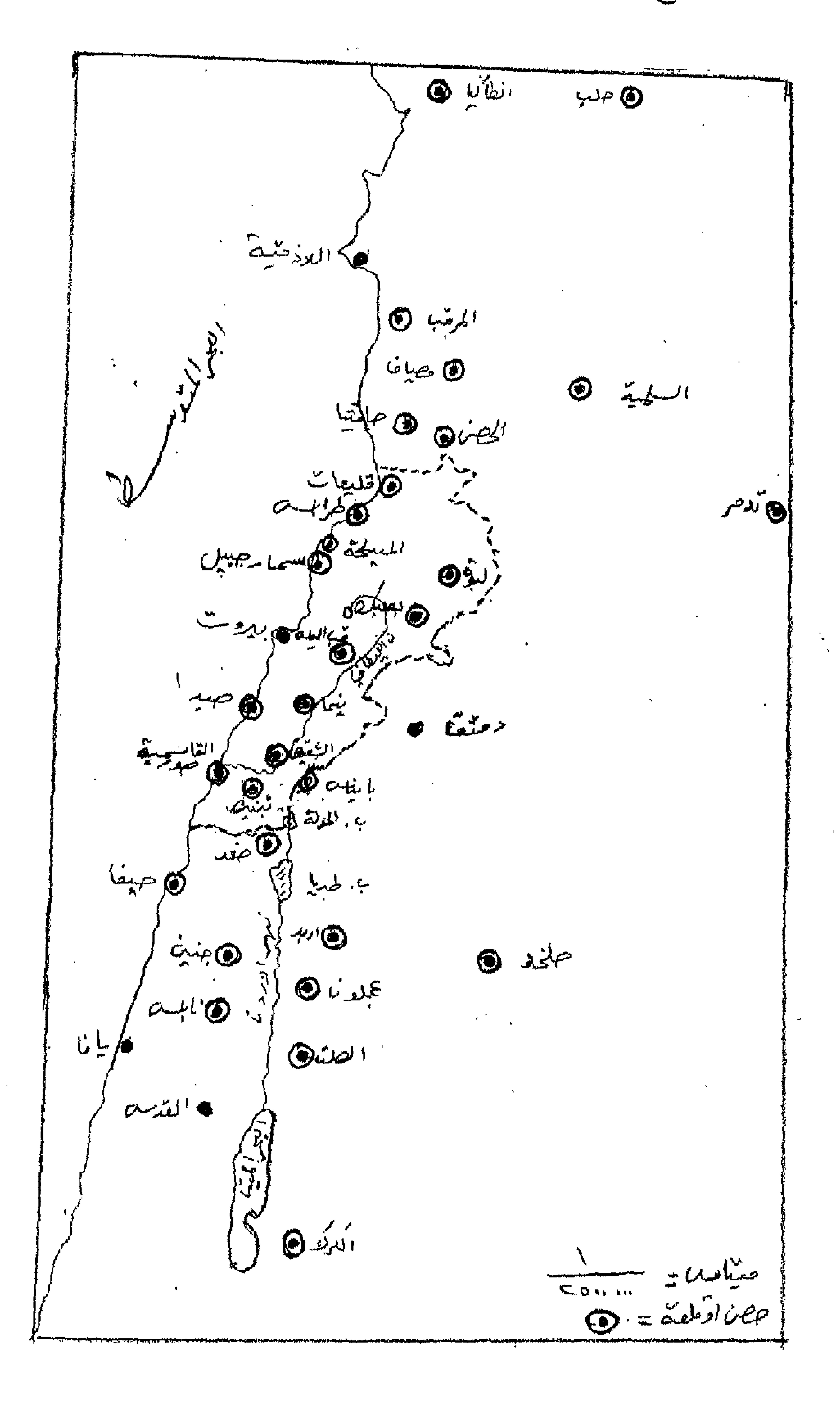
العام ١٦١٧، انتزع من يوسف سيفا قلعتي جبيل وسمرجبيل بلا قتال، فجهّز الثانية بالرجال والأسلحة وهدم الأولى. وفي العام ١٦٢٢ استولى على حصون عجلون وكرك الشوبك وصفد وجنين والسلط وحيفا. ثمّ استردّ قلعة قب الياس من الأمير حسين الحرفوش. وبعد انتصاره في وقعة عنجر على مصطفى باشا والي الشام في السنة ١٦٢٣، أكد له الوالي المذكور حكمه على سنجقيات صفد وعجلون ونابلس ومنحه مقاطعة غزّة وولاية البقاع وسنجقية الجون، وفوراً حاصر الأمير فخر الدين جند الأمير يونس الحرفوش في قلعة بعلبك وانتزعها منه عنوة. وفي العام ١٦٢٤ رمّمها وجهزها بما يلزم من المؤن والسلاح والجند يكفي لردّ هجوم محتمل يقوم به والي الشام.[1] وفي هذا العام استولى الأمير أيضاً على حصن اللبوة الذي يحمي مدخل البقاع من الجهة الشمالية.

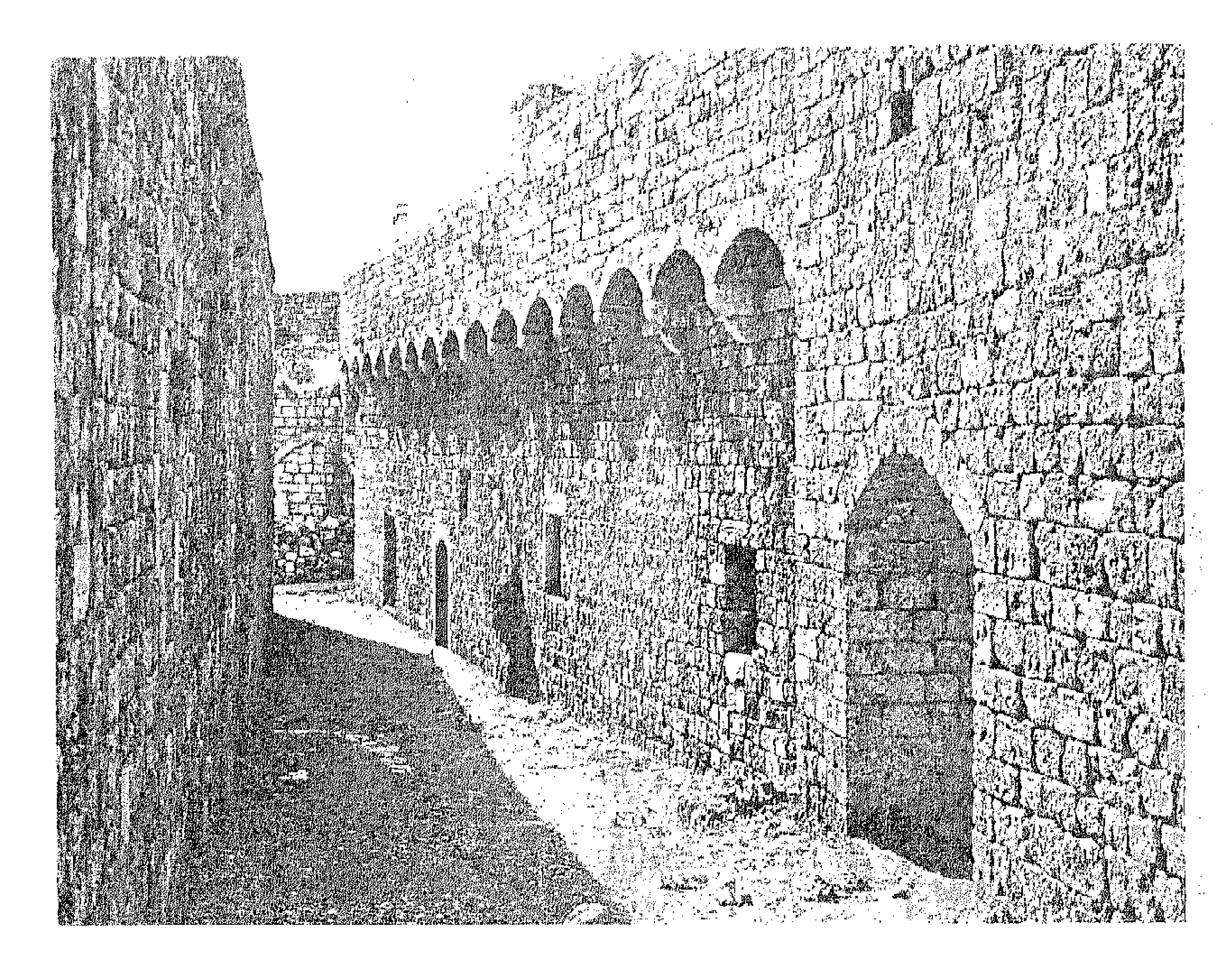
في العام ١٦٢٥ تسلّم الأمير فرماناً سلطانياً بتوليته على ديار «عربستان» من حد حلب إلى حد القدس وأصبح أميراً على البلاد الممتدة من غزة وعجلون جنوباً إلى انطاكية وحلب شمالاً، ودخلت في ملكيته قلاع وحصون المسيلحة وحصن الأكراد والسلمية (شمالي شرقي حمص) والمرقب وصافيتا ومسقية، ثم ابتدأ ببناء قلعتين الأولى في حلب شمالي قلعة الشماميس والثانية فوق انطاكية وجهزهما بالسلاح والعتاد والمدافع والجند اللازم. ثمّ رمّم قلعة بانياس وصلخد بحوران. وفي العام ١٦٢٧ استولى على قلعة طرابلس ثمّ بنى قلعة القليعات في أرض الجون كما استولى على

(١) قرألي، ص ٣٠٤.
- الشدياق - أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١، ص ٢٧٧.
- الخالدي، ص ٢٤٣.

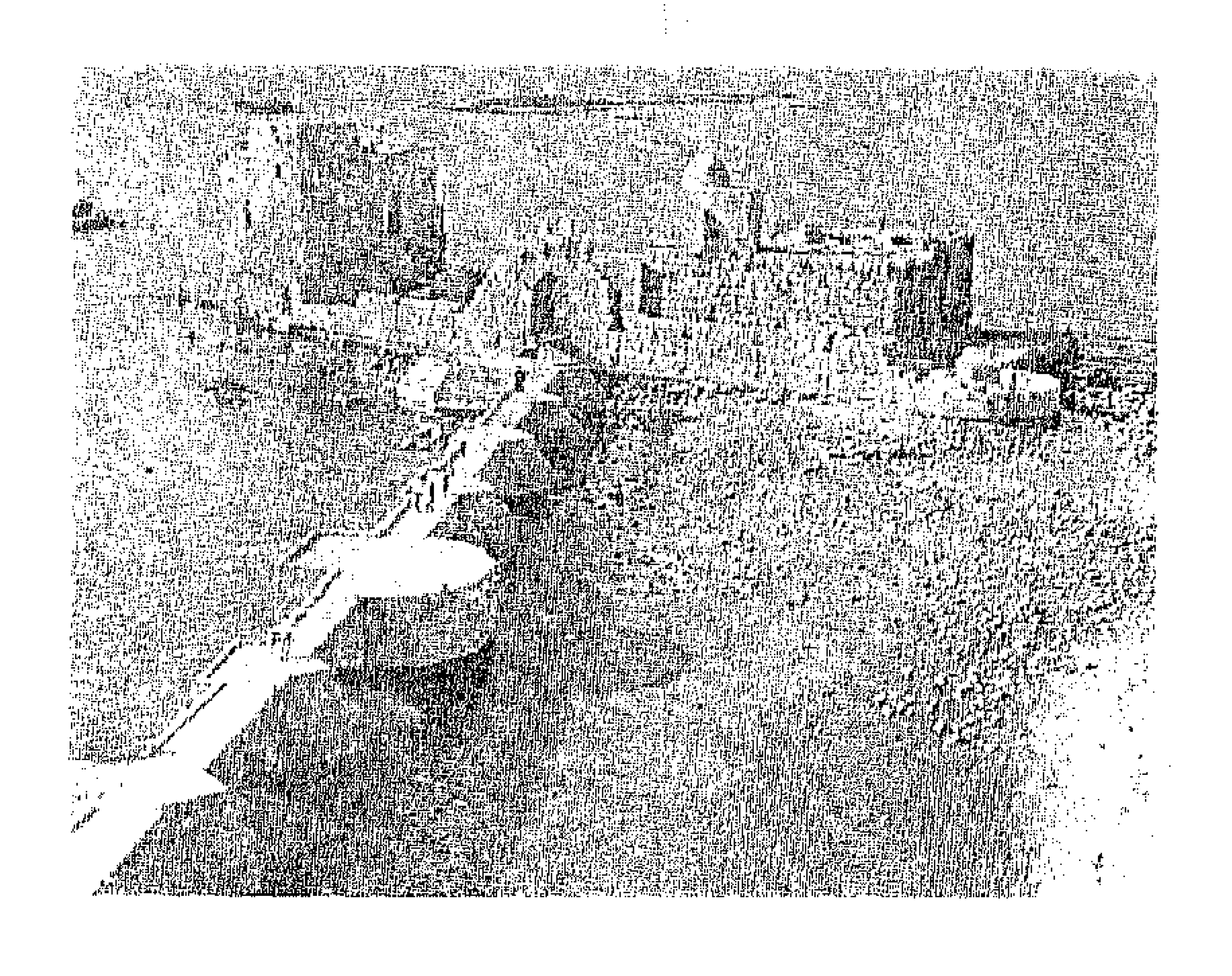
خارطة رقم ٣

القلاع والحصون في عهد فخر الدين الثاني المعني

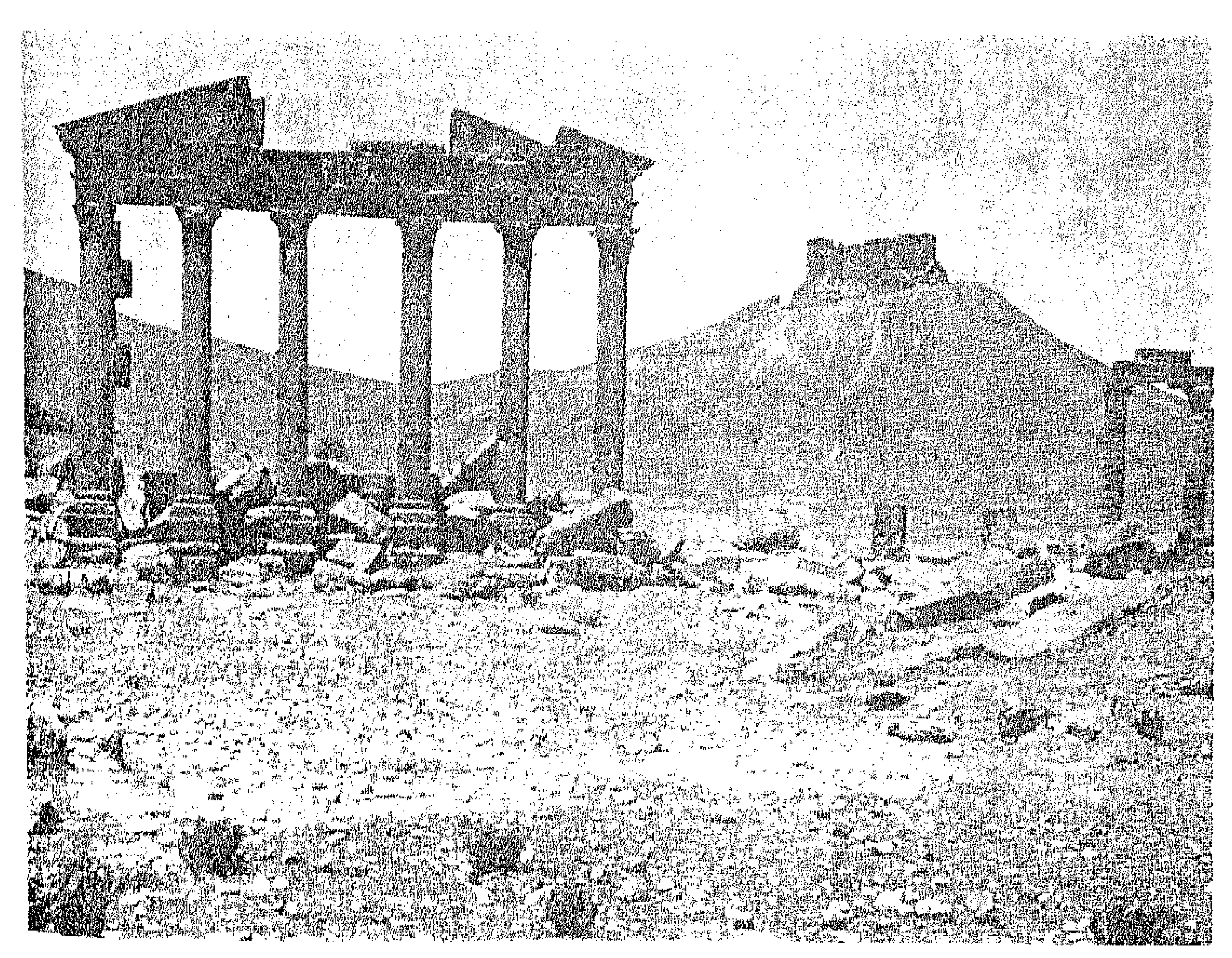




جانب من قلعة طرابلس



قلعة صيدا



بقايا قلعة ابن معن في تدمر



أعمدة أثرية في عنجر



بقايا قلعة شقيف أرنون

قلعة «العريمية».[1] وفي الجنوب استولى على قلاع أبي الحسن وتبنين ومارون وحصن دوبية. ويقول الأب قرألي أن الأمير فخر الدين كانت في حوزته العام ١٦٢٩ حوالى الأربعين قلعة وحصناً عدا عن الأبراج والحصون الصغيرة مثل برج الكشاف في بيروت وقصر غزير ومغارة جزين ومغارة الحمام قرب صفد.[1]

لقد تجلّت عبقرية الأمير فخر الدين السياسية والعسكرية في تنظيم الدفاع عن الحدود، فلم يترك شيئاً للصدفة، ولكي يكون لجيشه نقاط ارتكاز ومعتصمات ضدّ أي هجوم عدو. وكانت هذه النقاط ممتازة وحصينة وصالحة للدفاع وللهجوم على حد سواء وكانت قلاع: نيحا والشقيف وعجلون أقوى القلاع في آسيا الصغرى.[1]

٢ – المرافىء البحرية

كانت المرافىء البحرية في إمارة فخر الدين تشكل معتصمات ومعاقل دفاعية عن السواحل في بلاد الشام، لذلك اهتمّ بها الأمير اهتماماً كلياً فجهّزها بالمدافع والحاميات وحصّنها بالأبراج الدفاعية. وكانت هذه المرافىء تستعمل في آنٍ واحد للتجارة وللأغراض العسكرية الدفاعية. وأهم هذه الموانىء هي:

٢١ – مرفأ صيدا:

كان هذا المرفأ أهم المرافىء في الإمارة تجارياً وعسكرياً، خاصة أن صيدا كانت لحقبة زمنية عاصمة الإمارة ومقر الأمير منذ العام ١٦٩٤، لكنه كان قليل المياه، بإمكانه استقبال زهاء خمسة عشر مركباً ضخماً وكانت القلعة قابلة للتحصين.[2] وكانت صيدا مع بيروت ثغري دمشق. كان هذا المرفأ مفتوحاً من طرفيه محمياً من الرياح الغربية والجنوبية الغربية برصيف صخري، إلاّ أنه لم يكن كذلك من الجهة الشمالية. قعره صخري مما يجعل الرسو فيه صعباً يتطلّب الحذر، لكن بإمكانه أن يستقبل أي

---

(١) سويد، ج ١، ص ٢٤٢.
- الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٣٢٣.
(٢) قرألي، ص ٢٠٣.

نوع من المراكب والسفن. وقد ركّز فخر الدين في القلعة عشر قطع أو أكثر من المدافع. وكان مكوّناً من سلسلة من الصخور الكبيرة التي اتخذت شكلاً يجعل من السهل جداً سدّ مداخله بأكوام من الحجارة الكبيرة إلاّ ان الأيام برهنت أن هذا المرفأ لم يكن قوياً، لذلك أصابه الخراب السريع جراء قصف جدران القلعة من قبل مدفعية القرصان العام ١٦٣٨. وفي السنة ١٦٣٣، وأثناء الحملة العثمانية على الإمارة، ردمه الأمير بالحجارة كي يمنع الأسطول العثماني من الرسو فيه.(١)

٢٢ - **مرفأ صور:**

قال سانتي في تقرير له عن مدينة صور وموقعها الحربي في العام ١٦٢٤، «في جهتها الشمالية ميناء تسع عدداً كبيراً من المراكب من شتّى الأصناف، تحميها المدينة وبعض الصخور المصطفة من الشمال إلى الجنوب، أما مدخلها فمن الجهة القبلية. وفيها مرفأ أمين للسفن، بيد أنه قليل العمق لا يحمل سوى المراكب الصغيرة». وأهمية هذا المرفأ كانت من الناحية العسكرية وملاءمته لانزال أي قوات بقصد احتلال الساحل. لكن تحصينه سهل للغاية نظراً لوجود الصخور الكبيرة القريبة منه، لذلك رأينا فخر الدين العام ١٦٣٣ يعمد إلى ردمه أسوة بغيره من المرافىء التي كان يملكها خشية استخدامها من قبل الأسطول العثماني.(٢)

٢٣ - **مرفأ بيروت:**

كان هذا المرفأ صغيراً جداً، غير ذي قيمة عسكرية تذكر، مثل مرفأي صيدا وصور. وقد ردمه الأمير مع ما ردم من المرافىء العام ١٦٣٣، وذلك بان دكّ برجين ضخمين كانا قائمين على جانبي مدخله، فسدّت حجارتهما عرض المرفأ. وهكذا لم يعد بمقدور السفن ان تدخل إليه.

٢٤ - **مرفأ عكا:**

كان هذا المرفأ في القرون الوسطى أكبر مرافىء سوريا، ولم يبق منه سوى بعض

---

(١) سويد، ج ١، ص ٢٦١.

(٢) قرألي، ص ٧٨.

الجدران القوية والسميكة، وبرج مربع على الشاطىء كان يعتمد للدفاع عنه. وقد ردمه الأمير السنة ١٦٣٣ لمنع رسو المراكب العثمانية فيه، فأصبح مليئاً بالركام ويصعب على السفن الرسو فيه من دون مخاطرة.

٢٥ - مرفأ طرابلس:

بقي هذا المرفأ في يد الأمير يوسف بن سيفا حتى السنة ١٦٢٤ عندما آل إلى الأمير فخر الدين، وهو كناية عن رأس بري طويل داخل في البحر يحمي مدخله برجٌ مربع قوي، وآخر مماثل يتصل بجمرك المرفأ المبني على شكل مربع... وهناك خمسة أبراج غيرهما على طول المرفأ وعلى الشكل نفسه تؤمن المراقبة والمدافعة المستديمة ضد القرصان والاسطول العثماني. وقد بنى الصليبيون هذه الأبراج السبعة.[١]

٣ - الأسطول البحري

مما لا شكّ فيه، أن الأمير فخر الدين كان يرغب في أن يكون له أسطول بحري إلى جانب جيشه وحصونه، كي يدافع بواسطته عن سواحل إمارته ضد أسطول السلطنة ومراكب قراصنة البحر الذين كثيراً ما جابوا سواحل بر الشام عابثين بأمن البلاد والعباد. ففي السنة ١٦٠٨، وبعد سقوط حليفه علي باشا جنبلاط، نشط الأمير في إنشاء جيش كبير مستخدماً الأسطول التوسكاني في تجهيزه وتسليحه. وفي العام ١٦١١، طلب الأمير من حلفائه التوسكانيين تزويده بأسطول «مؤلّف من خمسة عشر غليوناً وعشرين غراباً، على أقل تقدير، ليرسو في صيدا...»[٢] وفي العام ١٦٢١، وفي قتاله ضد يوسف بن سيفا حول طرابلس، جهّز الأمير غليونين فرنسيين «وحط فيهما ٥٠ نفراً من سكمانيته» وأمرهما بالوقوف قبالة ميناء طرابلس ومنع أي إمداد بالزاد والغذاء عن

(١) قرألي، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) قرألي، ص ١٨٤.

المدينة من جهة البحر. في العام ١٦٢٤ جهّز الأمير لقتال عرب فلسطين أسطولاً بحرياً مكوّناً من مركبين كان قد غنمهما سابقاً من قرصان مالطه، ووضع فيهما نحو ٥٠ بندقية، وخمس عشرة «شختورة ملأها بالعازق (من طحين وارز وغيرهما) وسار بالأسطول على محاذاة الشاطىء نحو الجنوب لقتال ابن طربيه وحلفائه...».[١]

لم تتحقق رغبة الأمير في انشاء أسطول بحري عسكري نظراً إلى جهل جنوده فن الملاحة وعدم رغبتهم في هذا الفن أو إقبالهم عليه، ولعدم قدرته على صيانه هذا الاسطول وحمايته فيما لو تمكّن من انشائه، وذلك بسبب القوة البحرية العثمانية التي كانت تسيطر على البحر المتوسّط.

(١) سويد، ج ١، ص ٢٦٤.

الفصل الثامن
معارك الأمير فخر الدين الثاني المعني (الحروب التوسعية)

١ - الفن العسكري

ليست الحرب العسكرية إلاّ إظهار القوة وجعل القوى المادية والمعنوية في مواجهات وتطاحن، وإن كان من شأن الثانية أن تعدّل أحياناً في القيمة المطلقة للأولى. فالحرب إذاً هي «عراك إرادات» يدخل فيها دور القائد، قيمته، شجاعته، رباطة جأشه، علمه، مخيلته الخلاّقة وروح المبادرة.[١]

قال ماك آرثر (MAC ARTHUR) القائد الأميركي في الحرب العالمية الثانية:

«لكي نستكشف المستقبل علينا أن نمعن النظر في الماضي، ليس بقصد تقرير وتحضير الحرب الأخيرة مجدداً، بل بغية درس الأساليب التي أظهرت الحرب الأخيرة خطأها للعيان وايجاد العلاج الملائم لها، وبغية اعتماد الأساليب والأسلحة ذات المفعول الحازم والحاسم في المستقبل».

٢ - مبادىء الفن العسكري وقواعده

للمبدأ معانٍ مختلفة تشرحه: فهو رأي يعتبره العقل البشري لا مراء فيه وعليه ترتكز أحكامنا. وقال بعضهم إنه

(١) محاضرات في التاريخ العسكري - المدرسة الحربية - الجيش اللبناني (ترجمة وتحضير النقيب طلال المهتار)، ١٩٦١.

قاعدة عمل ممثلة بوضوح وينبغي علينا تطبيقها. وإذا أردنا التوسّع في الشرح نقول: انه قانون أساسي للسلوك وللتطبيق الدائم والإلزامي.

أما القاعدة، فهي قانون من شأنه توجيه سلوكنا والسماح بتطبيق المبادىء، كما أنها تساهم في تحقيق هذه الأخير.

٢١ - المبادىء والقواعد:

المبادىء	القواعد
١ - نسبية الاهداف أو الغايات والوسائل	- التمتع بحسّ القياس - ضرورة الاستعلام
٢ - حرية العمل	- جمع القوى - حرمة خطوط المواصلات - الحيطة - إخفاء النوايا عن العدد
٣ - الحصيل الأقصى للوسائل (Le rendement Maximum) ويدعى أحياناً: مبدأ الاقتصاد في القوى	- جمع الوسائل إلى أقصى حد بما فيها الاحتياط - الطاقة القصوى (Le Maximum d'Intensité) - التعاون - اختيار الزمان والمكان - السرعة والمفاجأة - الاستدامة والاستمرار

إن تعداد هذه المبادىء يحمل على الاقتناع بأنها مستقاة من التجارب وأن العقل الراشد وحسّ المقياس (Le sens de la mesure) هما اللذان أوجدا صيغتها.

ما دامت الوسائل معطاة وليس بالإمكان زيادتها، فعلى القائد أن يحدد أهدافه بالنسبة إلى هذه الوسائل. أو في حال تحديده هدفاً عليه، إذا لزم الأمر، أن يزيد في وسائله (المبدأ الأول) وإذا حقق حرية العمل (المبدأ الثاني) عليه أن يبذل ما في وسعه للحصول على الحصيل الأقصى من وسائله (المبدأ الثالث).

إن المبادىء والقواعد تتسم بطابع الديومة، فالأساليب المقابلة لدرجة تطوّر السلاح تتغيّر لوحدها وتتطوّر مع الوسائل التي يضعها العلم والتقنية في تصرّف الجيوش (فللكتيبة اليونانية رماحها الطويلة، وللفرقة الرومانية رماحها وحرابها الخاصة، ويراوح طول الرمح ما بين ١،٣٥م ومترين، ولكيستاف ادولف بندقية (le mousquet) والتي كانت تطلق بفتيلة ملتهبة، ولفردريك الثاني بندقية ذات مزربة حديدية (Baguette de fer). كما كان لنابليون مدفعية كريبوفال، وكانت لمولتكه (Moltké) السكك الحديد والبندقية المواترة والاستون المثلّم، وللمارشال الفرنسي فوش والألماني ليدندروف الرشاش والدبابة والمدفعية. كما كان لهتلر تناسق الدبابة مع الطائرة مع اتصال لاسلكي. وللأميركيين، الجنرال ايزنهاور وماك ارثر الطيران الاستراتيجي وحاملة الطائرات والقنبلة الذرية.

لقد أعلن الأميرال الأميركي شترنيمتز عقب انتصاراته الباهرة على اليابان في المحيط الباسفيكي ما يأتي: «ما تعلّمت شيئاً سوى أني وضعت أحدث الوسائل والمعدات في خدمة أقدم المبادىء».

٢٢ - الارتكاز على المبادىء والقواعد:

أولاً: نسبية الأهداف والوسائل:

يعني هذا المبدأ في ما يخصّ الدولة، أن يكون عندها حسّ القياس وأن تقيس أهدافها على وسائلها. وعلى القائد العسكري أن يقابل، قبل تعيين أهدافه، ما بين قواته وقوات خصمه (الحيطة بالاستعلام الاستراتيجي والتكتي) وعليه أن يأخذ في الاعتبار العوامل الآتية:

- قيمة القيادة.
- الرتباء والجنود.

- نوع العدد والعتاد وكميتها.
- المنافع الطبيعية والاصطناعية الناجمة عن الأرض أو التحصينات.
- طاقة الشعب الاقتصادية والإسراع في استخدام الطاقة المعنوية لكلّ الشعب.

فالقوّة إذاً هي مجموع القيم المعنوية والمادية والعقلية للشعب والجيش.

ثانياً: حرية العمل:

يقوم هذا المبدأ على عدد من التعاريف (Définitions) نذكر منها:

- تثبيت العدو وإجباره على قبول القتال ومنعه من الانفكاك (Décrochage).
- عدم تعريض جانب قواتنا للعدو، للعمل بحرية تامة.
- تجنب الأعوار في أية نقطة من الجهاز القتالي وعقد العزم على ما يلائمنا وليس على ما يلائم العدو.
- عدم خوض القتال إلاّ بملء الرضى لذلك وجب علينا تطبيق القواعد التالية:

أ - جمع القوى: غايته السماح للقائد باقتحام المعركة وسرعة التدخل كما عليه عدم تعريض جانبه.

ب - حرمة خط المواصلات: التزام الحيطة، خاصة في المؤخّرة خوفاً من الطيران الاستراتيجي وطيران القصف وعناصر الغريّة.

ج - الحيطة: وهي هم القائد الدائم، وتحصل بالاستقصاء المتواصل للمعلومات عن العدو، لتجنّب المفاجأة واستخدام مختلف الوسائل المكلّفة بالإنذار والمحافظة على التماس مع العدو.

د - إخفاء نوايانا عن العدو: إخفاء فكرة المناورة - استعمال حيل الحرب والمناورات الخادعة.

ثالثاً: الحصيل الأقصى للوسائل أو الاقتصاد في القوى:

ما دامت المهمة محدّدة، فيؤول هذا المبدأ بدرس الأرض أولاً ثمّ بمقارنة وسائلنا مع الأهداف التي تحددها المهمة وتوزيع الأقساط (Dosage) لبلوغ الهدف النهائي المقصود بسرعة وبأقل الخسائر الممكنة. لذلك يجب علينا تطبيق القواعد التالية:

أ - الجمع الأقصى للوسائل: ويعني جمع

أكثر ما يمكن من قوات لتحقيق حرية العمل.

ب - الطاقة القصوى: استخدام هذه القوات بأقصى الطاقة (intensité) والقوة بغية منع العدو من جمع قواه واستغلال المفاجأة بصورة سريعة.

ج - التعاون: بغية الحصول على أفضل النتائج، خاصة في الحروب الحديثة وما أنتجته يد الإنسان من أسلحة قادرة، وجب الأخذ في الاعتبار «مبدأ التعاون». هذا التعاون غير الممكن في الأرعل العليا إلاّ بتوحيد القيادة التي تنسّق نشاط الأسلحة التالية: (مشاة - مدفعية - مدرعات - خدمات لوجستية)، مع نشاط الفروع الثلاثة لقوى الجيش (البر والجو والبحر).

د - اختيار الوقت: تقرره المعلومات المستقاة عن قوى العدو والأرض والعوامل الجوية.

هـ - انتقاء المكان: يتعلّق في صورة عامة بفكرة المناورة لدى القائد، ويستهدف النقطة الحساسة لدى العدو بحيث يوجّه نحوها أقصى الجهد الذي يؤول في النهاية إلى تفوّق وسائلنا على وسائل العدو.

ز - المفاجأة - السرعة: غايتها خلق الذعر لدى العدو، أنها عصب المعنويات الحسّاس ومولّدة النجاح العظيم وقليلة التكاليف. ويمكن أن تكون مفاجأة استراتيجية أو تكتية أو تقنية.

٣ - معارك الأمير التوسعية

كان تاريخ فخر الدين تاريخاً طويلاً مثقلاً بالأحداث الجسام، فقد ظلّ، منذ تسلّمه إمارة الشوف العام ١٥٩٠، وحتى سقوطه العام ١٦٣٣، في صراع مسلح مع خصومه وأعدائه المحيطين بإمارته. كان طموحه كبيراً وقد سعى جاهداً لأن يحققه في التوسّع والسيطرة بكلّ الوسائل، اما حرباً أو سلماً، وفي الحالين كانت الاغراءات المالية التي يقدمها للولاة والسلاطين تساعده، إلى جانب القوة العسكرية التي بواسطتها كان ينفّذ ما يحصل عليه من فرمانات بحكم ولاية أو سنجق في بلاد الشام.

كانت معارك الأمير التوسعية، معارك هجومية شنّها شمالاً ضد آل سيفا في عكار وطرابلس وكسروان، وجنوباً ضد القبائل

العربية في فلسطين، وشرقاً ضد الأمراء آل حرفوش في البقاع. أما معارك الأمير الدفاعية فكانت ضد العثمانيين، وخاصة ضد ولاتهم في الشام.

٣١ - معارك الأمير ضد آل سيفا:

كان الأمير يوسف باشا سيفا، بكلربكي طرابلس وعكار،[١] غادراً طماعاً، فبعد أن كان يأتمر بأمر الأمراء آل عساف، متسلمي كسروان وبيروت، ويؤدّي لهم الأموال عن اقطاعته، طمع بالحلول مكانهم بحيث يوسّع إمارته لتمتدّ حتى مشارف الشوف المعني. وقد توافرت له فرصة نيل مبتغاه العام ١٥٩٠، إذ امتنع عن إرسال ما في ذمته من مال إلى الأمير محمد العسافي الذي جمع قواته وزحف نحو عكار لمعاقبة المتخلف وطرده من تلك الناحية. علم يوسف سيفا بزحف الأمير محمد نحوه فأسرع مع قواته إلى البترون ونصب كميناً محكماً لمهاجمه الذي وقع فيه وانتهت المعركة بانتصار ابن سيفا ومقتل الأمير محمد عساف. تقدّم يوسف سيفا إلى غزير وضبط كلّ أموال محمد ومقتنياته وتزوّج أرملته وقتل الشيخ سليمان والشيخ منصور مهنا من آل حبيش ونكب حاراتهم، وهرب الشيخ يونس والشيخ حبيش إلى عند الأمير محمد بن جمال الدين في الشويفات وانتقل حكم مقاطعة آل عساف إلى يوسف باشا سيفا، الذي أصبح يحكم من أطراف عكار شمالاً إلى بيروت جنوباً وما بينهما. فكان يوسف سيفا حجر عثرة في سبيل تحقيق طموحات فخر الدين في توحيد المقاطعات اللبنانية تحت إمرته وتأسيس دولة قوية تستطيع أن تنزع النير العثماني وتتمتع بالاستقلال التام.

وكان فخر الدين قد ضمّ بيروت إلى إقطاعته، فرغب يوسف سيفا في أن يستعيد سيطرته عليها بالقوة، في حين لم ينسَ فخر الدين أنه تسبب في وفاة والده قرقماز العام ١٥٨٤ واجتياح عسكر إبراهيم باشا بلاد الشوف وخرابها ومقتل ستماية رجل من عقال الدروز، عدا عن تكليف الأهلين بما لا طاقة لهم به من الضرائب.

(١) كلمة تركية مركّبة تعني وظيفة إدارية وعسكرية. وكان البكلربكي بمثابة الحاكم أو المتسلم على مدينة أو مقاطعة وملتزمها فهو أمير الأمراء.

لقد كان الأمير فخر الدين يسعى إلى التخلّص من يوسف باشا، غير أن الأمر لم يكن سهل المنال. من هنا نشأ صراع عنيف بين الفريقين دام طويلاً تخللته المعارك حتى انتهى بوفاة يوسف باشا العام ١٦٢٤. وفي ما يلي أهم المعارك التي جرت بينهما:

أ - معركة نهر الكلب (١٥٩٨):

لم يطل الوقت على تسلّمه حكم الإمارة، حتى اتخذ فخر الدين مدينة صيدا عاصمة شتوية لإمارته، بينما بقيت دير القمر عاصمته الصيفية. وقد اشتدّت ساعده ورغب في التخلّص من يوسف سيفا، وراح يتحيّن الفرص المؤاتية. ولما كان الوالي مراد باشا قد ترك ولاية بلاد الشام العام ١٥٩٨ قرّر الأمير المعني انتزاع كسروان وبيروت من ابن سيفا، فجهّز لذلك جيشاً قوامه خمسة عشر ألف مقاتل، ساهم فيه الأمراء الشهابيون من وادي التيم والحرفوشيون من البقاع ومقدّمو جبيل الموارنة وسار به لفتح كسروان،(١) وما أن علم ابن سيفا بمسيرة الأمير حتى لاقاه بجيش مماثل،(٢) إلاّ أن فخر الدين انتظره عند وادي نهر الكلب، في ممر ضيق لا يتسع لحركة جيش كبير كجيش ابن سيفا. وما أن وصل إلى هذا المضيق حتى فاجأه المعني بهجوم صاعق وأطبق عليه من كلّ جانب فهزمه وشتت شمله وقتل ابن أخيه الأمير علي بن سيفا، واستولى فخر الدين بعد هذه المعركة على كسروان وبيروت لمدّة سنة، ثمّ أعادهما إلى ابن سيفا بعد وساطة الأمراء الارسلانيين، لا سيما الأمير محمد، شرط أن لا يتعدّى أحد من آل سيفا على أي من حلفاء الأمير فخر الدين.(٣)

---

(١) المعلوف، ص ٧٢.

(٢) قرألي، ص ١٠٢.

- الشدياق، ج ١، ص ٢٣٩.

- المعلوف، ص ٦٧ - ٦٩.

(٣) الشدياق، ج١ ، ص ٣٠٥.

- الدويهي - تاريخ الأزمنة، ص ٤٥٣.

ب - معركة جونية (١٦٠٥):

بعد معركة نهر الكلب، لم يطل الوقت حتى تصالح يوسف سيفا مع جليف فخر الدين، علي باشا جانبولاد والي حلب، وتمتّ مصاهرة نسائية بين الاثنين مما أغاظ فخر الدين، فأخذ على عاتقه القيام بحملة على طرابلس، لمعاقبة يوسف سيفا على الفتن التي كان يداوم على إثارتها ضده. ففي العام ١٧٠١ أقدم ابن سيفا على قتل مقدمي بلدة جاج الأربعة بواسطة يوسف قانصوه حماده، فانتزع أموالهم وأرزاقهم. وكان هؤلاء «أصحاب آل الخازن وسكان البقعة الشبابية»، وحلفاء الأمير المعني. ثمّ أقدم على مهاجمة بعلبك عاصمة آل حرفوش فنهبها وأحرقها، ثمّ احتلّ قلعة حدث بعلبك بعد أن حاصرها ٥٠ يوماً.

في العام ١٦٠٣ قام الأمير فخر الدين بحملة على طرابلس، واستولى بادىء الأمر على قلعة جزين المحصنة وانتقل منها إلى بيروت حيث قتل شقيق يوسف سيفا. وأراد أن يفيد من عنصري السرعة والمباغتة، فظهر فجأة أمام طرابلس فهرب ابن سيفا إلى قبرص وبعد مدّة قصيرة هرب من جديد على مركب فرنسي إلى الكرمل ملتجئاً إلى حمى الأمير أحمد بن طربيه الذي استقبله بالترحاب والاكرام، وبقي في ضيافته حتى فتحت طريق دمشق في وجهه. لقد سوّلت له نفسه مهاجمة بلاد الشوف لكسر شوكه المعني والقضاء على إمارته، وفي المقابل كان فخر الدين قد قرّر استعادة مقاطعتي كسروان - الفتوح وبيروت من يد ابن سيفا، فاعدّ العام ١٦٠٥ جيشاً لقتاله وسار به إلى جونيه. أما ابن سيفا فجمع سكمانه وتقدّم بهم من طرابلس إلى جونيه لملاقاة المعني الذي كان في معيته حوالى ١٢ ألف مقاتل، وراح ينتظر وصول ابن سيفا، مصمماً على دحره وردّه على أعقابه، إذ أنه اعتبر هذه المعركة مصيرية بالنسبة إلى نفوذه في كسروان. انتهت الواقعة بانتصار المعني انتصاراً ساحقاً، وعلى الاثر ضمّ فخر الدين بيروت وكسروان وجبيل إلى إمارته، وجعل أبا نادر الخازم والياً على كسروان ومنذر التنوخي على بيروت ويوسف المسلماني على غزير.[1]

(١) الشدياق، ج١، ص ٣٠٥.
- المعلوف، ص ٨٣ - ٨٤.

ج - معركة عراد (١٦٠٦):

خسر يوسف سيفا معركة جونيه وفقد بيروت وكسروان وجبيل لكنه بقي محتفظاً بمقاطعات لبنان الشمالي وسوريا الوسطى، من جبيل حتى اللاذقية، وقد ظلّ محتفظاً بقواه السياسية والعسكرية.

في هذه الأثناء عيّن الباب العالي أحمد باشا الحافظ والياً على الشام، «وكان ظلوماً، فتاكاً سيء الأخلاق وماكراً» وما أن استقرّ في الولاية حتى أدرك طموح فخر الدين إلى الاستقلال فحرّض السلطنة على الأمير فعيّنته قائداً لجيش الاناضول، وأوكلت إليه أمر ردع فخر الدين عن تحقيق ما تصبو إليه نفسه.

رأى الأمير نفسه ما بين عدوين لدودين، الحافظ في دمشق ويوسف سيفا في طرابلس، ولكي يعدّل كفّة السياسة حالف علي باشا جانبولاد، والي حلب، وكان هذا قد خرج عن طاعة السلطنة وجمع «جمعاً عظيماً من السكمان حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف وامتنع عن دفع المال المترتب عليه».[1] إلى جانب كلّ هذا تقدّم ابن سيفا من السلطنة وتعهّد لها بإعادة علي باشا جانبولاد إلى الطاعة شرط تعيينه أمير جند الشام. ولما استجابت الدولة طلبه راح يحشد القوات في حماه، وانضمّت إليه انكشارية دمشق بقيادة نائبها أحمد باشا الطواشي وأصبحت التحالفات على الشكل التالي:

- معسكر العثمانيين، وفيه جند والي الشام وجند ابن سيفا.
- معسكر علي باشا جانبولاد وفيه الأمير فخر الدين بالإضافة إلى حلفائهما من الشهابيين حكام وادي التيم وال حرفوش حكام بعلبك.

بدأت المناوشات بين المعسكرين في أرض عراد قرب حماه بأن هاجم يوسف باشا سيفا بجيش من السكمان والشاميين علي باشا جانبولاد، لكنه لم يتمكّن من الصمود، خاصة وأنه قد ادعى المرض في ذلك اليوم. وقد بقي القتال دائراً بين الجيشين من نهار السبت في ١٨ تشرين

---

(١) اليان، ص ٦٩.

الثاني إلى نهار الأحد ١٩ منه. وقبل ظهر ذلك اليوم بقليل أسفرت المعركة عن مقتل الكثير من جنود يوسف سيفا، فتفرّق شملهم وهرب من هرب منهم: فقال ابن جانبولاد «العسكر الشامي ما قاتلنا وإنما أقبل للسلام علينا».(١) وقد فرّ السيفي إلى طرابلس حيث كان الأمير المعني في انتظاره محاولاً سدّ سبل النجاة في وجهه. إلاّ أن يوسف سيفا تمكّن من الهرب بواسطة قارب باتجاه قبرص، ومنها إلى فلسطين، حيث لجأ إلى حاكم اللجون الأمير أحمد بن طرباي ومنه توجه إلى دمشق ليجمع من جديد في وادي بردى جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل.

يقال إن هزيمة يوسف سيفا في هذه المعركة، كانت نتيجة تآمر ضمني تمّ بين علي باشا وبعض قادة الجيش الشامي لقاء رشاوى أعطيت لهم «وملابس وخلع خلعت عليهم».(٢)

استثمار النجاح:

لم يترك الجيش المعني الجانبولادي المنتصر مجالاً لجيش يوسف سيفا المنهزم كي يعيد تنظيم قواته، بل أمر علي باشا جيشه بالزحف مع جماعة ابن معن في اثر عسكر ابن سيفا إلى المزّة، ومن هناك دخلوا دمشق ونهبوها لمدّة ٣ أيام متوالية ولم يتركوها إلاّ بعد أن خرج عقلاؤها وارضوا «علي باشا بماية وخمسة وعشرين ألف قرش».(١) فترك المدينة وقرّر متابعة سيره نحو حصن الأكراد للتفتيش عن ابن سيفا الذي تمكّن من الهرب مجدداً. وقبل رحيل علي باشا طلب الأمير فخر الدين ولاية بعلبك والبقاع لحليفه الأمير يونس بن الحرفوش فأعطيت له، ورحل الأمير وحلفاؤه عن دمشق عائدين إلى بلادهم عن طريق البقاع. أما علي باشا فقد تابع سيره حتى حصن الأكراد حيث طلب منه ابن سيفا الصلح والمصاهرة «فقبل علي باشا وزوّجه ابنته وتزوّج منه أخته لابنه الأمير حسين وعاد إلى حلب».(١)

---

(١) اليان، ص ٧١.

(٢) المحبي، ج ١، ص ١٣٧ - والمعلوف، ص ٨١.

عاد الأمير فخر الدين إلى الشوف غير راضٍ لنجاة ابن سيفا ومصاهرته لعلي باشا. بعدها اتفق الفرقاء الثلاثة على أن يحكم يوسف سيفا لبنان الشمالي وحمص وما فوق شمالاً وأن يحتفظ المعني بلبنان الجنوبي والفتوح وكسروان.

د - معركة الناعمة (١٦١٦):

بقي علي باشا جانبولاد حليفاً ليوسف سيفا حتى العام ١٦٠٧ حيث نكث عهده وحالف فخر الدين المعني. ولما خرج علي باشا على طاعة السلطان العثماني، أخذ يوسف سيفا جانب الوزير مراد باشا، الصدر الأعظم وأحمد حافظ باشا والي الشام، اللذين حاصرا حلب للفتك بعلي باشا. وسرعان ما توصّلا إلى ذلك، وفتك الصدر الأعظم بعلي وباع نساءه وجواريه وأسرته «بيد الدلاّل كالدواب»[1] وقتل سكمانه الذين بلغ عددهم ثمانين الف نفر العام ١٦٠٧.

حنق مراد باشا على الأمير فخر الدين لأنه كان حليفاً لعلي باشا جانبولاد، خاصة عندما انكسر الجيش الشامي في أرض عراد، لذلك فرّق الصدر الأعظم جنوده على المقاطعات من حلب إلى بلاد الشوف وكان ضيق عظيم على الناس، ففرضت الأموال والضرائب اعتباطاً (البلص والاحتيال) ولم يتخلّص الأهالي من هذا الظلم إلاّ عندما قدّم فخر الدين إلى مراد باشا ثلاثماية ألف قرش على دفعتين، هذا المبلغ الذي كان سبباً مباشراً بأن أنعم مراد باشا على الأمير المعني بسنجقية بيروت وصيدا.

السنة ١٦٠٩ جاء أحمد حافظ باشا دمشق وعاد إلى معاداة المعني ليضعف شوكته ويوقف تقدّمه السريع ويصادر أمواله الكثيرة التي حصّلها بمعاهداته التجارية مع بلاد الغرب وخاصة مع دوق توسكانا.

في السنة ١٦١١، توفي مراد باشا صديق الأمير فخر الدين وعيّن السلطان مكانه نصوح باشا، فاقنعه والي الشام أحمد

---

(١) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٤٥٩.

(٢) اليان، ص ٧٧.

حافظ باشا بمهاجمة إمارة فخر الدين نظراً لغناها، فاقتنع واوكل إليه قيادة هذه الحملة... وكانت الحملة العسكرية كبيرة، تألّفت من ١٤ بكلربكياً وخمسين سنجقاً، «وكان مع كلّ منهم جميع عساكره». كما أعدّ أسطولاً بحرياً مؤلفاً من ٦٠ سفينة والفي نفر من انكشارية اسطنبول لمنع وصول أية نجدة خارجية إلى الأمير فخر الدين. وقد انحاز إلى هذه الحملة بعض الأمراء اللبنانيين، ومنهم الأمير يونس الحرفوشي حاكم بعلبك والبقاع، والأميران أحمد وعلي شهاب حاكماً وادي التيم. انتهت الحملة برحيل الأمير فخر الدين عن لبنان إلى توسكانا العام ١٦١٣، بعدما رفض شروط الصلح المذلّة التي فرضها عليه أحمد حافظ باشا.

أولاً: أسباب المعركة:

قبل أن يغادر الأمير فخر الدين إمارته إلى توسكانا سلّم مقاليد الحكم إلى ابنه الأمير علي، وقيادة الجيش المعني إلى أخيه الأمير يونس، اللذين تابعا المقاومة والنضال ضد خصومهم العثمانيين وآل سيفا وسواهم، مع العلم أن يوسف سيفا كان قد استردّ في هذه الأثناء حكم غزير وبيروت ونصّب عليهما حكاماً من قبله، وامتدّ حكمه حتى شمل قرية الناعمة قرب الدامور. وكان حسين اليازجي ومصطفى كتخدا من أعوان الأمير، قد تمكّنا من استصدار أحكام سلطانية (مقرر نامات) برفع يد يوسف سيفا عن غزير وبيروت، إلاّ أن ابن سيفا لم يمتثل لهذه الأوامر بل أخذ يستعدّ للقتال لإبقاء نفوذه وحكمه على هذه المقاطعات الآنفة الذكر.[1] وكان الأمير علي يعتمد على رأي حسين اليازجي وعلى «أقواله وأفعاله لكون والده الأمير فخر الدين كان دائماً يرسل إليه ويحرّضه على سماع كلامه والاعتماد عليه».[2]

كما أن محمّد باشا السلحدار والي الشام أرسل منذ ١٦١٦ إلى ابن سيفا أمراً بالكف

(١) الخالدي، ص ٥١.

(٢) الخالدي، ص ٤٩ - ٥٠.

عن مساعدة الشيخ مظفر ومحمد جمال الدين التنوخي خال الأمير علي المعني، والمقدمين بيت الصوافّ في الشبانية. لم يقبل يوسف سيفا أياً من هذه الأوامر والأحكام، بل راح يشجّع الشيخ مظفر للبقاء إلى جانبه وأوكل أمر المحافظة على بيروت ومساعدة الشيخ فظفر بالأمير شلهوب بن الحرفوش والأميرين ارسلان وموسى من رأس نحاش وحسن آغا وعشرين بلوكباشياً من السكمانية مع غالبية رجال بلاده. وتمركزت هذه القوات بين الناعمة وحارة الناعمة وأخذت تقيم المراكز الدفاعية باتجاه الجنوب[1] وكان عديدها حوالى الفي مقاتل.

ثانياً: التعبئة والاستعداد للقتال:

لمّا علم الأمير علي معن بما يدبّره يوسف سيفا أصدر أوامره بالتعبئة استعداداً للقتال، وطلب من عمّه الأمير يونس أن يجمع رجال الشوف، ومن الأمير علي شهاب من وادي التيم أن يجمع رجاله أيضاً وموافاته إلى نهر الأولي شمالي صيدا. فاجتمع لدى الأمير المعني نحو ثلاثة آلاف مقاتل سار على رأسهم لمقاتلة القوات السيفيّة المتمركزة في بلدة الناعمة.

ثالثاً: الاستطلاع:

في هذه الأثناء وصل إلى لدن الأمير علي، رجل يدعى مخايل، وهو أحد أبناء يوسف المسلماني، وأطلعه على الحال العامة عند يوسف سيفا. وكان الجيش المعني متوقفاً عند مقطع نهر الدامور فأرسل الأمير علي فوراً شرذمة من جنده لاستطلاع مواقع عدوّه فاصطدمت هذه الشرذمة بمراكز يوسف سيفا الأمامية في حارة الناعمة فحدث قتال انتهى بانسحاب المراكز الأمامية العدوة نحو بلدة الناعمة وعادت قوات الأمير علي إلى مراكزها في الدامور.

رابعاً: السير نحو العدو والتماس:

في ١٥ آب ١٦١٦، توجّه الأمير علي بجيشه إلى الناعمة على الشكل الآتي:

(١) الخالدي، ص ٤٩ - ٥٠.

- في الميمنة، جند الشوف بقيادة الأمير يونس.
- في الميسرة، جند بلاد بشارة والشقيف وصيدا وفرسان السكمان بقيادة الأمير علي الشهابي.
- في القلب، مشاة السكمان بقيادة الأمير علي المعني نفسه.

خامساً: المعركة:

فور وصول الجيش المعني إلى عين الناعمة، اصطدمت طلائعه بالمراكز الأمامية لقوات ابن سيفا وبدأت المعركة. أمر الأمير علي الخيالة ومشاة القلب والميمنة بالقيام بالهجوم الصاعق فلم يتمكّن السيّفيون من الصمود في مواقعهم فانسحبوا انسحاباً عشوائياً كان أقرب إلى الفرار منه إلى التراجع التكتي، مخلّفين ورائهم.نحو مايتي قتيل ومايتي أسير من مشاة السكمان الذين كانوا لا يزالون في مراكزهم حيث قبض عليهم[1] قبض اليد. وقد غنم المعنيون نحو ثلاثة عشر بيرقاً وطاردوا فلولهم حتى بلدة قرطية قرب الشويفات.[1] وقد بلغت خسائر المعنيين في هذه المعركة نحو ثلاثين قتيلاً وقيل ثلاثة فقط... والله أعلم».

سادساً: استغلال النجاح:

بعد المعركة، عاد الأميران علي يونس ومن معهما من الأمراء والقوى إلى الدامور.[2] وفي اليوم التالي تركوها إلى بيروت ونزلوا بالقرب منها، فخرج إليهم أهلها طالبين الأمن والأمان لقاء عشرين ألف غرش فقبلوها ووزّعوا قسماً منها على السكمانية بمعدّل خمسة قروش لكلّ نفر منهم.

توجّه من ثمّ رجال الشوف إلى بلاد الغرب والجرد والمتن فنهبوها عقاباً لآل سيفا على إحراق بلاد الشوف، ثمّ أمر الأمير علي بهدم قصر محمد بن جمال الدين التنوخي في الشويفات وحارة عرمون وحارة مقدمي بيت الصوان في بلدة الشبانية. ثمّ

(١) اليان، ص ١٠٤.

(٢) الخالدي، ص ٥٢.

أرسل الأمير يونس المعني، الشيخ أبا نادر الخازم ومملوكه ذا الفقار ليقيما في غزير ويتوليا بلاد كسروان وسائر البلدان. فرّ الشيخ مظفر، والي الشوف سابقاً إلى الضنية واتخذ له قرية شدرا في عكار مكاناً يسكن فيه.[1]

هـ - حملة عكار (١٦١٨ - ١٦١٩):

في العام ١٦١٨ عاد الأمير فخر الدين ومن معه إلى إمارته. وعند وصوله إلى عكا اجتمع إليه أنصاره ومحازبوه من شقيقه الأمير يونس إلى مشايخ بلاد صفد وبشارة والشقيف وبلاد صيدا، ثمّ انتقل الجمع في اتجاه صور «لمحل أخيه الأمير يونس» وبعدها، لما وصل الى جسر القاسمية لاقاه ولده الأمير علي ودخلا ومن معهما المدينة بالفرح وإطلاق البارود.[2] وكانت مدّة غياب الأمير عن لبنان خمس سنين وشهرين.

أولاً: الأسباب:

حدّد الأمير فخر الدين أسباب هذه الحملة في أثناء استقباله للأمير حسن بن يوسف باشا سيفا عندما جاء يهنئه بسلامة الوصول من توسكانا، إذ قال لضيفه الذي اصطحب معه هدية من الخيل، بعد أن رفض الهدية: «قل لوالدك نحن ما نريد هدايا منه وإنما مرادنا أخشاب لنبني بها دارنا التي أحرقها في دير القمر ومواشينا ومواشي تابعينا من زمان الحافظ أحمد ارسلناها إليه وديعة فضبطها لنفسه ولم يبال بحلول رمسه»[3]... «وكلّ من توجّه من جماعتنا إليه أخذ منه غرامة. والان مراده أن ينسينا أعماله بهذين الراسين من الخيل» وقال فخر الدين للأمير علي شهاب:

«لما رجعنا وجدنا على ولدنا عدّة ديون. اكتب إلى يوسف سيفا ليرسل لنا الاثنين والعشرين ألف غرش التي استدانتها جماعته من جماعتنا في اسطنبول... وأيضاً

(١) اليان، ص ١٠٤ - ١٠٥.
(٢) اليان، ص ١١١.
(٣) الخالدي، ص ٧٠.

جميع طرشنا وطرش توابعنا في زمن الحافظ أحمد باشا أرسلناه لعنده ليكون عنده وديعة فضبطه لنفسه، نسي حلول رمسه... ومراده ينسينا جميع ما فعله من الأشياء الذميمة بارسال رأسين ثلاثة من الخيل، فهذا كلّه ليس لنا إليه ميل».[1]

لم ينس الأمير فخر الدين، بعد عودته إلى لبنان هذه الإساءات المتعمّدة التي ارتكبها يوسف سيفا في حق منطقة الشوف وسائر انحاء الإمارة المعنية والكلام الجارح الذي وجّهه إلى أخيه الأمير يونس ومساندته والي الشام حافظ باشا السنة ١٦١٣، مما أجبر الأخير على ترك لبنان إلى منفاه الطوعي في بلاد توسكانا وايطاليا عامة. لكن الأمير قرّر انتظار الفرصة الملائمة لاغتنامها لضرب يوسف سيفا الضربة القاتلة وإبعاده عن الساحة اللبنانية وبلاد الشام. ولم يطل الأمر حتى سنحت الفرصة المنتظرة العام ١٦١٨ وهذه الفرصة كانت السبب المباشر والآني لضرب غريمه. فيوسف سيفا رفض تسليم مدينة طرابلس إلى الوالي الجديد عمر باشا الكتانجي المعيّن من قبل الدولة، كما رفض تسليمه المال المترتب عليه للدولة «العلية» مما اضطر الوالي الجديد للاستنجاد بالأمير فخر الدين لكي يساعده على تنفيذ فرمان السلطنة العثمانية وأوامرها وكانت مناسبة عظيمة وجدها الأمير للانتقام من خصمه اللدود.[2]

ثانياً: الاستعداد للقتال:

أعلن الأمير التعبئة العامة في إمارته، ونهض في شهر شباط من تلك السنة وأتى من صيدا إلى بيروت، وفيها بلغه خبر عزل خليل باشا من الصدارة العظمى وتعيين محمد باشا مكانه. وقد وزّع المهمات على الشكل التالي:

١ - استنفر رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان ووضعهم بامرته المباشرة.

(١) الخالدي، ص ٧٠.

- اليان، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) قرألي، ص ١٠٧.

٢ - استنفر رجال بلاد صفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا ووضعهم بإمرة ابنه الأمير علي.

٣ - استنفر حاكم وادي التيم الأمير علي الشهابي وأمره بالالتحاق بابنه الأمير علي أيضاً.

٤ - طلب من حاكم البقاع الأمير يونس الحرفوش أن يضبط ما لآل سيفا من الغلال والمواشي في مقاطعته.

٥ - أرسل الشيخ أبا نادر الخازن وأبناءه ورجاله لقطع طريق طرابلس بيروت عند جسر برج نهر إبراهيم لكي يمنع المرور نحو الشمال ومنع وصول أي انباء ليوسف سيفا عن قدوم حملة الأمير فخر الدين نحوه.

ثالثاً: السير نحو العدو:

بعد تنفيذ الأوامر بحذافيرها انطلق فخر الدين من بيروت في كانون الأول ١٦١٨، فسار في مقدّمة القوات الزاحفة وسار ابنه علي في اثره مع عظيم الجيش على أن يتوقف بجنده لمدّة قصيرة في غزير. بات الأمير فخر الدين ليلته في برج نهر إبراهيم. وفي اليوم التالي تابع سيره إلى جبيل، فوجد في قلعتها حامية على رأسها بلوكباشيان من آل سيفا فتركهما لحالهما وتابع سيره. ولدى وصوله إلى قلعة سمر جبيل وجد أيضاً بلوكباشيين آخرين فطلب منهما تسليم القلعة فرفضا، كما فعل زملائهما في قلعة جبيل. لم يتعرّض الأمير لها بسوء وتابع سيره نحو البترون ومنها إلى أميون وفي اليوم التالي دخلت القوى الضنية، وتحديداً إلى قلعة بخعون، ومنها إلى قبولا حيث توقف الأمير لاستطلاع بلدة عكار العتيقة.[١]

رابعاً: الاستطلاع والتماس:

بعد وصول فخر الدين إلى بلدة قبولا عسكرت قواته هناك، وانتقل هو شخصياً على رأس ثلاثماية خيال نحو عكار العتيقة لاستطلاع مكان يوسف سيفا فيها. ولما وصل

(١) اليان، ص ١١٣.
- الخالدي، ص ٧٤.
- الشدياق، ج ٢، ص ٢٥٨.

إلى مشارفها، وكان ذلك عند غروب الشمس، وقف ليرتاح قليلاً. وبعد ساعة من الوقت رأى مشاعل مضاءة خارجة منها ومتجهة نحو قلعة حصن الأكراد، لأن يوسف سيفا كان قد علم بقدوم المعني بقوات كبيرة لن يقوى على مجابهتها، فعزم على الإحتماء بهذه القلعة الحصينة. تقدّم الأمير المعني باتجاه القلعة، وكانت الطريق شديدة الوعورة، فنزل عن فرسه ومشى راجلاً أمام عسكره بعد أن تأكّد أن يوسف سيفا لا بدّ من انه سيتمركز بداخلها للمقاومة[1] وقد أوصى جماعته بأن لا تلتهي بالنهب والكسب. علم ابن سيفا باقتراب فخر الدين منه، فأمر جماعته باطفاء المشاعل، كي يضلّله ويصل إلى القلعة بأمان. وكان للقلعة طريقان، فسار هو في طريق وأرسل الأحمال والأمتعة والنساء والأطفال في الطريق الأخرى. وصادف أن فخر الدين كان يتقدّم على هذه الطريق فضبط الأحمال واستولى مرافقوه على مكاسب كثيرة من أنواع الأنسجة والحرائر وغيرها وأمر بترك النساء والأطفال وتابع البحث عن يوسف سيفا نفسه فوصل إلى بلدة شدرا التي لجأ إليها وسكنها الشيخ مظفر، شيخ اليمنية، بعد معركة الناعمة، كما أسلفنا، لكنه كان قد هوب منها والليل ستره. فرجع الأمير إلى عكار العتيقة فوجد عسكره قد غنم كثيراً[2] كما انهم قد صادفوا محمدا ابن حسين باشا سيفا، وكان له من العمر خمس سنين، فأتوا به إليه فسلّمه إلى أمه، أخت علي جانبولاد وأرسلها إلى سير الضنية.

عاد الأمير فخر الدين وتابع سيره نحو بلدة حصن الأكراد وكان يوسف باشا سيفا قد دخلها وتحصّن ببيوتها وفرّق عسكره صفوفاً أمام القلعة مستعدين للقتال ولردّ أي هجوم، وكان معه مقدّمو المتن من آل الصّواف ورجالهم. أخذ الأمير فخر الدين يستعدّ لشن هجوم عليه، ثمّ طلب من ابنه الأمير علي أن يوافيه على وجه السرعة بجند بلاد صفد والشقيف ووادي التيم

(١) اليان، ص ١١٣.

(٢) الشهابي، ج ١، ص ٦٦٢.

بأمرة الأمير علي الشهابي ليعزز بهم حملته.(١)

خامساً: المعركة:

جمع الأمير المعني نحو ألف رجل وشنّ أول هجوم على مراكز ابن سيفا في بلدة الحصن لكن الهجوم فشل، فأعاد الكرة من جديد ودارت رحى معركة عنيفة «ورغم الدفاع المستميت الذي أظهره المقاتلون من آل سيفا، فإن فخر الدين لم يتراجع ولم ينثنِ عن عزمه، فدخل بجنده بيوت البلدة وقاتل جند يوسف سيفا من منزل إلى منزل، فقتل منهم العدد الكثير ولجأ الباقون، مع اميرهم يوسف إلى داخل القلعة ليحتموا بها، بينما فرّ الأميران محمد وسليمان إلى بلاد جبلة جنوبي اللاذقية في سوريا.(١)

احكم فخر الدين الحصار حول القلعة يسانده الأمير علي شهاب، كما حاصر الأمير يونس حرفوش برج القيرانية وفيه جماعة من آل سيفا فاحتلّه بعدما حاصره ٣ أيام مستولياً على المواشي وكلّ شيء فيه، حتى أن فخر الدين جعل يواظب بنفسه على المتاريس والمراكز المحاصرة ويحثّ الناس عليها(٢) إلى جانب ذلك، أعطى الأمير أمراً للشيخ «أبي نادر الخازن» بأن يذهب ليلاً، مع عشرة انفار، ليدك الجسر الذي يصل البلدة بالقلعة عند بابها، كي يقطع على المتحصّنين داخلها سبل النجاة، ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب صلابة ومتانة ذلك الجسر. عندها شدّد الأمير الحصار الذي استمرّ ثلاثين يوماً، وكانت مؤنة المحاصرين في الداخل قد بدأت تنفذ ولم يتمكّن يوسف سيفا من الحصول على أي نجدة من الخارج من قبل والي الشام مصطفى باشا ووالي حلب محمد باشا، فاضطرّ مرغماً إلى الاستسلام وفقاً للشروط التي فرضها الأمير فخر الدين عليه(٢) وهي:

---

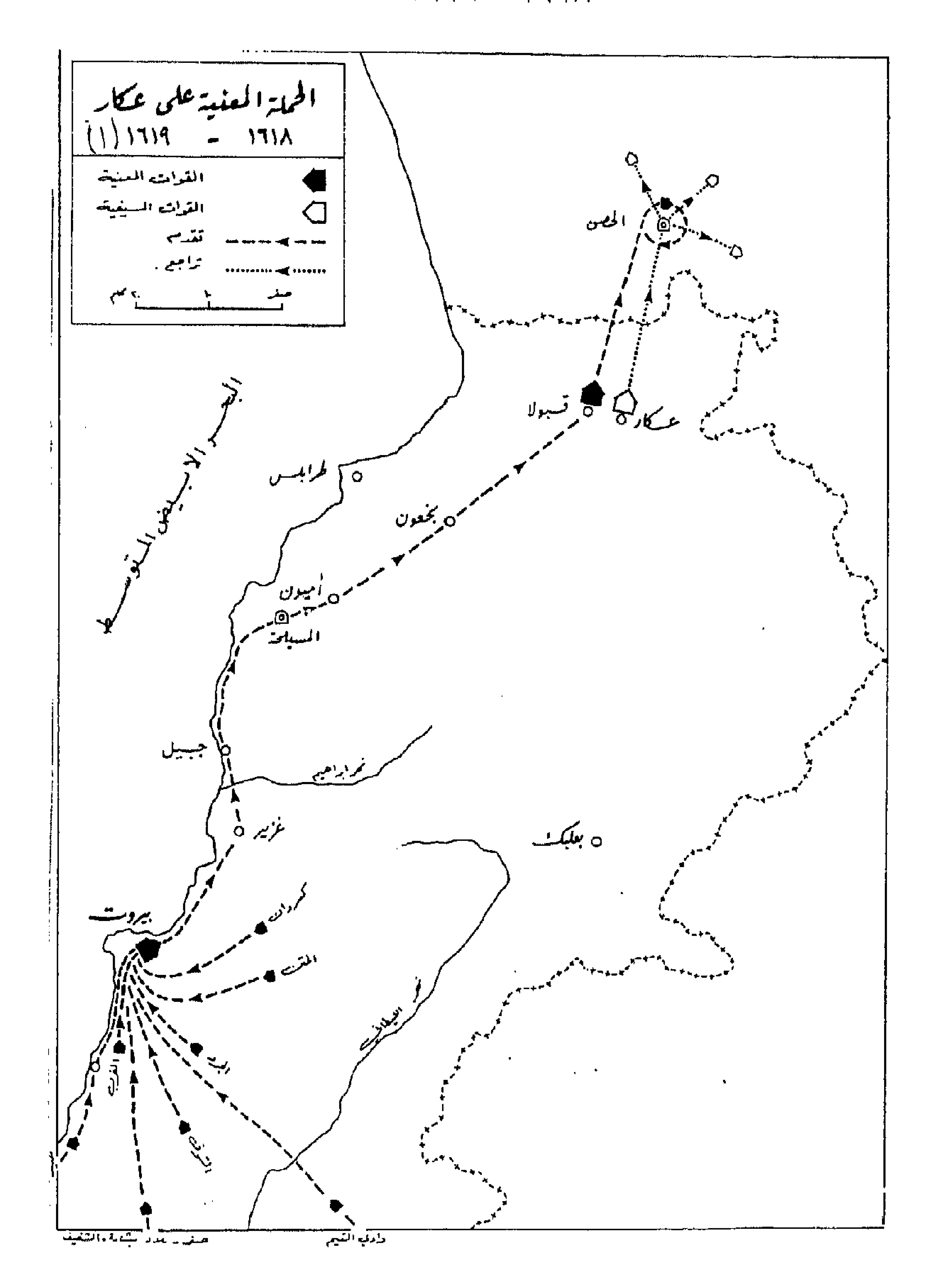
(١) اليان، ص ١١٤.
- الخالدي، ص ٧٤ - ٧٥.
- الشدياق، ج ١، ص ٢٥٨.

(٢) الخالدي، ص ٧٧.

حارطه رقم ٥

الحملة المعنية على عكار

١٦١٨ - ١٦١٩[1]



(١) سويد، ياسين، ج ١ ص ٢٨٠.

- أن يدفع له مبلغ ثلاثماية ألف قرش ويرفقها بمال بيروت وكسروان وتعويض عن المواشي التي ضبطها وقدره خمسون ألف قرش ومال القرى التي تولّى عليها في إيالة طرابلس وقدره ماية وخمسون ألف قرش.

وقد نفّذ الأمير يوسف باشا هذه الشروط بحذافيرها. وعاد الأمير فخر الدين من عكار إلى بيروت وأثناء عودته دمّر العديد من بيوت عكار ومن بينها دار يوسف سيفا ودور أصحابه من قبيل المعاملة بالمثل عندما احرق حسين باشا سيفا دار الأمير في دير القمر في عهد حافظ باشا، ثمّ استولى على قلعتي جبيل وسمر جبيل فهدم الأولى ووضع في الثانية حامية من جنده. وقد انعم عليه عمر باشا الكتانجي والي طرابلس بعد هذه المعركة بمقاطعتي جبيل والبترون؛ فولّى بدوره على الأولى الشيخ أبا نادر الخازن وعلى الثانية المقدّم يوسف الشاعر، ثمّ صرف من كان عنده من الجند كلّ إلى بلده.

في شهر حزيران ١٦١٨، وصلت حواله مع مصطفى آغا قبوجي باشي على يوسف سيفا بطلب مال إيالة طرابلس. انتهز هذه الفرصة وطلب منه أن يكون واسطة صلح بينه وبين الأمير فخر الدين كي يعيد إليه الأمير محمد بن حسين سيفا ووالدته. فقبل وعيّن الأمير موسى من رأس نحاش في البترون ليقوم بالمهمة. وافق الأمير المعني على هذه الوساطة وسلّم الطفل وأمه إلى الأمير موسى وكافة ما كان معهما من أحمال وأثقال وأموال دون أن يقتطع منها شيئاً وعاد بهما إلى طرابلس.(١)

و - حملة طرابلس (١٦٢٠):

في العام ١٦١٩، عيّنت السلطنة سليمان باشا والياً على الشام وفيها أخذ يوسف سيفا يراسل الأمير فخر الدين طالباً الصلح ونسيان الماضي وفتح صفحة جديدة من العلاقات بينهما. وكان قد أفرغ جهده في الوشايات والشكاوى المستمرة وغير المرتكزة على أساس من الصحة على الأمير فخر الدين، إلى الباب العالي على أمل النيل منه، حتى أنه أرسل ابنه حسن برفقة

(١) اليان، ص ١١٨.

باكيراغا قبوجي لدعم هذه الشكاوى المساقة ضد المعني.[1] لم يوفق بهذا الأسلوب فلجأ إلى الرياء واللين، لعلّه يصل إلى مبتغاه في الحاق الأذى بالمعني، فأرسل إليه في بيروت ابن أخيه محمد مطالباً بعودة بلاد جبيل والبترون إلى عهدته، وعقد نكاح بلك ابن يوسف سيفا على كريمة الأمير فخر الدين، ويوقفه في حارة غزير «ليحصل بذلك المعافاة»،[2] لكن الأمير المعني رفض هذه المعافاة وهذا الصفح بسبب عدم استقرار سياسة يوسف سيفا وخياناته السابقة له. بعد ذلك أرسل يوسف سيفا ابنه حسن إلى الأمير فخر الدين يستعطف خاطره ويرجوه أن يقبل الصلح، فاستقبله بالرضى وطيّب خاطره وعامله معاملة حسنة «فصار نصيب في عقد نكاح الأمير علي ابن معن على ابنة يوسف سيفا بوكالة أخيها حسن وكذلك صار نصيب في عهد نكاح الأمير بلك ابن يوسف سيفا على ابنة فخر الدين لأبيه وسلّم الأمير علي صداق مخطوبته لأخيها الأمير حسن عشرة آلاف غرش وله الفي غرش... ووقع الصلح بين يوسف سيفا والأمير المعني في شهر آب ١٦١٩.[3]

أرسل الأمير فخر الدين عرض حالات مع كوافي ابن سيفا إلى الباب العالي وإلى الصدر الأعظم علي باشا لإعادة ايالة طرابلس إلى يوسف سيفا ولاسيما أنه قبل بدفع الزيادة المقرّرة. فتقرّرت عليه وعزل حسين باشا الجلالي الوالي الحالي لطرابلس.

كان يوسف سيفا يحبّ المماطلة بدفع ما عليه من مستحقات مالية ويريد التسويف. هكذا كان يخادع فخر الدين كلّما سنحت له الفرصة ويتراجع عما قرّر عندما يشعر بالشدّة والحزم، فهو عندما يكون قادراً لا يراعي حرمة صداقة أو روابط نسب كما أنه لا يحترم قدسية عهد قطعه على نفسه.

أولاً: أسباب الحملة:

أتى حسين باشا البستنجي العام ١٦٢٠ إلى طرابلس لتحصيل الأموال المتأخّرة

(١) اليان، ص ١٢٣.

(٢) الخالدي، ص ٩٠.

(٣) الخالدي، ص ٩١.

لخزينة الدولة، من يوسف سيفا. أقام عنده مدة شهر وهو يماطله بدفعها. عندئذ لجأ إلى الأمير فخر الدين وبيده رسائل تكليف بتحصيلها من الصدر الأعظم، في حال تمنع السيفي عن ايفائها «وكان هذا الأمر طبّق ما يشتهيه الأمير»(1) لإرغامه على الدفع.

ثانياً: الحصار البري والبحري:

تنفيذاً لأوامر الصدر الأعظم، جمع الأمير فخر الدين سكمانيته ورجال بلاده وتوجه بهم إلى بلاد البترون في ٢٦ كانون الثاني ١٦٢٠، ومن هناك تقدم الأمير ومن معه إلى برج البحصاص في طرابلس وضرب حصاراً حول المدينة، ثمّ أرسل إلى ابن سيفا يطلب سداد الأموال المترتبة عليه للدولة، إلاّ أن يوسف سيفا رفض ذلك وغادر إلى جبلة تاركاً ابنه الأمير حسن في القلعة وسكمانيته في أبراج الاسكلة (الميناء) وأرسل إلى الباب العالي يشكو حصار الأمير فخر الدين لمدينته متهماً أياه بأنه يريد الاستيلاء على المدينة وقلعتها، ويطلب رفع الحصار، ويظهر استعداده لدفع الأموال المترتبة عليه للخزينة.(2) ظلّ الأمير مدّة عشرة أيام في البحصاص يفاوض حسن سيفا لدفع المال من دون الوصول إلى نتيجة. عندها أخذ يشدّد الحصار على طرابلس من مداخلها الثلاثة: المدخل الجنوبي - البحصاص - والمدخل الشرقي - نهر أبو علي - والشمالي - البداوي - ثمّ استدعى مركبين بحريين فرنسيين كان قد استأجرهما، فوضع فيهما خمسين رجلاً من سكمانه وأمرهم بفرض حصار بحري على المدينة ومنع إدخال أي إمدادات لوجستية إليها من جهة البحر، فوقعت طرابلس في حصار بحري وبري متكامل.(3)

ثالثاً: التحرّشات والمناوشات:

وذات يوم، وبينما كان بعض جند الأمير يغسلون ثيابهم عند النهر خرج بعض فرسان آل سيفا من الأبراج فخطفوا خيولهم ودارت

---

(1) الشهابي، ج ١، ص ٦٧١.

(2) اليان، ص ١٣٢.

(3) الخالدي، ص ٩٨.

معركة بين الفريقين أدّت إلى مقتلْ أربعة جنود من كلّ فريق، عندها قرّر الأمير مهاجمة المدينة.[1]

رابعاً: الهجوم:

حشد الأمير فخر الدين حوالى ثمانماية مقاتل من سكمانه ووضعهم بامرة كلّ من مدبره مصطفى وأحد قادته بلوكباشي طويل حسين وأصدر أوامره إليهم بالهجوم صفاً واحداً باتجاه المدينة على أن يدخلوها بأي ثمن. جوبهت هذه القوات بمقاومة عنيفة فسقط من جند الأمير أربعة قتلى وتمكّن أحد سكمانه واسمه قندقجي مصطفى من تسلّق السور ورمي نفسه إلى الداخل وتبعه عشرة مقاتلين آخرين فهرب الخفراء الذين كانوا يحرسون باب المدينة. وأخذت هذه الثغرة في الجهاز الدفاعي تتسع بتكاثر المهاجمين داخل السور وتقهقر المدافعين الذين لجأوا إلى القلعة فتحصنوا بها، بينما أصبح كلّ سكمان الأمير في الداخل، وتقدّموا باتجاه القلعة فاحتلوا داراً لحسين سيفا مقابلة لها. وعلى الأثر دخل الأمير المدينة وأرسل في طلب الأمير سليمان سيفا وجميع السكمان الذين كان قد أبقاهم في حارة الأمير محمد في عكار وكلّفهم بمحاصرة القلعة وفيها حسن سيفا وإخوانه مع حريمهم وسكمانية يوسف سيفا الذين يعتمد عليهم. تعاون هؤلاء جميعاً وبذلوا جهوداً جبّارة للمحافظة على القلعة في أيديهم.

وقد تكبّدت القوات المعنية في هذا الهجوم بالإضافة إلى القتلى الأربعة عند السور، قائداً (بلوكباشياً) وثلاثة جنود.[2]

ذات يوم فتحت القوات السيفية جبهة الأبراج في الاسلكة (الميناء) تخفيفاً عن المحاصرين في القلعة ومؤازرة لهم، إذ شنّ سكمان الأبراج هجوماً على القوات المعنية التي تحاصر القلعة وارتكب المعنيون خطأ فادحاً إذ تخلّى قسم منهم عن مراكزه في الطوق المضروب حول القلعة وقام بهجوم معاكس على سكمان الأبراج ولكن المعنيين

---

(١) اليان، ص ١٣٢.

(٢) سويد، ج ١، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

- الخالدي، ص ٩٩ - ١٠٠.

المهاجمين فوجئوا بكمائن من جند آل سيفا وراء مراكزهم عند طرابلس القديمة جانب الميناء، فصدّت المهاجمين وشتتهم، كما أوقعت في صفوفهم عشرة قتلى وعدداً من الجرحى. لقد كانت قوات الأمير هذه في أرض مكشوفة. فلما بلغ الخبر الأمير فخر الدين، أقبل إليهم لمساندتهم مع خمسين فارساً وما أن وصل حتى هاجم مراكز آل سيفا بأقصى الشدة والسرعة فانقطع الاتصال بين من في البرج ومن في المراكز، وفتكوا بجميع من وصلت إليه أيديهم ولم ينجُ منهم سوى القليل «وفتك الأمير بيده وسيفه فتكاً ما عليه مزيد».(١) في هذه المعركة التقى الشيخ أبو نادر الخازن وأبو جمال الدين بن غبروش، من معراب، كسروان، وهو من المتقدّمين عند يوسف سيفا وآله. وكان بينهما خلاف سابق وقد تمكّن الشيخ أبو نادر من قتله والاستيلاء على سلاحه.(٢) لقد أسفرت هذه المعركة عن مقتل خمسين رجلاً من السيفيين وتمكّن الباقون من الفرار وغنم فخر الدين كثيراً من الاعتدة والغنائم.

خامساً: المفاوضات:

بعد هذه المعركة مرّ الوضع القتالي على جبهتي القلعة والابراج في مرحلة ركود سمحت بإجراء مفاوضات بين الجانبين لم تسفر عن نتيجة، خاصة أن مقاتلي ابن سيفا أطلقوا من القلعة أثناء الافطار قذائف مدافعهم على مقر قيادة فخر الدين فأصابوه بثلاث منها أدت إلى تهدم جانب منه من دون خسارة في الأرواح، مما أعاد الوضع إلى التأزّم والمجابهة الحامية.

في هذه الأثناء كان يوسف سيفا بدوره يتوسّط لدى الباب العالي كي يفرض على فخر الدين رفع الحصار عن القلعة لقاء دفعه الأموال المترتبة عليه «... وأن ابن معن ما مراده بحصار القلعة أخذ المال إنما مراده ملكها وضمّها إليه...».(٣)

---

(١) الشهابي، ج ١، ص ٦٧١.

(٢) اليان، ص ١٣٣.

(٣) الخالدي، ص ١٠٢.

سادساً: القتال في البداوي ونهر البارد:

أثناء الحصار والمفاوضات، كان يوسف سيفا يعدّ للقتال عدّته، فجمع جنداً من السكمان والتركمان والعربان ومن رجال البلاد في قرية البقيعة. ولما لم تسفر المفاوضات عن نتيجة بادر إلى شن هجموم على قوات فخر الدين عند بركة البداوي شمالي طرابلس حيث كانت هذه القوات تقيم معسكراً لسد منافذ طرابلس من جهة الشمال. كان وقع هذه المفاجأة كبيراً على هؤلاء الجنود، فتضعضعت مراكزهم لمدّة وانطلق جنود فخر الدين لنجدة رفاقهم في البداوي من دون أي تنظيم أو خطة،(١) فتظاهر أرسلان بك قائد قوات ابن سيفا بالهزيمة فتراجع نحو نهر البارد حتى اجتازه شمالاً، والعسكر المعني يجري في اثره، فأقام كمائن محكمة لهم فور اجتيازهم النهر وقعوا فيها واستحال عليهم الصمود وأجبروا على التراجع نحو بلدة المنية حيث التقوا بفخر الدين مقبلاً لمساندتهم. تابع الأمير تقدّمه لملاقاة رجال يوسف سيفا وقتالهم إلاّ أن هؤلاء كانوا قد تخلّوا عن اللحاق بفلول جيشهم، فعاد أدراجه إلى طرابلس. وقد كلفته هذه المعركة أربعين رجلاً ويوسف سيفا خمسة عشر.(٢)

سابعاً: تدخل الباب العالي وفك الحصار:

تعهّد يوسف سيفا للدولة بدفع المستحقات المالية التي بذمته للدولة. فأوفدت السلطنة كورد حمزة والحاج كيوان برفقةماية رجل من اليكرجية والبلوكباشية ووالي الشام للصلح «وليرفعوا ابن معن عن طرابلس» وكذلك قوّة بحرية لفك الحصار عن القلعة والمدينة قوامها خمسة اغربة بقيادة مصطفى آغا الذي خرج إلى الأمير فخر الدين وبيده «خلعة شريفة واوامر كي يتوقف عن تحصيل المال. فلبس الخلعة وامتثل للأمر العالي».(٣) خاصة

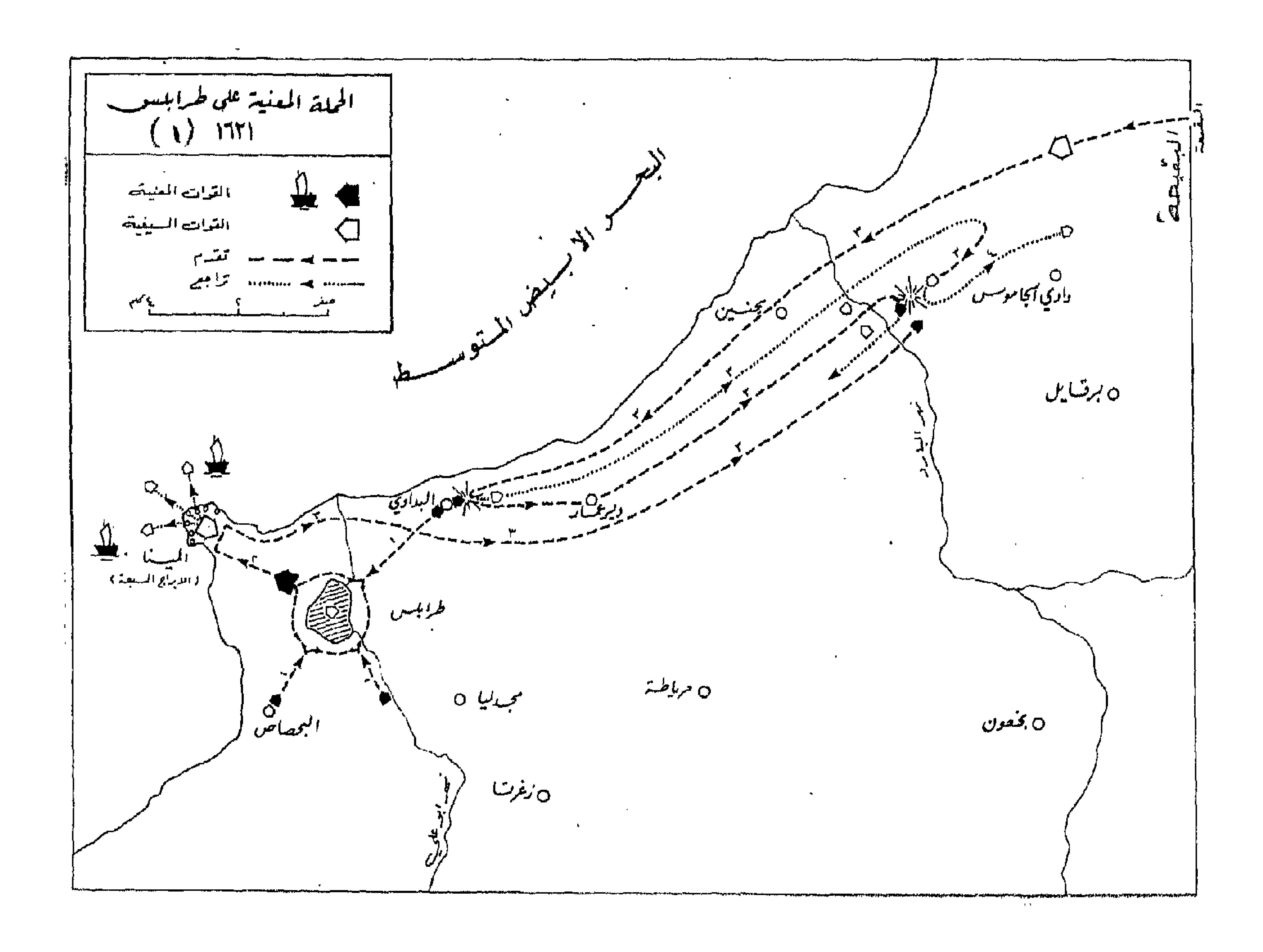
(١) الخالدي، ص ١٠٣.
- الشهابي، ج ١ ص ٧٠٧.

(٢) الخالدي، ص ١٠٣.

(٣) الخالدي، ص ١٠٣.

خارطة رقم ٥

الحملة المعنية على طرابلس ١٦٢١[١]



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٢٨٤.

عندما قال له مصطفى آغا «أنتم ما بقا عليكم عهدة لأنهم جيتم بأمر فروحوا مع السلامة بأمر».

جمع فخر الدين جيشه وعتاده وترك طرابلس متوجّهاً إلى بيروت نهار الخميس في ٢٣ أيلول ١٦٢٠، بعد أن قدّم إلى مصطفى آغا الفين وخمسماية قرش خدمة... أما يوسف سيفا فلم يفِ بوعده بل ظلّ يماطل عدّة شهور حتى انتهى موسم الحرير فسلّم مصطفى آغا مالاً يسيراً. لقد دامت هذه الحملة نحو ثلاثة أشهر.[1]

ز - حملة البلاد الشمالية (١٦٢٤ - ١٦٢٥):

في العام ١٦٢٤، أنعمت الدولة العلية على الأمير فخر الدين بأن يكون والياً على «ديرة عربستان من حد حلب إلى حد القدس» وأن يرث لقب جدّه فخر الدين الأول «سلطان البر»، وذلك بموجب «أحكام سلطانية فرمان عالي شان خط هميون». وقد ورد في هذا الفرمان أن يدير الأمير هذه المقاطعات كلّها بحيث «تؤدي ميرتهم إلى الخزينة العامرة وسلوك طرقاتهم وانتظام عمارهم».[2] وتنفيذاً لأوامر الدولة العثمانية، جهّز الأمير جيشاً كبيراً قوامه حوالى خمسة عشر الف جندي: عشرة آلاف من السكمان وخمسة آلاف من أهل الإمارة، وتوجّه بهذه القوى باتجاه الشمال من بيروت إلى نهر إبراهيم فالبترون فعكار، وهناك طالب يوسف سيفا بدفع ما يتوجّب عليه من الميرة وكانت ما يقارب الـ٥٠ الف غرش، فامتثل ابن سيفا للأمر ودفع ما عليه فوراً. وتابع حملته حتى وصل إلى حلب وانطاكية حيث بنى في كلّ منهما قلعة، ثمّ ارسل من قبله مأمورين يجمعون الميرة من بلاد الجبة والضنية والزاوية ووادي خالد

---

(١) الخالدي، ص ١٠٤.
- الشدياق، ص ٢٦٣ - ٢٦٥.
- الدبس، يوسف تاريخ سوريا، ج ٧، بيروت، منشورات جوكار ١٩٨٦، ص ١٧٦.
(٢) الخالدي، ص ٢٤٢.

وعكار والحصن والمرقب وصافيتا وجبل الأكراد واللاذقية[1] وبعلبك وقب الياس وبانياس.

في ٢١ تموز ١٦٢٤، توفي يوسف باشا سيفا التركماني منهوك القوى مهيض الجناح سياسياً ومالياً وكان قد بلغ من العمر عتياً، وهو العدو الألد للأمير فخر الدين. وقد تولى طرابلس وعكار سنة ١٥٧٩ وكانت مدّة ولايته حوالى ٤٥ سنة. لقد قضى معظم سني حياته في حروب مع فخر الدين وقد احتمل مشقات كبيرة.[2] تسلّم حكم طرابلس خلفاً له ابنه قاسم الذي حضر من جبلة وأقام فيها وسلّم حصن الأكراد إلى أخيه الأمير محمود وعكار لأخيه الأمير بلك. وكان موت يوسف سيفا الإشارة الأولى لسقوط حكم هذه العائلة في طرابلس وعكار، إذ أن أحداً من أبنائه لم يكن في منزلة أبيه قوّة شكيمة وقدرة على إدارة البلاد التي تولاها.

كان الأمير فخر الدين يومئذ في فلسطين منهمكاً في حرب مع عرب تلك الجهات، فلما بلغته وفاة ابن سيفا، تحرّك فوراً إلى طرابلس ودخلها في شهر كانون الأول وأمعن فيها نهباً وسلباً طيلة أربعين يوماً.[3] وبقي فيها إلى أن أتى والي حلب.[4] وفي العام ١٦٢٥ احتل قاسم سيفا قلعة المرقب فاستنجد والي طرابلس مصطفى باشا اسكندر بالأمير فخر الدين لردع ابن سيفا، فانطلق الأمير إلى قلعتي الحصن والمرقب في عكار، فاسترضوه بأن سلّموه القلعتين المذكورتين، وطلبوا صفاء خاطره، فرضي ومنع عنهم تعديات باشا طرابلس.[5]

لم تدم الهدنة طويلاً بين فخر الدين وأولاد يوسف سيفا، إذ انضمّ هؤلاء في العام

---

(١) الخالدي، ص ٢٤٣.

- الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٣٢١.

(٢) الشهابي، ص ٧١٤.

(٣) مجلّة المباحث ١٩٠٩، ص ٩١٤.

(٤) مزهر، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) بولس مسعد ونسيب وهيبة الخازن - الأصول التاريخية - ج ٣، مكتبة صفير ١٩٥٦ - ١٩٥٧، ص ٣٧٧.

١٦٣٤ إلى والي الشام الكجك أحمد لمحاربة الأمير المعني حرباً انتهت بسقوطه.[1]

٣٢ - معارك الأمير ضد القبائل العربية في فلسطين:

كان الأمير فخر الدين يطمح دوماً إلى ضم فلسطين إلى إمارته، وخاصة أن أمراء منها كانوا يتنازعون سنجقياتها. فسنجقية عجلون يتنازعها إخوان من آل قانصوه: الأمير حمدان حليف فخر الدين والأمير بشير حليف خصمه الأمير أحمد بن طربيه حاكم غزة واللجون. وكان يتنازع سنجقيات حوران والجولان أمراء عرب المفارجة وعلى رأسهم الشيخ عمرو وابنه حسين، حليف الأمير فخر الدين، وعرب السردية وعلى رأسهم الشيخ رشيد حليف الأميرين طربيه وبشير قانصوه خصمي الأمير.[2] وكان منصور بن الفريج حاكم نابلس وصفد وعجلون الخصم الأهم والأخطر بالنسبة إلى فخر الدين. وقد قضى عليه الأمير بمؤامرة العام ١٥٩٣.

أ - حملة عام ١٦٢٣:

١ - معركة فارا (آب ١٦٢٣)

أولاً: أسباب الحملة:

في العام ١٦٢٣ ورد إلى الأمير فخر الدين فرمان سلطاني باسناد سنجقية عجلون إلى ابنه الأمير حسين وسنجقية نابلس إلى مدبره مصطفى، فقرر تنفيذ هذا الفرمان وأرسل حملة عسكرية إلى فلسطين لانتزاع هاتين السنجقيتين من الأمير بشير قانصوه أمير عجلون ومحمد بن فروخ أمير نابلس.

ثانياً: التعبئة والحشد والمهمة:

كلّف الأمير فخر الدين الأمير علي الشهابي حاكم وادي التيم بتعبئة قواته

(١) الخالدي، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.
- الشدياق، ج ١، ص ٢٨٧ - ٢٨٨، ٣٠٧ - ٣٠٨.
(٢) قرألي، ص ١٢٧.
- سويد، ج ١، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.
- الشهابي، ص ٦٢٨.

والاستعداد للتحرك نحو فلسطين واحتلال عجلون يؤازره سكمان صفد ورجال جبل عامل بقيادة طويل حسين بلوكباشي. على أن تجتمع هذه القوى في بقعة جسر المجامع.

توجهت قوات الأمير من جسر المجامع إلى عجلون، فدخلتها من دون قتال، وانتقل الأمير بشير قانصوه إلى جرش ومنها إلى نابلس، حيث تحالف مع متسلم ابن فروخ فيها، فحشدا قواتهما في قرية فارا بجبل عجلون استعداداً لقتال قوات الأمير علي الشهابي وطويل حسين بلوكباشي اللذين قرّرا منازلتهما في فارا نفسها، فتوجها بقواتهما إليها فوصلا إلى ضواحي القرية عند مغيب الشمس.

ثالثاً: القتال:

نشب القتال بين الفريقين عند المساء واستمرّ حتى هبوط الظلام، عندما انهزمت قوات أميري نابلس وعجلون وانسحبت من قرية فارا فسيطرت عليها صباحاً قوات الأمير الشهابي وأحرقتها كما أحرقت قريتي خربة وحلاوة وكانتا من أهم وأقوى قرى عجلون. وصل خبر هذا الانتصار إلى الأمير فخر الدين فأرسل أوامره طالباً تركيز حامية في عجلون والعودة بالقوى الباقية إلى جسر المجامع.[1]

٢ - معركة نهر العوجا (أيلول ١٦٢٣):

باع مصطفى باشا والي الشام سنجقية صفد للأمير يونس الحرفوش أمير البقاع وبعلبك، كما أعاد سنجقية عجلون للأمير بشير قانصوه، مما أثار حفيظة الأمير فخر الدين، فقرر القيام بحملة على هاتين السنجقيتين لاحتلالهما.

أولاً: التعبئة والمهمة:

* قوات الأمير:

- فرقة السكمان، بقيادته.

(١) الخالدي، ص ١٣٧ - ١٣٨.

- الشدياق، ج ١، ص ٢٧٣.

- رجال الشيخ حسين بن عمر والأمير أحمد بن قانصوه والشيخ أحمد الكناني التقوا به عند جسر المجامع.
- قوات الأمير علي الشهابي وطويل حسين بلوكباشي الموجودة عند جسر المجامع.

المهمّة: احتلال سنجقي صفد وعجلون.

مكان التجمّع: جسر المجامع.

* القوات العدوّة:
- قوات الأمير أحمد بن طربيه أمير اللجون، وقوات الأمير بشير قانصوه أمير عجلون.

ثانياً: الاستعداد للقتال:

عيّن الأمير مدبره الحاج كيوان، حاكماً على البقاع وجهّزه برجال من الجرد والمتن، وتوجه بقواته المحتشدة بقيادته من بلدة قب الياس إلى جسر القرعون ومنه إلى مرجعيون فالملاحة فجسر المجامع، حيث التقى هناك بالقوات المحتشدة من أنصاره إلى جانب رجال الأمراء والمشايخ العرب من حلفائه. أعطى الأمير أوامره بدقّة محدداً للقوى المهمات التالية:
- نصوح بلوكباشي مع فرقة لاحتلال برج صيفا.
- كيوان آغا، سوباشي عكا، مع فرقة لاحتلال قرى الكرمل.
- مدبره مصطفى مع عشرة بلوكباشية، لاحتلال مدينة نابلس.
- الأمير فخر الدين مع فرقة السكمان للتمركز بجنين ومعه حوالى ٢٨٠٠ جندي.

عندما علم الأميران أحمد طربيه وبشير قانصوه بحملة الأمير، فرّا إلى منطقة نهر العوجا، قرب غزه، ورحل معظم الأهالي من تلك البلاد خوفاً من حرق المنازل والدمار الذي سيحل بقراهم في حال ابتدأت المعارك. عندها طلب فخر الدين من الأمير علي الشهابي العودة إلى وادي التيم مع رجاله بانتظار أوامر جديدة. ثمّ أرسل مشاة السكمان المتمركزين في جنين إلى صفد اتقاء لأي هجوم يمكن أن يشنّه مصطفى باشا والي الشام وكورد حمزة بلوكباشي، اللذان حشدا قواتهما خارج مدينة دمشق. أما الأمير علي ابن فخر الدين فقد بقي بناء لأوامر والده في بيروت مع رجال الشوف والغرب.

بعدما تزوّدت قوات الأمير فخر الدين بالزاد والمؤونة تقرّر أن تلحق بالأميرين طربيه

وقانصوه إلى نهر العوجا لقتالهما، فأبقى طويل حسين بلوكباشي مع مشاته في جنين وانطلق الأمير بألف وخمسماية خيّال ومعه الشيخ حسين بن عمرو إلى حيث يعسكر عدواه طربيه وقانصوه.

ثالثاً: القتال:

١ - الهجوم المعني:

شنّ الأمير فخر الدين هجوماً مفاجئاً بخيالته على معسكري الأميرين طربيه وقانصوه فهزمهما، وغنم كلّ ما في المعسكرين من أعتدة وأموال ومواش.

٢ - الهجوم المعاكس المعادي والانتصار:

قامت قوات الأميرين بهجوم معاكس على قوات الأمير فخر الدين التي كانت قد انشغلت بالاستيلاء على معسكريهما، لكن الشيخ حسين بن عمرو صدّ الهجوم بعشرين من خيالته، فتراجعت قوات الأميرين تحت ضغط الخيالة متظاهرة أمامها بالهزيمة، وموهمة إياها بأن انسحابها هو انسحاب المنهزمين. ثمّ التفّت فجأة نحو قوات ابن عمرو وقامت بهجوم عنيف وعام، فتراجعت خيالة ابن عمرو وتداخلت في صفوف خيالة السكمان، وقد تبعتها خيالة العدو تطاردها من دون هوادة، حتى وصلت إلى بيارق السكمان الذين ما أن رأوا هزيمة الشيخ حسن حتى ألووا اعنة خيولهم «وميلوا بيارقهم» وولوا هاربين، تاركين وراءهم نحواً من أربعين قتيلاً.

هُزمت قوات الأمير فخر الدين ولم يبق سوى ثلاثين خيالاً وبيرقاً واحداً لم ينكسر، فاحتفظ به. وظلّت القوات العدوّة تطارد قوات الأمير المنكفئة حتى خان جلجوليه، مستعيدة كلّ الاعتدة والمواشي والأموال. ولم تتوقف المطاردة نهائياً إلاّ عند غروب الشمس عند قرية شوكلية، بعدها عاد خيالة ابن طربيه وابن قانصوه ادراجهم من حيث انطلقوا.

وهكذا دبّت الفوضى في قوات الأمير فخر الدين، وخاصة الخيالة، منها رغم محاولته ضبط الصفوف وحثهم على المقاومة وتشجيع المتخلّفين والمتباطئين. تابع الأمير فخر الدين انسحابه مرهقاً ومُشتتاً طوال الليل حتى وصل صباحاً إلى وادي عارة. واستغلّ المسلّحون من قرى نابلس

تـقـهـقـر الـقـوات المعـنـيـة المنـهـزمـة فـراحـوا يهاجمونها ويفتكون بالمتأخرين منها، حتى أتوا على عدد لا يستهان به منهم. فتضعضع المقاتلون ولم يعد في إمكان قادتهم السيطرة على ما تبقى من الجنود. واستمرّت هذه الحال حتى الوصول إلى جنين بسلام.

في هذه الأثناء هاجم الأمير علي طربيه برج حيفا بفرقة من الخيالة، فقضى على حاميتها وقتل نصوح بلوكباشي واحتلّ البلدة والبرج. وأخذ الأمير أحمد طربيه يهاجم بعد ذلك القرى التابعة للأمير المعني فيحرقها ويأخذ طرشها وغلالها.

بـعـدهـا طـلـب الأمير مـن سـكـمـانـه المتمركزين في عجلون ونابلس الانسحاب والعودة إلى جسر المجامع، ومن هناك سار بجيشه من جنين إلى خان عيون التجار وسمح للشيخ حسين بن عمرو وبالعودة برجاله إلى بلاده في حوران. ثمّ تابع سيره إلى المنية ومن هناك طلب من حاميته في صفد الالتحاق به إلى بركة الملاحة، ليعود إلى إمارته منهزماً، بحيث يعيد تنظيم صفوفه ويحاول بعد فترة وجيزة، احتلال فلسطين من جديد.[1]

ب - حملة العام ١٦٢٤ (حزيران تموز):

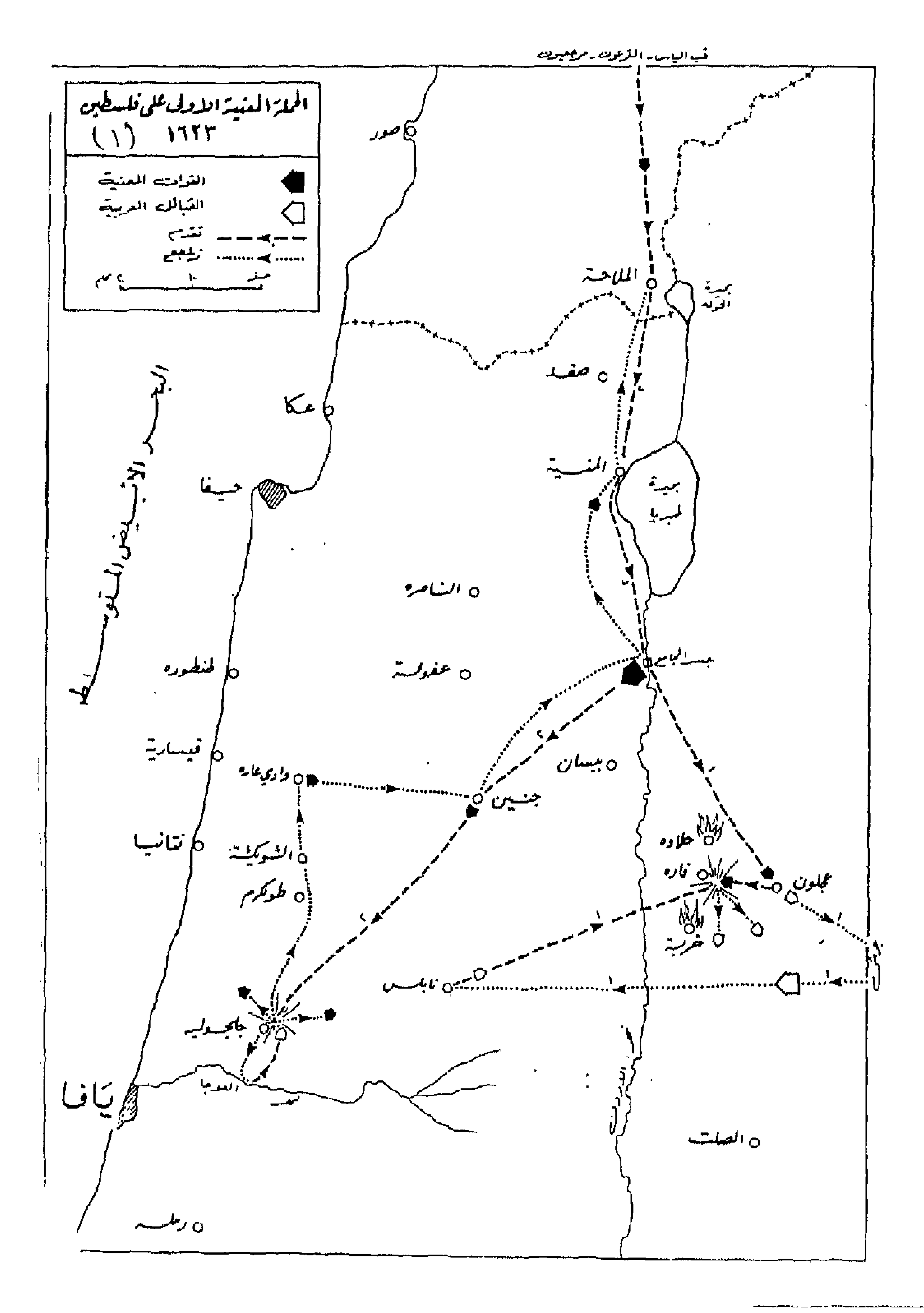
أولاً: الأسباب:

عاد الأمير فخر الدين منهزماً من فلسطين وراح يعيد تنظيم جيشه وصفوفه لإعادة احتلالها مجدداً، ولمحو العار الذي لحق به في العام المنصرم. خاصة أن انتصاره في عنجر ونيله لقب «سلطان البر» و«أمير عربستان» قد أعطياه زخماً جديداً وأعاد إلى جيشه معنوياته التي كانت قد انهارت بعد هزيمته في معركة «نهر العوجا». لذلك راح يعمل بكلّ جدّ وكدّ ويعدّ العدّة للانتقال بقواته لاحتلال فلسطين وضرب أعدائه هناك الضربة القاضية والنهائية وإنشاء إمارة عظيمة طالما حلم ويحلم بها هو ومواطنوه. «ويقال إن الأمير كان يرنو إلى سنجقيات فلسطين بعين

(١) الخالدي، ص ١٣٩ - ١٤٢.
- الشدياق، ج ١، ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

خارطة رقم ٦

الحملة المعنية الأولى على فلسطين ١٦٢٣[١]



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٢٩١.

الشوق ليقترب من القدس، فيطوّقها ويحلّ أمير توسكانا حليفه فيها، ويستعين به على الدولة العثمانية... واكتفى بأن يكون له في هذه السنجقيات حلفاء يجارونه في أغراضه ويتلقون صدمات أعدائه الأولى».(1)

ثانياً: الاستعداد للقتال وتوزيع المهمات:

في الأول من حزيران ١٦٢٤ انتقل الأمير فخر الدين بجيشه من مرج عدوس إلى الكرك بالبقاع، ومنها إلى جسر قبر العباس فمرج الشمسية بطرف وادي التيم فمرجعيون، حيث انضمّ إليه الأمير علي شهاب برجاله وانتقلا سوية إلى بركة الملاحة في سنجق صفد.

في بركة الملاحة وزع الأمير الذخيرة والمؤن والعتاد اللازم لمدة ٤ أيام قتال ثم قسّم قواته إلى قسمين:

أ - الفرقة الأولى: تألّفت من خيالة السكمان وخيالة العرب بقيادة الأمير أحمد شهاب يعاونه ابن أخيه الأمير محمد بن علي شهاب على أن ينضم إليهما الشيخ حسين بن عمرو من الجولان. ومهمة هذه الفرقة كانت احتلال سنجق عجلون.

ب - الفرقة الثانية: تألّفت من مشاة السكمان ومشاة العرب بقيادة الأمير علي بن فخر الدين على أن ينضم إليها الشيخ أحمد الكناني برجاله.

ج - القيادة العامة: القائد العام الأمير فخر الدين مع الفرقة الأولى.

ثالثاً: السير نحو القتال والتماس:

١ - الفرقة الأولى:

سارت الفرقة الأولى وعلى رأسها الأمير نفسه من بركة الملاحة إلى جسر بنات يعقوب في الحولة، حيث انضمّ إليها الشيخ حسين بن عمر، مع جنوده وخيالته التي اصطدمت بطلائع قوات الشيخ رشيد الحياري والأمير بشير قانصوه حاكم عجلون في بلدة السخرية. وكانت هذه الطلائع مؤلّفة

(1) قرألي، ص ١٢٦.

من عشرين خيالاً بامرة الشيخ رشيد نفسه وانتهى الاصطدام بهزيمة الطلائع وهروب حكام عجلون من البلاد كلها.

ترك الأمير المعني في مدينة عجلون حامية بقيادة طويل حسين بلوكباشي مع خمسة قادة من رتبته، ثمّ انتقل إلى قلعة الصلت حيث ترك فيها حامية بقيادة والي حسين بلوكباشي. وأرسل إلى نابلس حامية من رجاله بقيادة عبدالله بلوكباشي، ووضع عليها متسلّماً من قبل مدبره مصطفى ثمّ أعطى أمراً إلى الأمير علي المعني بالرحيل بجميع المشاة إلى منطقة الفاطور في غور بيسان حيث تكون نقطة الالتقاء به.

٢ - الفرقة الثانية:

انتقلت هذه الفرقة من بركة الملاحة إلى المنية، ومنها إلى جسر المجامع، حيث انضمّ إليها الشيخ أحمد الكناني بجنوده كما هو متفق عليه وانتظر الأمير علي هناك أوامر والده الجديدة فوصلته بأن ينتقل بفرقته إلى الفاطور، فنفذ فوراً والتقت الفرقتان استعداداً للمرحلة المقبلة من القتال.

رابعاً: احتلال بلاد عجلون ونابلس:

من الفاطور، نقطة التجمّع، انتقل الجيش بكامله إلى جنين، وفور توقف الأمير فخر الدين هناك وصل كلّ مشايخ نابلس وبلاد حارثة وزعمائها وقدّموا الخضوع والطاعة للأمير، وفرّ منها قبل وصول الجيش المعني، محمد بن فروخ وأنصاره وانكشارية نابلس وشيطان إبراهيم بلوكباشي متسلمها من قبل ابن فروخ، إلى جهة القدس والرملة. كما فرّ الأمير أحمد بن طربيه أمير بلاد حارثة إلى جهة الرملة أيضاً ونزل عند عرب السوالمة حلفائه. لقد احتلّ الأمير عجلون ونابلس دون قتال يذكر.

خامساً: متابعة التقدّم في فلسطين:

ترك الأمير حامية في جنين مؤلّفة من بلوكباشي وثلاثين نفراً، وانتقل من هناك نحو اللجون، ومنها إلى قاقون وام العلق حيث تزوّد بالمياه والمؤن لمتابعة القتال.

في هذه الأثناء حاول أحمد بن طربيه أن يفاوض الأمير طلباً للصلح، وراسل في هذا الشأن الأمير علي المعني والأمير أحمد

شهاب ومصطفى مدبر الأمير، لكن فخر الدين أصرّ على أن يأتي ابن طربيه صاغراً بلا شروط الأمر الذي رفضه ابن طربيه. فتابع الأمير تقدّمه في البلاد ورحل من ام العلق إلى مزار سيدي علي بن عليل ومنها إلى مدينة ارسوف الخراب فأبقى في برجها حامية مؤلّفة من بلوكباشي وعدد من الجنود وتابع سيره حتى وصل إلى ضفاف نهر العوجا فعسكر هناك.

سادساً: معركة نهر العوجا:(١)

عسكر الأمير فخر الدين على الضفة الشمالية للنهر، بينما عسكر ابن طربيه على ضفته الجنوبية في اتجاه يافا. وكانت دوريات ابن طربيه تتجوّل في شكل مستمر نحو الشمال لتستطلع قوات الأمير فخر الدين. وفي أحد الأيام اصطدمت بفرزة من الجيش المعني كانت قد اجتازت النهر نحو الجنوب بحثاً عن مراعي لخيلها فجرت بين الفريقين مناوشات انتهت بأن جرّت الجيشين إلى المعركة الحاسمة.

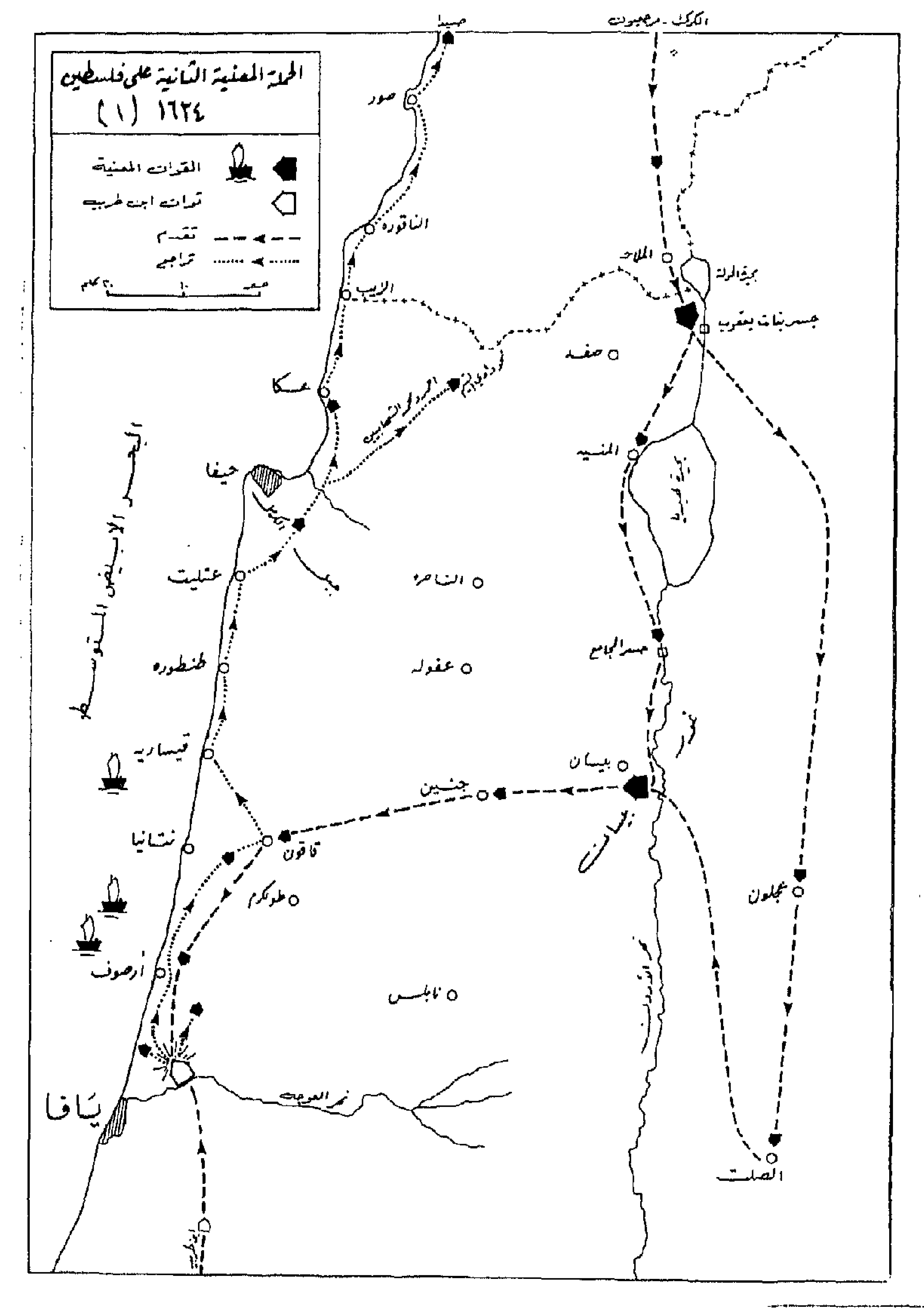
قرّر فخر الدين فصم القتال وإعادة المقاتلين إلى معسكرهم، فأرسل الأمير علي والأميرين أحمد ومحمد شهاب لاجتياز النهر مع خيالتهم لاستطلاع وتنفيذ الفصم لأن الأمير لم يكن قد قرّر بعد خوض المعركة. ذهبت القوّة لتنفيذ المهمّة إلاّ أنهما، بدلاً من أن تفصم القتال وتسحب المقاتلين إلى ما وراء النهر تابعت القتال، خاصة أن قوات ابن طربيه أخذت تتراجع أمامهم تراجعاً تكتياً لم يكتشفه قادة الأمير، فتوغلوا في صفوف أعدائهم حتى كادوا يصلون إلى قوى احتياط جيشهم. في هذه الأثناء انطلقت قوة الاحتياط هذه في جيش ابن طربيه بهجوم معاكس على طليعة القوات المعنية، ثمّ التفّت على خيالة الأميرين الشهابيين التي كانت توغّلت في صفوف العدو، فصعقتهما المفاجأة وغادرت أرض المعركة هاربة رغم محاولة الأمير علي المعني ضبط الصفوف ما أمكن.

ثمّ قرّر التصدي للمطاردين لوقفهم ولحماية مؤخّرته، فارتقى تلّة من الرمل مع

(١) المحبي، ج ٣، ص ٣٢١.

خارطة رقم ٧

الحملة المعنية الثانية على فلسطين ١٦٢٤[1]



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٢٩٤.

من بقي معه من المشاة والخيالة وتبعه الأميران الشهابيان بمايتي خيال، وتمركز رماة البنادق على التل وأخذوا يصدّون بنارهم القوات المطاردة حتى تمكنوا من وقفها وصدّ القوات المهاجمة التي انكفأت بعدما غنمت خيل القتلى من المعنيين الذين بلغوا عشرين قتيلاً من المشاة والخيالة.

رغم كلّ ذلك فقد دبّت الفوضى في القوات المعنية، ولم يحسّن وجود الأمير فخر الدين على التلة الرملية الأمور إطلاقاً، إذ رفض الجنود الأوامر المعطاة من الأمير علي للعودة إلى القتال. اغتنم ابن طربيه هذه الفوضى فشنّ هجوماً قوياً على التلّة الرملية جعل الأمير فخر الدين ورجاله ينهزمون من هناك. رغم بسالة فخر الدين ومحاولة رأب الصدع فقد تمكّن من ضبط مؤخّرة جيشه ما أمكن ومن تنظيم تراجعه حتى وصل الجميع إلى معسكرهم في الضفة الشمالية للنهر متعبين منهوكي القوى. وقد خسرت القوات المعنية حوالى المئة والخمسين قتيلاً، أما خسارة ابن طربيه فكانت نحو عشرة من الخيالة فقط بينهم الأمير غرار طربيه.(١)

اجتازت قوات ابن طربيه وابن فروخ نهر العوجا وتمركزت على الضفة الشمالية للنهر مقابل معسكر الجيش المعني، وذلك مساء يوم القتال نفسه. بات الجيش المعني ليلته هناك وعند الفجر بدأ انسحابه نحو الشمال بالترتيب التالي:

- في الطليعة: رجال البلاد المؤلّفة من الأمير علي المعني وجنوده والأميرين الشهابيين وجنودهما بقيادة الأمير علي نفسه.
- في القلب: فرقة السكمان - خيالة ومشاة بقيادة الأمير فخر الدين نفسه.
- في المؤخّرة: الأمير فخر الدين وقيادته وكان خط السير كما يلي:
- للمقاتلين: تلال الرمل المطلّة على البحر والمسماة بحيطان الشباك.
- للاثقال: شاطىء البحر غربي تلال الرمل بحيث تصبح الأثقال تحت حماية الجيش مباشرة.

---

(١) الخالدي، ص ١٨٨ - ١٨٩.

أثناء انسحاب القوات المعنية في اتجاه الشمال، تعرّضت لهجوم شنّته عليها قوات ابن طربيه وابن فروخ وعرب العايد وعرب غزة وسواهم، خيالة ومشاة قدّر عددهم بحوالى الألفي رجل. هاجم هؤلاء الطليعة والقلب والمؤخّرة، إلاّ أن قوات الأمير فخر الدين استطاعت أن تردّ هذه الهجمات العدوّة التي تحوّلت في ما بعد إلى نوع من تحرّشات الازعاج للجناح المعني الأيمن. ثمّ تابع الأمير تحرّكه مستعملاً النار والحركة مستنداً لاسطوله البحري الصغير لحماية عناصر الأثقال، وقد استعمل نيرانه مرّة عندما حاول العدو سلب بعض المؤن القريبة من الشاطىء كما حاولت فرقة من قوات العدو أن تتجاوز قوات الأمير إلى برج ارسوف لتحتلّه وتقطع عليه الطريق، إلاّ أنها فوجئت بالحامية التي كان الأمير قد أبقاها بالبرج، فعادت أدراجها. وظلّ الأمير على هذه الحال حتى وصلت قواته إلى برج ارسوف فتمركزت حوله بينما تمركزت قوات العدو عند مزار سيدي علي بن عليل قبالة عسكر الأمير.

بعد مدّة وجيزة تابع فخر الدين سيره نحو الشمال وتمكّن من مهاجمة المطاردين لقواته وهزيمتهم وردّهم على أعقابهم «مقدار رمية سهم»، وتوقّف القتال وتوقّفت المطاردة، وتابعت قوات فخر الدين انسحابها على مهل من دون عوائق. وصل الأمير عند الغروب إلى بلدة «أم علق» فاستراح ساعة وتابع انسحابه حتى وصل إلى نهر قاقون قبل منتصف الليل حيث استراح. وفي الصباح تابع سيره إلى مدينة «قيسارية»، فوصلها ظهراً وبات ليلته هناك، ثمّ تابع السير صباحاً فوصل إلى مدينة «عتليت الخراب»، فجبل الكرمل ونهر السعادة حيث عسكر لمدّة ثلاثة أيام، وطلب من الأمراء الشهابيين العودة مع قواتهم إلى وادي التيم وذلك في حزيران ١٦٢٤. وفي الأول من تموز تابع سيره، ووصل إلى «طواحين كردانة» على ساحل عكا فعسكر يومين. في هذه الأثناء وصله نبأ استسلام حامية جنين إلى قوات ابن طربيه فانتقل إلى عكا ومنها إلى الناقورة فصور، فصيدا حيث وصلها فجر الأحد في ٧ تموز ١٦٢٤.[1]

---

(١) الخالدي، ص ١٨٣ - ١٩٥.

- الشدياق، ج ١، ص ٢٨٢ - ٢٨٥.

سابعاً: نتائج الحملة:

أسفرت حملة الأمير فخر الدين على فلسطين عن هزيمة منكرة لقواته، مما اضطره إلى عقد اتفاق مع ابن طربيه ينص على ما يأتي:

أ - يسحب الأمير المعني حاميته من برج حيفا ويسلّمه إلى ابن طربيه.

ب - يتوقّف الأمير ابن طربيه عن مهاجمة بلاد صفد التابعة للأمير فخر الدين ويمنع رجاله عن التخريب في هذه البلاد كما فعل سابقاً.

ج - تُحلّ كلّ الخلافات بينهما في ما بعد بالتفاهم والتصافي.

وقد هدم ابن طربيه برج حيفا بعد خروج حامية المعني منه وأصبحت الطرق آمنة بين بلاد حارثة وصفد.(١)

٣٣ - معارك الأمير ضد الأمراء آل حرفوش:

في العام ١٥٩٠ كان ابن الفريخ «البدوي» ضاغطاً على البقاع والجليل وعجلون ونابلس محاولاً خنق أمير الشوف الشاب فخر الدين المعني الثاني وهو لا يتجاوز آنذاك الثامنة عشرة من عمره. وكانت التحالفات بين ابن الفريخ ويوسف باشا سيفا حاكم عكار على اهلاك الأمراء اللبنانيين وابتلاع مقاطعاتهم، لكن المعني الشاب توصّل بذكائه ورؤيته المستقبلية إلى «أن يجمع عليهما المبغضين والمزاحمين وطلاب الثأر أو الغنيمة، فأصبح لديه فجأة، وبلا نفقة، جيش قوي ان لم يعادل جيشهما عدداً وعدّة فانه فاقهما ببأس قائده ويقظته».(٢)

لقد كانت علاقة فخر الدين مع أمراء آل حرفوش حكام البقاع وبعلبك منذ ١٥٩٠ تراوح ما بين التحالف والتخاصم. ففي السنة ١٥٩١ قضى على الأمير علي بن موسى الحرفوش حاكم بعلبك الذي كان خصماً له ونصّب مكانه ابنه الأمير موسى الذي شايعه خوفاً منه، كما قضى على الأمير منصور ابن الفريج أمير البقاع العام ١٥٩٢ ثمّ صاهر الحرفوشيين وسلّمهم حكم البقاع.

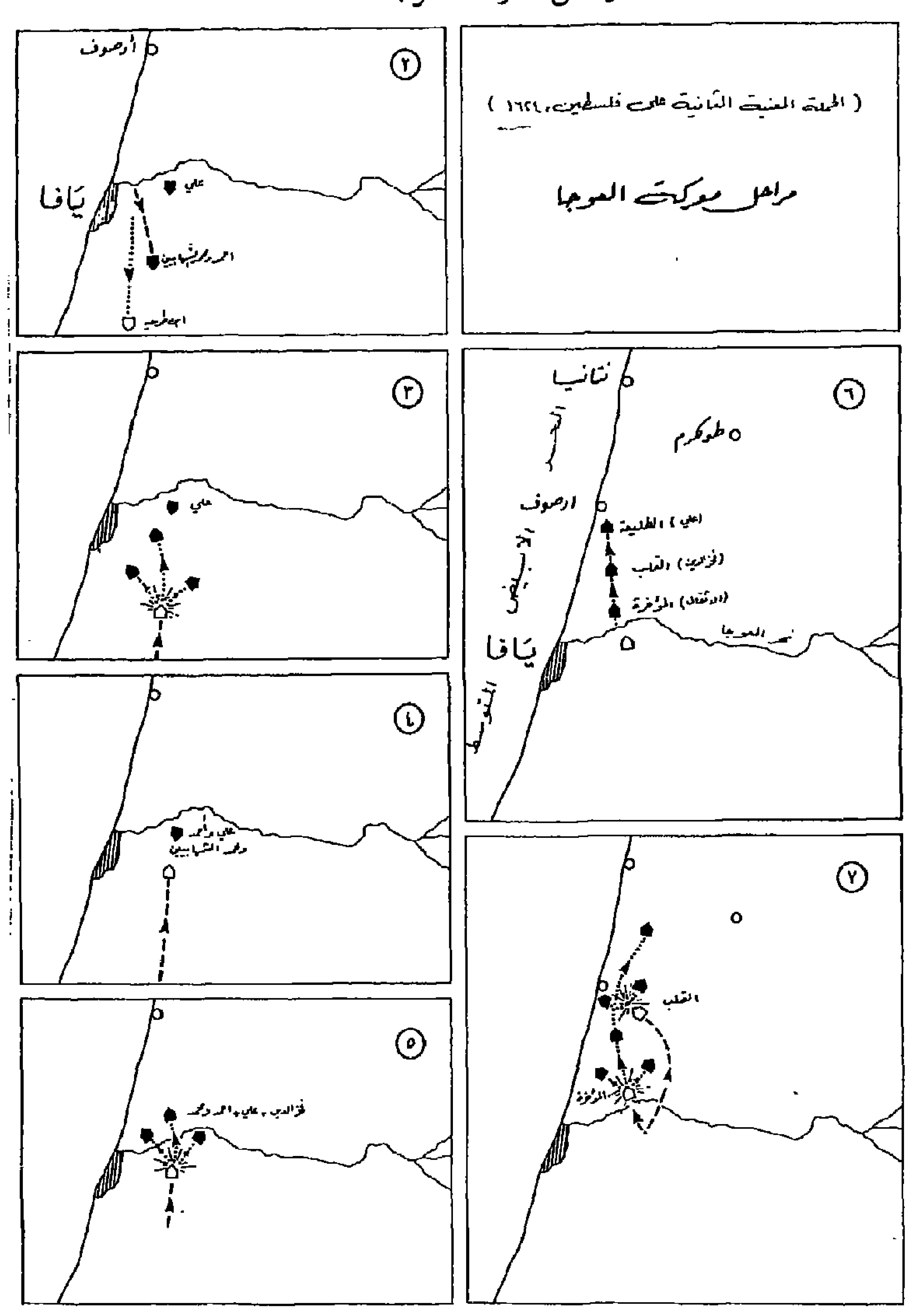
---

(١) الخالدي، ص ١٩٦ - ١٩٨.

(٢) قرألي، ص ٩٤.

خارطة رقم ٨

مراحل معركة العوجا(١)



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٢٩٩.

حتى العام ١٦١٣ بقي الأمير فخر الدين على وئام تام مع أمير الحرافشة، ولم يتبدّل هذان الوئام والوفاق إلاّ عندما تخلّى الأمير يونس الحرفوش أمير البقاع عن الأمير المعني نتيجة معرفته بأن الدولة العثمانية جادة في محاربة الأمير فخر الدين وكسر شوكته نهائياً. لذلك كان يتصل سراً بوالي الشام حافظ باشا إلى أن ابتدأت الحملة العسكرية العثمانية على إمارة الشوف، فانضمّ الأمير يونس إلى قتال ابن معن بجانب الوالي المذكور وحارب معه في قلعة الشقيف. وقد انتهت هذه الحملة الكبيرة بهزيمة منكرة للأمير اللبناني وفراره إلى إمارة توسكانا وبقائه في الغرب مدّة خمس سنين، تاركاً حكم الإمارة اللبنانية لولده الأمير علي وشقيقه الأمير يونس.

في السنة ١٦٢٣، حالف الأمير يونس الحرفوش والي الشام مصطفى باشا ضد الأمير فخر الدين في معركة عنجر الشهيرة والتي انتهت بانتصار ابن معن انتصاراً كاسحاً وأسر الوالي المذكور. وقد دفع الأمير يونس غالياً ثمن خصومته للأمير، في الكرك وسرعين العام ١٦٢٢ قبل معركة عنجر، وفي بعلبك واللبوة العام ١٦٢٣ بعدها.(١)

أ - معركة الكرك وسرعين (١٦٢٢):

قبل وقوع هذه المعركة بين الأمير المعني ووالي الشام مصطفى باشا كان فخر الدين قد اختلف مع الأمير يونس الحرفوش بسبب منع الأخير رعايا الأمير عن الزراعة في البقاع ومصادرته أراضيهم واقطاعاتهم هناك. في هذه السنة قرّر والي الشام مصطفى باشا مهاجمة الأمير فخر الدين والقضاء عليه، فبدأ استعداداته، عبأ جيشه وطلب من حلفائه آل سيفا في عكار والحرافشة في البقاع مناصرته فساروا إليه برجالهم. قبل فخر الدين هذا التحدي وقرّر مواجهة الوالي، واختار بقعة عنجر مكاناً لهذه المواجهة، وكان أنذاك يقوم بعملياته العسكرية في فلسطين ضد حكام نابلس وعجلون. وكما ذكرنا انتقل بقواته من «بركة الملاحة» في فلسطين إلى ساحة القتال، مروراً باطراف الجنوب

(١) المعلوف، ص ١٨٣.

اللبناني الشرقية والبقاع الغربي والبقاع.

وكان الأمير الحرفوشي قد ترك حامية عسكرية في قرية «كرك نوح» بالبقاع، مؤلّفة من حوالىماية مقاتل مزوّدين بالأسلحة الفردية، فاقتحمت قوات الأمير فخر الدين البلدة المذكورة وقضت على هذه الحامية بواسطة الفي من الخيالة وبلغ عدد قتلى العدو ما يقارب الأربعين. فيما لجأ الباقون إلى مئذنة مزار النبي نوح فأمنهم الأمير على حياتهم وأخذهم أسرى، ثمّ أمر بحرق القرية بكاملها ولم يسلم فيها بيت واحد. بعد ذلك انتقل الأمير إلى سرعين، المسكن القديم لآل حرفوش، فأحرقها، كما أحرق القرى المجاورة للبلدتين المذكورتين، مما اضطر رجال آل حرفوش إلى اللجوء إلى مدينة بعلبك وقلعتها.[1]

لم يترك الأمير المعني حرية الحركة للحرافشة، فلحق بهم إلى بعلبك للقضاء عليهم واحتلال المنطقة.

ب - حصار قلعة بعلبك (١٦٢٣ - ١٦٢٤):

اضطر الأمير فخر الدين إلى منازلة والي الشام مصطفى باشا في البقاع فانتصر عليه انتصاراً ساحقاً في بلدة عنجر في الأول من تشرين الثاني العام ١٦٢٣، بعدها توجّه إلى بعلبك لقتال الأمير يونس الحرفوش الذي فرّ إليها بعد هزيمته مع حليفه الوالي. وقبل وصوله فرّ الأمير الحرفوشي إلى مدينة حلب تاركاً في كلّ من قلعتي بعلبك واللبوة حامية قويّة من سكمانه. لدى وصول الأمير إلى القلعة، أمر بضرب الحصار عليها وكان ذلك في كانون الأول ١٦٢٣. ونصب خيمته الشخصية في الخندق جانب السور القبلي ليمنع دابر العدو ويقمعه، وذلك عندما رأى تكاسلاً وإهمالاً في تنفيذ الحصار، وهذا أمر ملفت من قبل أمير انتصر على الوالي العثماني انتصاراً ساحقاً قبل فترة وجيزة من الزمن،[2] ولكن ربما تحدث أمور مثل هذه

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٤٦ - ١٤٧.
- الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٤.

(٢) الخالدي، ص ١٦٠ - ١٦١.

عندما يقاتل الحاكم بواسطة مرتزقة غرباء عن الوطن الأم بعاطفتهم ووجدانهم. بدأ الحصار وبدأ تنفيذ المراكز التي تحيط بالقلعة احاطة السوار بالمعصم الشكل الذي لا يسمح لأي رجل من السكمان بالخروج منها في الليل أو النهار. ثمّ ركّز الأمير جداراً واقياً يحجب بواسطته جنده عن أنظار العدو ومدى رماياتهم كي يتمكّنوا من متابعة الحفر والنقب وإنشاء الخنادق والدروب «الموصلة إلى داخل القلعة». وهذا الجدار كان مؤلفاً من صناديق من الخشب يملأها الجنود بالأتربة وترصف فوق بعضها البعض. وبقي العمل مستمراً إلى أن وصلوا إلى حائط القلعة من الجانب الغربي عندها أعطي أمراً للنقابين بالعمل على نقب هذا الجدار بغية فسح المجال لفتح ثغرة مناسبة للدخول منها إلى الفناء الداخلي للقلعة والسيطرة التامة عليها. وقد نفّذ هؤلاء عملهم بأقصى السرعة والدقة وعملوا ليلاً نهاراً من دون ملل أو إبطاء، رغم الصعوبات التي واجهتهم من تساقط الحجارة «والبندق» عليهم من السكمان داخل القلعة. وقد قتل من جراء ذلك عدد لا بأس به. كان الأمير إلى جانب هؤلاء يعطي أوامره ويحث الجميع على بذل الجهود للانتهاء في هذا العمل المضني. والمعنويات في مثل هذه الحالات وتحت ضغط نيران العدو، شيء أساسي ومهم لربح المعركة والنصر النهائي.[1]

من الطبيعي أن يمنع الحصار المفروض على القلعة إدخال أي شيء إلى داخلها مهما يكن ضئيلاً أو خروج أي إنسان من داخلها. فقد نفذت المؤن الموجودة والمخزّنة لدى السكمان «فجرشوا الحنطة وخبزوها على زبل الخيل»[2] لاحتياجهم إلى الحطب والذي أصبح نادراً، فالطقس كان بارداً والتدفئة غير متوافرة بسبب ندرة الفحم والحطب، مما زاد في مشقّة المدافعين. وقد أثّر ذلك في معنويات المقاتلين جميعاً. كان الحصار شديداً ومحكماً فمنع عن المحاصرين إمدادات، سواء بالرجال أو العتاد ولم «يبق

(١) الخالدي، ص ١٦١.

(٢) الخالدي، ص ١٧٢.

عندهم شيء يؤكل» رغم محاولات بعض الأعداء التسلل من وإلى القلعة.

إلى هذا الحصار، لم يألُ الأمير المعني جهداً من التفاوض مع الأعداء للاستسلام بغية وضع حدّ للخسائر البشرية من الجهتين ولتقصير مدّة الحصار والانتقال إلى معركة جديدة وحصار آخر هو حصار قلعة اللبوة في البقاع.

في نهاية الأمر اقتنع المحاصرون بعدم جدوى الصمود في وجه حصار لن يفكّ مهما كانت الظروف والأحوال، فالأمير فخر الدين ذو شكيمة وعناد لا تنفع معهما الحيل وعضّ الأصابع. ففي الأول نيسان ١٦٢٤ خرج عدد من السكمان المحاصرين ليفاوضوا الأمير، فأحسن معاملتهم وطمأنهم على حياتهم. هم استسلموا طوعاً وإلاّ فالدمار الأكيد والموت المحتّم. حملوا هذه الشروط وعادوا إلى القلعة. وفي الثامن منه فتح السكمان باب القلعة الأساسي وخرجوا منه مستسلمين فحماهم فخر الدين وأدخلهم في خدمته فوراً.

دام الحصار حوالى الأربعة أشهر فقد خلالها المعنيون حوالى الأربعين من سكمانهم ونقابيهم، ثمّ أمر بهدم القلعة، وكان هذا العمل عادة تلك الأيام، وقد استعمل لذلك حوالى مابة وخمسين معلماً ونقاباً.[١]

ج - حصار اللبوة في بلاد الهرمل:

أثناء حصار الأمير لقلعة بعلبك، أرسل إلى حامية اللبوة يطلب منها الاستسلام فأبت، ولم يقبل سكمانها هذا الطلب وادعوا أنهم مكمّلين لسكمان قلعة بعلبك «وتوابع لهم فإذا سلّموا سلّمنا».[٢] عند ذلك أخذ يشدّد الحصار على قلعة بعلبك حتى سقطت، فانتقل بقواته فوراً إلى اللبوة وكان عديد سكمانه أربعة آلاف وخمسماية مقاتل يقودهم ثمانون «بلوكباشياً». وما أن بدأ الحصار وتأكّد الأميران علي وحسين ابنا الأمير يونس الحرفوش من إصرار الأمير ونيّته الفولاذيّة

(١) الخالدي، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٧.

والتي لا تحمل الخطأ على احتلال القلعة ومن عدم جدوى المقاومة والصمود في وجه رجل كان قد ربح معركة عنجر وأسر والي الشام العثماني قبل مدّة وجيزة من هذا التاريخ، حتى جاءا يفاوضانه على الصلح والسلام ورفع الحصار وحقن الدماء لقاء مبلغ من المال، لم يعرف المؤرّخون مقداره، فرضي فخر الدين بذلك ورفع الحصار عن اللبوة.(١)

(١) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨١.

الفصل التاسع

معارك الأمير فخر الدين الثاني المعني (الحروب الدفاعية)

١ - توطئة

لقد ثبت أن أمراء لبنان جميعاً كانوا من أبنائه، ومستقلين في حكم مقاطعاتهم يتوارثونها أباً عن جد، بينما كانت البلدان المحيطة بإمارة المعنيين رازحة رأساً، من جهة تحت ضغط النير العثماني، يحكمها ولاة أجانب توفدهم الاستانة كموظفين مؤقتين، لا يعرفون لغة البلاد وأحوالها، همهم الدؤوب جمع الضرائب والميرة وربح وسرقة الأموال الطائلة، ومن جهة ثانية، تحت حكم أمراء من قبائل عربية ضاربة في تلك الأصقاع، همهم ظلم الرعية معنوياً ومادياً تنفيذاً لأوامر الولاة الاتراك. فلا عدالة في حكمهم وأحكامهم، والحكم وراثة، والقوانين عادات وتقاليد بالية قديمة قدم وصولهم إلى تلك المناطق. لقد كانوا عملاء لموظفي سلطنة آل عثمان التي بقيت في ديارنا تحكمنا ونحن أذلاّء مدّة أربعماية سنة ونيف.

أمام هذا الواقع الأليم قرّر الأمير فخر الدين أن يقاوم وان لا يكون عميلاً للسلطنة مهما عظم شأنها وشأوها، لذلك قضى في الحكم ثلاثة وأربعين عاماً، كانت في معظمها، صراعاً مستمراً بينه وبين خصومه، عثمانيين وغير عثمانيين. وكان سبب ذلك طموحه في التوسّع وحبّه للسيطرة ورغبته في بناء إمارة قوية مرهوبة الجانب ضمن السلطنة العثمانية أو خارجها وقد استعمل في سبيل ذلك «السيف والعطاء السخي». لقد استولى عنوة على المقاطعات التي تحيط بإمارته ووحدها بالسيف أما الولايات وسنجقياتها فقد

اشتراها من الدولة العثمانية بالمال، لأنها كانت تباع كالسلع في أسواق الإستانة لمن يزيد في العطاء، وهذه ميزة ذلك العصر، دفع أجدادنا ثمنها غالياً من أرواحهم في هذا الشرق الحزين، وقد تفشّت هذه الميزة حتى أصبحت عادة متأصّلة في نفوسنا حتى يومنا هذا، وكلمتا «برطيل» و«بخشيش» لا تزالان تتصدّران كلّ معاملة مالية، صغيرة كانت أم كبيرة عندنا.

لقد كان صراع الأمير فخر الدين مع الدولة العثمانية أهم الصراعات جميعاً، فهي الدولة المستعمرة ذات النفوذ والسطوة في كلّ حين، انكشاريتها وسكمانها جاهزون للقتل والتدمير والظلم أيضا في كلّ حين. لقد كان صراعه صراعاً قاسياً وشاقاً، لم ينته إلاّ بانتهاء الأمير نفسه. ويكفي أن نقف عند ثلاثة محطات رئيسية من هذا الصراع المرير حتى نرى القساوة والظلم:

١ - الحملة العثمانية الأولى على الأمير ١٦١٣ - ١٦١٤.

٢ - معركة عنجر مع والي الشام ١٦٢٣.

٣ - الحملة العثمانية الثانية على الأمير ١٦٣٣.

٢ - الحملة العثمانية الأولى (١٦١٣ - ١٦١٤)

٢١: الأسباب:

إذا بحثنا عميقاً في تاريخ الإمارة المعنية. وتاريخ فخر الدين بالضبط، تبرز لنا بوضوح أسباب غير مباشرة وأخرى مباشرة، أما غير المباشرة فهي تعاظم طموح فخر الدين إلى درجة أصبح معها يشكّل بتحالفاته الإقليمية والاوروبية، خطراً على نفوذ السلطنة العثمانية في بلاد الشام، تلك السلطنة التي كانت سيّدة الشرق المطلقة، «يرتعش لذكرها أمراء اوروبا أنفسهم، مع ما بلغوا إليه من الحول والطول» فكان على الأمير للوصول إلى طموحه أن يلجأ إلى التسلّح والتحصن والتآمر سراً، وإلى المداهنة ظاهراً. ورغم أنه كان يتحاشى المجازفات بلا طائل، فقد وقع بالمحظور بالنسبة للدولة العثمانية.[1]

---

(١) قرألي، المصدر السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

منذ تسلّمه الإمارة العام ١٥٩٠، مدّ الأمير جسوراً حميمة بينه وبين علي باشا جنبلاط والي حلب القوي والخصم اللدود للدولة العلية. وقد سانده ونصره ضد يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس وسردار الجيش الشامي في عراد العام ١٦٠٦. وكما ورد سابقاً في معرض كلامنا على معارك فخر الدين الداخلية. وقد انتصرا ولحقا بالجيش المنهزم إلى دمشق عاصمة الولاية فدخلاها وأعملا فيها نهباً وتقتيلاً.

بعدما قضت الدولة على علي باشا جنبلاط المتحالف أصلاً مع دولة توسكانا، أكمل فخر الدين مدّ يده لمحالفتها بدوره، وكانت توسكانا من أشد خصوم السلطنة آنذاك، فمدّته بالسلاح والذخيرة والعتاد والخبراء العسكريين لصنع المدافع وصيانة القلاع والحصون، مما عزّز قواته المسلّحة وذلك بقصد تشجيعه على الوقوف بوجه الدولة العثمانية وبذلك تجد نقطة ارتكاز لتنفيذ مآربها مع بعض الدول الاوروبية مثل اسبانيا وفرنسا والفاتيكان[1] في المشرق.

إذا عدنا إلى معرفة الأسباب المباشرة نرى أن فخر الدين قد ركب رأسه، معتداً بقوة جيشه وقلاعه وحصونه المزوّدة بالمدافع التوسكانية والخبراء في صبّها وفي صنع ذخيرتها ولم يعد يحسب لأوامر الدولة أي حساب.

ففي العام ١٦١٢ ساند شيخ عرب المفارجة، الشيخ عمرو بن جبر الحياري وأحد أمراء عرب فلسطين حمدان قانصو ضد أحكام السلطنة التي نفذها والي الشام حافظ باشا بأن طرد الأول من بلاد حوران وسلّمها إلى الشيخ رشيد شيخ عرب السردية، وطرد الثاني من عجلون وسلّمها إلى الأمير فروخ ابن عبدالله. لجأ الاثنان، بعد طردهما إلى الأمير فخر الدين مستنجدين به، ليردّهما كلّ إلى إمارته، فانجدهما بابنه علي على رأس جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بين راجل وخيال. وقد التقت هذه القوّة بجيش الشام في المزيريب في حوران فقضت عليه واستولى الأمير علي على «جميع الطبول وزمور وبيارق فروخ

(١) الخالدي، ص ٩.

بك».[1] وقد حاول جيش الشام أن ينظّم صفوفه لاحقاً في بصرى لكن الأمير علي لحق به بعدما أنجده الأمير فخر الدين بحوالى عشرة آلاف مقاتل من الإمارة، فانسحب جيش الشام من هناك واجتاحت القوات المعنية بلاد حوران والجولان واخضعتهما لسلطة الأمير المعني وسلطة حلفائه من أمراء العرب في فلسطين.

استاءت الاستانة من هذه الانتصارات وقد وصلت أخبارها مضخّمة نوعاً ما «تغلّب المعني على بلاد حوران والجولان وأنه محاصر لمدينة دمشق».[2] كلّ هذه الأسباب البعيدة والقريبة كانت السبب باستصدار قرار من السلطان العثماني بالتخلّص من ابن معن قبل أن يستفحل أمره ويصبح التخلّص منه أمر صعباً وعسيراً، لذلك جهّزت حملة عسكرية للقضاء عليه بأسرع ما يمكن.

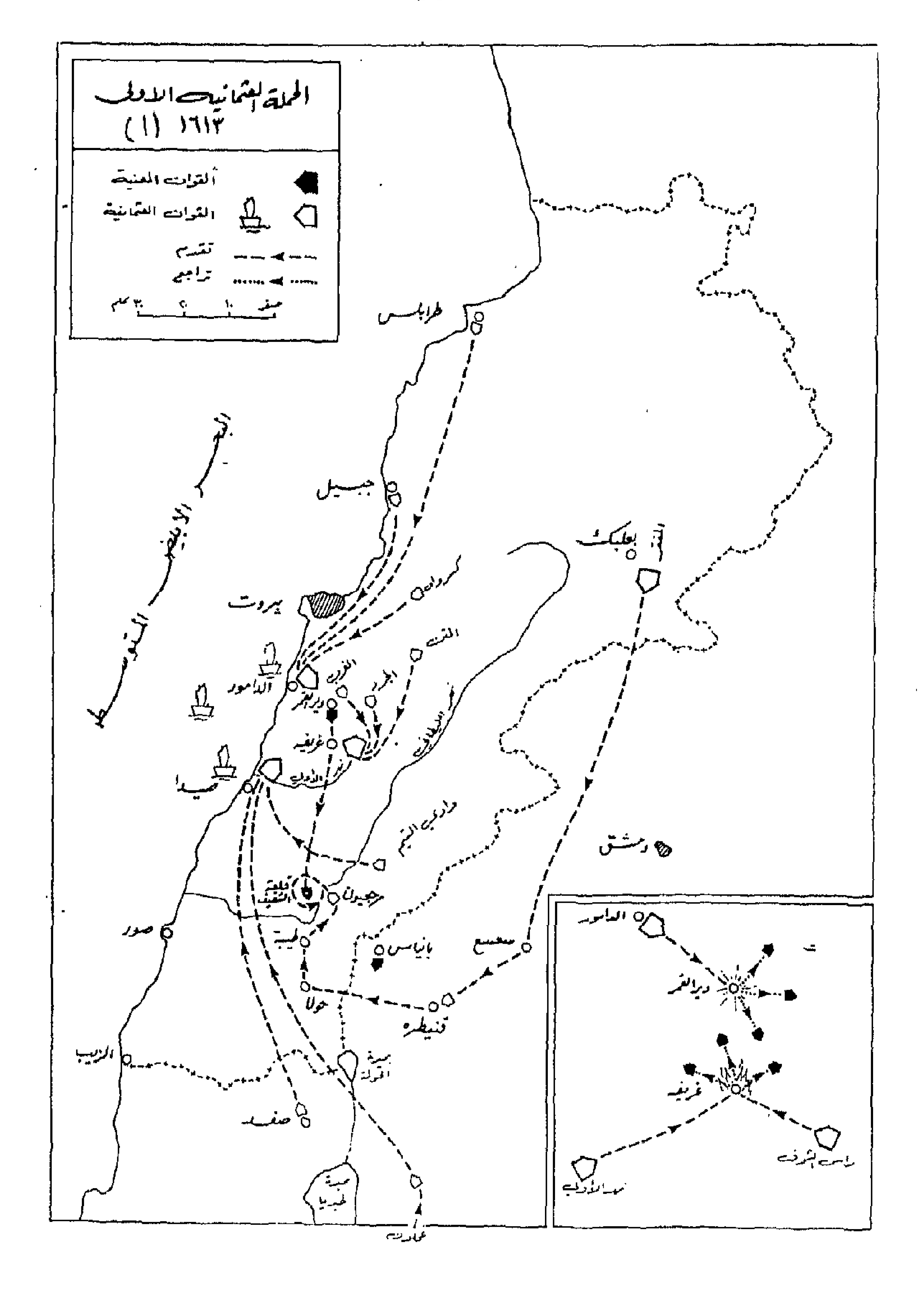
٢٢ - الحملة العسكرية العثمانية:

كلّف الباب العالي الوزير نصّوح باشا مهمّة تجهيز الحملة العسكرية هذه، فأعدّ بدوره جيشاً برياً قوامه ثلاثين ألف رجل وكلف والي الشام حافظ باشا بقيادته بعدما عيّنه سرداراً على الجيش وبأمرته ١٤ أمير لواء وخمسون سنجقاً. ومن أشهر أمراء الألوية: مصطفى باشا (دير بكر) - عمر باشا كتانجي (الاناضول) وباكير باشا (قرمان) ومومن باشا (الرها) وطويل أحمد باشا (درابزون) وخرّم باشا (مالطية) وموسى باشا شقيق أمير لواء حلب وأمير شرف خان وأمير سيد خان مع جميع سناجق كردستان. كما أعد أسطولاً بحرياً مؤلّفاً من ٦٠ سفينة وعدد من المراكب المستديرة وألفي نفر من انكشارية اسطنبول نفسها.[3] وقد أعطي مهمّة فرض الحصار البحري الصارم على بلاد الأمير المعني لمنع وصول أي إمدادات

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٩.
(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص ١١.
- المحبي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨١.
(٣) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٢.

خارطة رقم ٩

الحملة العثمانية الأولى ١٦١٣(١)



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٣١٥.

أو نجدات إليه عن طريق البحر، وخاصة من حلفائة في توسكانا.

وكالعادة المتبعة عندنا، ولا تزال، «كلّ من تزوّج أمّي صار عمّي»، فقد أغار مع والي الشام، ضد أمير البلاد، العديد من أمراء المقاطعات الشامية ومنهم من كان قبلاً حليفاً للأمير مثل: الأمير يونس الحرفوش حاكم البقاع وبعلبك والأميرين أحمد وعلي الشهابيين حاكمي وادي التيم وقد قدر آنذاك عدد مقاتلي الحملة بحوالى خمسين ألف مقاتل.(١)

٢٣ - قوات الأمير فخر الدين الدفاعية:

تجاه هذا الواقع المرير والذي لا مفرّ منه، قرّر الأمير فخر الدين الدفاع عن إمارته وانجازاته مهما كلّف الأمر، لذلك جهّز مواقعه الدفاعية المنيعة وحشدها مقاتلين من السكمان ورجال البلاد، فوضع في قلعة الشقيف حامية من أربعماية مقاتل مشاة بقيادة البلوكباشي طويل حسين يعاونه خمسة بلوكباشية آخرون. وفي قلعة بانياس وضع ألف مقاتل مشاة بقيادة السردار حسين اليازجي يعاونه عشرة بلوكباشيين. وجهزت المدافع مع ذخيرتها والرصاص والبارود والمؤونة ما يكفي العسكريين لمدّة خمس سنين. وتحسباً لثورة السكمان أو لرفضهم أوامر الرؤوساء، فقد وضع في كلتي القلعتين «أجور المقاتلين هؤلاء وقدرها ماية ألف قرش، وسمح لكلّ مقاتل متزوّج أن تعيش عائلته معه في القلعة...».(٢) لقد كانت نظرة الأمير ثاقبة في هذا المضمار، لأن المقاتل يتشجع ويضطر لمتابعة القتال مهما كانت النتائج دفاعاً عن نفسه وعن عائلته وأهله.

وقد قال الخالدي في تاريخه أن الأمير فخر الدين أعطى أوامره إلى هاتين الحاميتين كما يلي: «إذا قدّر الله ووقعت في أيدي الدولة

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٢.
- المحبي، خلاصة الاثر، ج ٣، ص ٣٨١.
- الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٢.
(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٢.

وقال لكم كبيرهم سلّموا لنا القلاع حتى نطلق لكم أميركم، فلا تعتمدوا قوله، واحفظوا قلاعكم وناموسكم... ولا تسلّموا قلاعكم...»[1] يشبه هذا القول أمر اليوم في الجيوش الحديثة والمعاصرة، إنها كلمات، وفق رأينا، لرفع المعنويات فحسب، فالأمير المعني يعلم علم اليقين أن السكمان هم مرتزقة، يقاتلون لقاء دفع البدل ويثورون عندما تتأخّر رواتبهم ويرفضون متابعة القتال لذلك ترك لهم مئة ألف غرش كرواتب... والله أعلم.

إلى جانب تجهيز مواقعه الدفاعية حاول الأمير تفادي القتال ما أمكن لذلك حمّل بعض وجهاء صيدا وصفد وبيروت، رسائل إلى الشام، يلتمس فيها التفاوض للصلح ولتجنّب المعركة، وقد وجّهها إلى والي الشام حافظ باشا وإلى قاضي دمشق وعلمائها وإلى باشوات الجيش إلاّ أن الوالي رفض أي تفاوض أو مصالحة مع الأمير وكان يكرهه كرهاً كبيراً. وقد رفض طلب الأمير رفضاً قاطعاً ما لم يأت فخر الدين إلى ديوانه في الشام صاغراً معفراً جبينه على بابه، الأمر الذي رفضه أمير لبنان رفضاً باتاً، فشكيمته وعنفوانه يأبيان عليه الانصياع إلى مثل هذه الإهانة فقرّر مغادرة إمارته إلى بلاد الغرب (توسكانا) تاركاً حكم البلاد إلى ولده الأمير علي وقيادة الجيش إلى أخيه الأمير يونس.[2]

٢٤ - السير نحو العدو والتماس:

عيّن سردار عسكر الشام الوالي حافظ باشا بقعة المفقر، قرب بلاد بعلبك، كبقعة تجمع لقوات جيشه الزاحف نحو الإمارة المعنية. وفي الأول من شعبان العام ١٦١٣ غادر حافظ باشا دمشق إلى بقعة التجمّع، ومن هناك تحرّك الجيش بقيادته نحو بلاد الأمير على المحور التالي: سعسع - القنيطرة - الحولة - الطيبة - مرجعيون - قلعة الشقيف الهدف العسكري الأساسي للحملة. وكان جيشه يزداد عدداً كلّما تقدّم

---

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٣.

(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٥.

على هذا المحور حتى بلغ عند وصوله إلى القلعة، نحو خمسين ألف مقاتل غير «أولاد العرب».[1] وفور دخوله الإمارة المعنية عزل الوالي حافظ باشا حكام المقاطعات الموالين للأمير وعيّن بدلاً عنهم حكاماً آخرين من جماعته. فعيّن محمد آغا حاكماً لصيدا واعاد إلى يوسف باشا سيفا مقاطعتي كسروان وبيروت، وعيّن الشيخ مظفر العنداري حاكماً لبلاد الغرب والجرد والمتن.[2] وفور وصوله إلى جسر الخردلي على نهر الليطاني وقبالة قلعة الشقيف، جمع قادته لعرض الوضع، وقد تمّ الرأي على إسقاط قلعة الشقيف قبل الشروع بمهاجمة الشوف عقر دار الإمارة المعنية وإسقاطها.

٢٥ - حصار قلعة الشقيف:

كانت قلعة الشقيف من الوجهة العسكرية موقعاً طبيعياً حصيناً ومنيعاً ولا يمكن محاصرته والنيل منه بسهولة. وقد حشده فخر الدين بالمقاتلين والذخيرة والمؤن والمعدات على اختلاف أنواعها، فيما يمكن من القتال والصمود في وضعية الدفاع شهوراً عدّة، بل بضع سنين... والله أعلم. وبالإضافة إلى هذا الموقع الحصين يوجد قبالته وإلى الجنوب برج يدعى «برج الظاهرية» يقع على مستوى القلعة نفسها، ويتصل بها بمسلك واحد وحيد لا يمكن سلوك سواه وقد تحصّن فيه «قورط بلوكباشي» مع خمسين من رجاله السكمان فكانوا ظهيراً لمن تحصّن في القلعة من جند فخر الدين.

قرّر حافظ باشا الاستيلاء على «برج الظاهرية» ومنه ينتقل إلى القلعة فيؤمن مجنبته اليمنى لذلك بدأ بمحاصرته محاولاً الاستيلاء عليه. استمرّ القتال طوال النهار بين الحامية والجند العثماني الذين لم يتمكّنوا من السيطرة عليه، وقد تكبّدوا حوالى الثلاثين قتيلاً. إلاّ أن خطأً ارتكبه أحد المدافعين عن البرج أدّى إلى تهدّم قسم منه وفتحت ثغرة في حائطه أدّت إلى سقوطه

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٠..

بيد المهاجمين الأتراك. ذلك، أن أحد السكمان أشعل فتيلاً واقترب خطأً من أحد براميل البارود الموجود في البرج فانفجر البرميل وانفجرت معه باقي البراميل فيه مما أدّى إلى تهدّم جدرانه ومقتل عدد من المدافعين، كما قتل حوالى السبعين من جنود حسين باشا سيفا الذين حاولوا تسلّق جدار البرج. انتهت المعركة بعد الاستيلاء على البرج وأسر عدد من المدافعين عنه وفرار الباقين نحو قلعة الشقيف بعد احتلال «برج الظاهرية» شرعت القوات العثمانية بإقامة المتاريس حول القلعة، فقطع الجنود أشجار الزيتون المحيطة بها ليصنعوا من جذوعها ستارة يجتازون بواسطتها الخندق المحيط بالقلعة. لقد استعمل رجال القلعة كلّ أسلحتهم المركزية، من رمي بالبنادق والمدافع التي تطلق القذائف والنيران الاصطناعية ويقوم على استعمالها سدنة فرنسيون استأجرهم الأمير فخر الدين لهذه المهمّة قبل سفره. وكانت دوريات منهم تقوم بالإغارة على العثمانيين خارج أسوار القلعة مستعملة عنصري المباغتة والمفاجأة، ثمّ تعود إلى الداخل بعدما كانت تحرق متاريس حطب الزيتون التي كان يعدها رجال حافظ باشا للوصول إلى القلعة، مما اضطرّه إلى إبدالها بمتاريس من التراب يملأ بها مخالي الدواب.

بقيت القوات العثمانية حوالى الستين يوماً تحاصر القلعة، مستعملة مختلف أسلحتها، من مدافع ومنجانيقات وعرادات، من دون أن يؤثّر ذلك في القلعة وحاميتها. ولكن في النهاية تمكّنوا من اجتياز الخندق المحيط بالقلعة واستعدوا لتسلّق أسوارها.(١)

لقد استعمل الفرنسيون مدافع القلعة بمهارة كلية، فحطموا بقنابلها مدفعية المهاجمين الأتراك وفتكوا برجالهم فتكاً ذريعاً.(٢)

هكذا أدرك قائد القلعة البلوكباشي طويل حسين أن الوقت أصبح لصالح

---

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) قرألي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٦.

المهاجمين لتسلّق اسوار القلعة فأرسل يستنجد بالأمير يونس قائد الجيش المعني، وكان مقر قيادته في دير القمر، وقد انجده بحوالى الخمسين مقاتلاً من المتطوّعين بقيادة البلوكباشي «جلب حسين»، لكن بعض العملاء في مركز قيادة الأمير يونس، سرب خبر هذه النجدة إلى حافظ باشا الذي أرسل مفرزة من رجال ابن سيفا ورجال الأمير يونس الحرفوش لنصب كمين محكم لهذه القوّة الآتية وذلك في بقعة جسر الخردلي. ولدى الاصطدام بالكمين اسفرت المعركة عن انتصار «البلوكباشي جلب حسين» على رجال الكمين والانقضاض بمن معه على متاريس السيفيين حول القلعة حيث قاتلهم بالسلاح الأبيض حتى تمكّن من اجتياز خطوطهم ودخول القلعة بعد أن غنم ثلاثة من بيارقهم نشرها على سورها صباح اليوم التالي. وقد دخلها بأربعة وثلاثين من مقاتليه بينما أسر اثنان وقتل واحد وعاد الباقون أدراجهم.[١]

٢٦ - الهجوم على الشوف قلب الإمارة المعنيّة:

قرّر حافظ باشا الابقاء على محاصرة قلعة الشقيف ومنع النجدات والامدادات إلى داخلها والانتقال إلى مهاجمة الهدف الثاني والأساسي وهو منطقة الشوف، لعلّه يضغط بهذه الطريقة على الأمير يونس المعني فيجبره على الاستسلام. لذلك أصدر أوامره إلى حلفائه بالتعبئة العامة والكاملة وعيّن لهم نقاط تجمع كما يلي:

- الأمير حسين باشا سيفا: تعبئة الجند في طرابلس وكسروان وبلاد جبيل - مكان التجمّع: الدامور.
- الشيخ مظفر العنداري: تعبئة الجند في بلاد الغرب والجرد والمتن - مكان التجمّع: راس الشوف.
- الأمير أحمد الشهابي والأمير أحمد طرباي ومحمد آغا حاكم صفد: تعبئة عامة للجنود كلّ في إمارته أو سنجقيته - مكان التجمّع: نهر الأولي قرب صيدا.

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٠ - ٢٢.

كانت المهمة الأولى لهؤلاء، التوجّه إلى بلاد الشوف لتخريبها وإحراق منازلها. وعند التنفيذ كانت بلدة «غريفة» أول بلدة وصلتها طلائع هذه القوات المغيرة فأحرقتها ودمّرت منازلها، لكنها لم تتمكّن من الانتقال إلى البلدات المجاورة نظراً إلى المقاومة العنيفة والشرسة التي أبداها الأهالي.

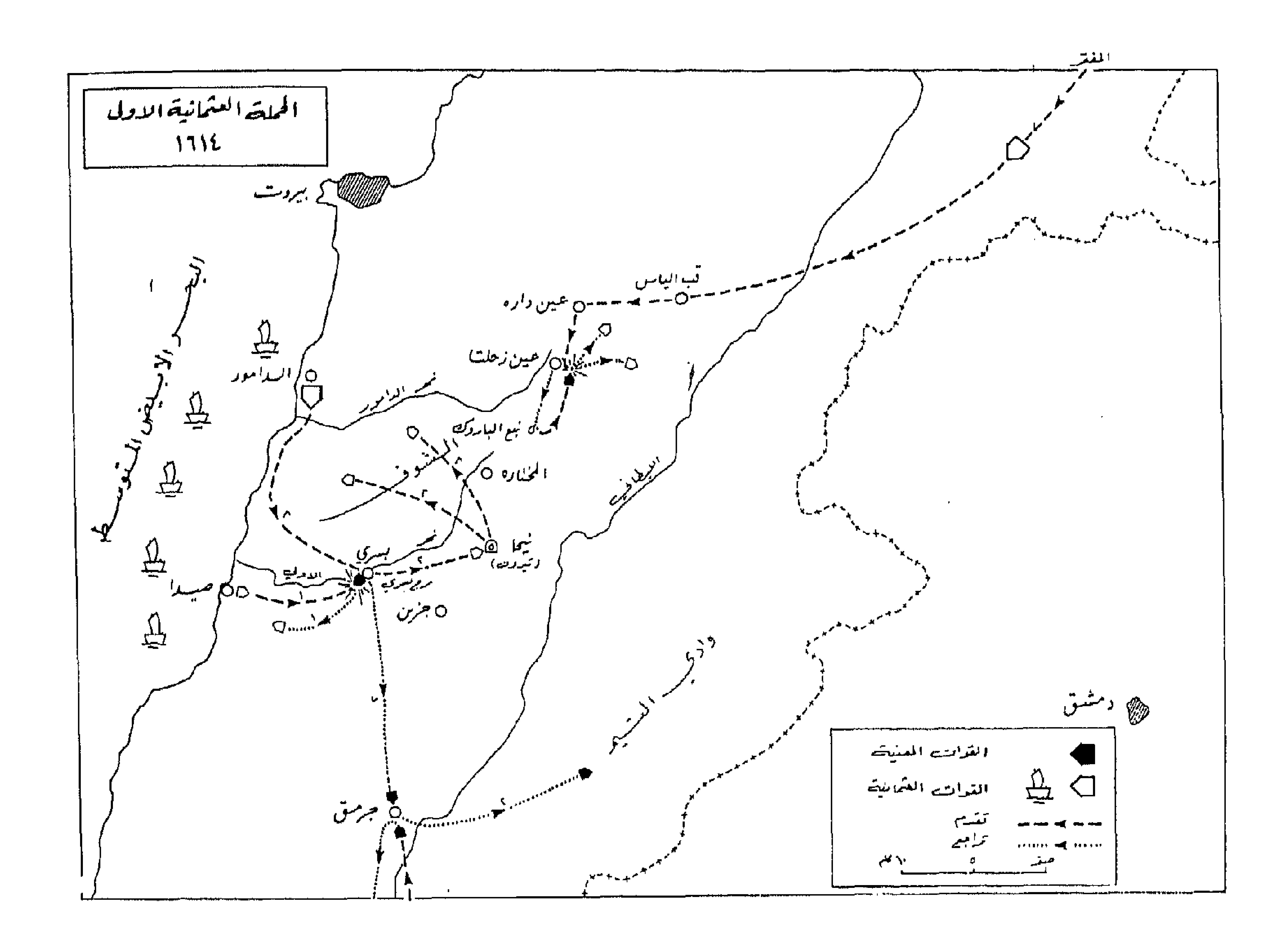
ومما لا شكّ فيه أن الدعايات المغرضة انتقلت بسرعة إلى القرى والدساكر، وان بلدة غريفة هي النموذج المتبع في حال وصل المهاجمون إلى القرى، فدبّ الذعر والهلع في قلوب الآمنين من السكان، فتخلّى السكمان عن الأمير يونس والتحقوا بحافظ باشا في قلعة الشقيف، فاضطر الأمير يونس إلى نقل مركز قيادته العام إلى بلدة بعقلين ثمّ إلى بلدة نيحا الشوف مع من بقي مخلصاً له من جنده واتباعه. وتمكّن حسين سيفا من الوصول إلى دير القمر فأحرقها وأحرق قصور المعنيين فيها، وكاد الشوف على وشك ان يسقط برمّته بأيدي المهاجمين عندما اجتمع أعيانه وقرروا الزام الأمير يونس بالتفاوض مع الوالي حافظ باشا لمصلحة الإمارة والبلاد والعباد.[1]

تولّت الست نسب والدة فخر الدين ويونس أمر التفاوض مع حافظ باشا، فقصدته مع بعض أعيان البلاد من الدروز إلى مقر قيادته في قلعة الشوف. واستطاعت بما لها من عزيمة وذكاء وحسن تدبير، الاتفاق فيما بينهما على رفع الحصار عن قلعة الشقيف وانسحاب الحافظ مع قواته من بلاد المعنيين، على ان يدفع له بموجب صك مبلغاً وقدره ثلاثماية ألف قرش - مئة وخمسين ألف للكفّ عن حريق الشوف ومئة وخمسين ألفاً لإبقاء القلاع كما هي ووقف القتال. وقد أبقت نفسها رهينة عند الوالي لحين دفع هذا الصك بالكامل كدين عام عن الإمارة والحكم المعني. ابتدأ فصل الشتاء ولم يعد بإمكان الجند العثماني تحمل البرد القارس في أثناء الحصار. فنفذ الحافظ هذا الاتفاق وتخلى عن قلعة الشقيف وأمر حلفاءه بأن يعود كلّ منهم برجاله إلى بلاده، ثمّ جمع قواته ورحل عائداً

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٢ - ٢٤.

خارطة رقم ١٠

الحملة العثمانية الأولى ١٦١٤(١)



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٣١٩.

إلى دمشق مصطحباً معه كرهينة «الست نسب المعنية».[1]

لقد دام حصار القلعة حوالى التسعة أشهر ذاق المدافعون مرارته حرماناً وعطشاً وجوعاً، لكن المعنويات بقيت مرتفعة. ولو لاقى حافظ باشا أن احتلال القلعة أمرٌ سهل وإن بلع البلاد أمر أسهل لما وافق على التفاوض وحصل ما حصل... والله أعلم.[2] لقد كان عامل الشتاء والراحة أمر مهم للقوات الزاحفة.

٢٧ – استئناف القتال (١٦١٤)

أ – تعبئة القوات الشامية من جديد:

لم ينفذ الأمير يونس المعني ما تعهّدت به والدته «الست نسب»، فتأخّر عن دفع الأموال المستحقة رغم مطالبة الوالي له، فأعلن هذا الأخير التعبئة العامة، كما فعل في المرة السابقة، استعداداً للعودة إلى القتال، وكان ذلك في ١١ شباط ١٦١٤. كانت المفقر بقعة التجمّع فحضر إليها جند الشام بكامله بقيادة حافظ الباشا الذي مكث هناك حوالى الخمسة عشر يوماً، انتقل بعدها إلى المزة قرب الشام فخان الديماس فجسر دير زنون في البقاع، ثمّ إلى بلدة قب الياس حيث بقي فيها ٢٠ يوماً دعا إليه خلالها كلّ حلفائه، فحضروا جاهزين للقتال (حسن باشا حاكم صفد وصيدا وبيروت ومحمد باشا حاكم غزة وفروخ بك أمير الحج والأمير أحمد بن طرباي أمير اللجون وحسين الأعوج حاكم حماه والأمير يونس الحرفوش حاكم بعلبك وحاكم وادي التيم الأمير أحمد شهاب والشيخ مظفر العنداري أمير الجرد والغرب والمتن وحسين باشا سيفا ابن يوسف سيفا حاكم طرابلس وعكار. تجاه هذا الواقع وهذا الخطر الكبير الآتي على الإمارة المعنية أرسل الأمير يونس المعني المال المطلوب إلاّ أن حافظ باشا لم يرضَ بالتراجع عن القتال واحتلال الإمارة وتدميرها، خاصة أن عدّة القتال قد جهزت.

---

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٣ – ٢٥.

(٢) المحبي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨١.

ب - معركة الباروك:

أعطى حافظ باشا أمراً للشيخ مظفر العنداري بالانتقال إلى الشوف لاستطلاع قوة الأمير يونس، ولدى وصوله إلى مطل الباروك بادرته القوات المعنية بالقتال وكان عددها لا يتعدى الخمسماية مقاتل من أهالي البلاد وقرى الباروك وعين زحلتا، واستمرّت المعركة طيلة النهار وتمكّنت قوات يونس من ايقاع الهزيمة بقوات الشيخ مظفر الذي استنجد بالوالي فانجده في اليوم التالي بثلاثة من قادته مع جندهم وبقوات الأميرين أحمد شهاب والحرفوش وانجدا الأمير يونس المعني قواته هناك بعدد كبير من مقاتلي الشوف. واستمرّ القتال عنيفاً وقاتلت القوات المعنية قتالاً تراجعياً حتى الضفة الجنوبية لنهر الباروك حيث ثبتت في مراكزها طيلة النهار. ثمّ قامت بهجوم معاكس عنيف ومفاجىء أوقع الهزيمة في صفوف الأعداء فتراجعت ثمّ ولّت الادبار ولم تتمكّن قوات الأمير يونس من مطاردتها واستغلال النجاح نظراً لحلول الظلام[1] وكانت قوات مظفّر قد أحرقت بلدة الباروك لدى الوصول إلى منازلها وتراجعت قوات الشوف إلى ضفة نهر الباروك.

ج - معركة مرج بسري:

حشد الأمير يونس المعني قوات لا بأس بها في مرج بسري خوفاً من مفاجأة الشوف من تلك الناحية. علم حافظ باشا بهذا الحشد فقرر أخذ المبادرة ومفاجأة هذه القوى وتدميرها، فأصدر أمره إلى حسين آغا حاكم صيدا بأن ينتقل بفرقة من سكمانه لمهاجمتهم، ووضع بامرته البلوكباشي محمد آغا وعدداً آخر من البلوكباشية. كما أمر بعض المشايخ في صيدا بمرافقته لأنهم على علم ودراية بالأرض هناك. ولدى وصول هذه القوى إلى بسري هاجمتها قوات الشوف فجأة وانزلت بها هزيمة نكراء ساحقة وأوقعت في صفوفها نحو خمسماية قتيل عدا الجرحى، وكان هؤلاء من السكمان الذين تركوا الأمير يونس والتحقوا بحافظ باشا في السنة السابقة، كما قتل عدد كبير من قادتهم.

---

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٣٥.

غضب حافظ باشا لهذه الهزيمة وقرر الانتقام مهما كلّفه ذلك، فأرسل إلى حسين سيفا الموجود مع قواته في الدامور بأن يتوجّه إلى قتال القوات المعنية في بسري. علم الشوفيون بتحرّكات الوالي فطلبوا النجدة من الأمير يونس وكان عددهم لا يتجاوز الاربعماية مقاتل. وكان الأمير في بانياس، وقبل أن تصلهم النجدة فاجأهم ابن سيفا، وكان عديد قواته حوالى الاثني عشر ألف مقاتل والله أعلم. لم يستمر القتال طويلاً نظراً لعدم تكافؤ عديد القوات المتقاتلة، فتقهقر الشوفيون إلى قرية الجرمق من بلاد الشقيف، حيث التقوا بالأمير يونس والأمير الشهابي ومعهما نحو اربعماية مقاتل من قلعتي الشقيف وبانياس، فأصدر الأمير المعني أمراً للأمير الشهابي بالعودة إلى بلاده وادي التيم حيث تفرّق هناك كذلك الشوفيون. أما حافظ باشا وحسين باشا سيفا والشيخ مظفر فقد تابعوا تقدّمهم من مرج بسري إلى نيحا الشوف، ومن هناك عاد حافظ باشا بجيشه إلى قب الياس وتقدّم حسين سيفا والشيخ مظفر، فقد دخلا الشوف بقواتهما وراحوا يمعنون في بلداته ودساكره نهباً وحرقاً وتدميراً.(1)

في هذه الأثناء، حنق السلطان على نصوح باشا فخنقه وعيّن مكانه محمد باشا وكان هذا صديقاً للأمير فخر الدين ومحباً له، الأمر الذي أجبر حافظ باشا على الكف عن ملاحقة الأمير يونس المعني وفرّق عسكره آمراً كلاً منهم بالتوجّه إلى دياره وبلاده. وعاد هو إلى دمشق حيث تمّ عزله عن ولاية الشام في ٣١ كانون الثاني ١٦١٥، فاستراحت الإمارة والناس من شروره وعدوانيته وظلمه. وعندما وصل جركس باشا بكلربكيها الجديد كان أول عمل قام به هو إطلاق سراح والدة الأمير فخر الدين الست نسب وإرسالها إلى ولدها الأمير يونس. ثمّ كتب إلى الأمير فخر الدين يطلب إليه العودة إلى بلاده وأهله وأولاده بعدما كان الوزير محمد باشا استصدر فرماناً همايونياً بالعفو عنه يسمح بعودة الأمير اللبناني إلى إمارته معززاً مكرّماً. لقد بقيت

---

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٣٨.

«الست نسب» في الارتهان سنة ونصف السنة.[1]

لم يصل فرمان العفو هذا إلى توسكانا إلاّ بعد أن غادرها الأمير في آب ١٦١٥ إلى مسينا في صقلية نزولاً عند دعوة الدوق دُسونا، نائب ملك اسبانيا فيها. ومن مسينا ركب الأمير أحد غلايين الدوق إلى صيدا، حيث وجد ابنه الأمير علي معيناً مكانه في حكم البلاد واطمأن إلى ذويه ووطنه ولم يعلم بالفرمان لا هو ولا حاشيته. في أيلول ١٥١٨ عاد فخر الدين إلى لبنان مصمّماً على قتل «ابن سيفا الذي استثمر في غيابه نكبته واستولى على كسروان والفتوح وحرق قصره في دير القمر».

٣ - معركة عنجر (أول تشرين الثاني ١٦٢٣)

تعد معركة عنجر أشهر معركة قام بها الأمير فخر الدين المعني ضد والي الشام مصطفى باشا ممثل السلطنة العثمانية في هذه البلاد. وقد سانده انصاره آل حرفوش وآل سيفا وسواهم، وانتهت بهزيمة الوالي وأسره ثمّ إطلاق سراحه احتراماً للسلطان العثماني.

٣١ - أسباب المعركة:

في العام ١٦٢٣ حدثت بعض الأزمات السياسية في السلطنة العثمانية انتهت بخلع السلطان مصطفى الأول عن العرش وتولّى مكانه ابن أخيه السلطان مراد الرابع. لم يطل الوقت حتى منح هذا السلطان الأمير علي ابن فخر الدين سنجقية صفد وأرسل إليه الأحكام والفرمان اللازم بهذا الخصوص. وكان الأمير فخر الدين في ذلك الوقت قد نصب معسكره عند بركة الملاحة قرب بحيرة الحولة في فلسطين. وعندما انبأه الأمير علي بهذه الإرادة السنية قصد صفد وجمع شيوخها وأعيانها وقرأ على مسامعهم الفرمان السلطاني ثمّ كتب إلى والي الشام آنذاك مصطفى باشا ينبئه بذلك، وارفق كتابه بصورة طبق الأصل عن الفرمان السلطاني. لكن الوالي اعتبر أن الفرمان كان مزوّراً من قبل الأمير، خاصة أن السلطنة لم

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٤٢ - ٤٣.

تبلّغه ما حصل في ابدال سياسي للسلطان وعزل السلطان مصطفى وتولية السلطان مراد إضافة أن الفرمان بتعيين الأمير علي المعني حاكماً على سنجقية صفد لم يكن قد وصله بعد.

لم يعبأ الأمير فخر الدين برفض الوالي لهذا الواقع، وبدأ بتنفيذ أحكام الفرمان، مما أثار غضب مصطفى باشا وحلفائه فراحوا يستعدّون لقتال الأمير.

٣٢ - تعبئة وحشد القوى:

أعلن والي الشام النفير العام، فحشد عسكره وأرسل إلى حلفائه يطلب مؤازرتهم ومساندتهم والالتحاق بقواته للانتقال إلى ميدان المعركة لتلقين الأمير العاصي فخر الدين الدرس اللازم بالطاعة. لم يتأخّر الأمراء آل حرفوش حكام البقاع وآل سيفا حكام طرابلس وعكار وتركمان بعلبك وحمص وعربهما وعرب آل موسى، بل احتشد الجميع مع رجالهم وسكمانيتهم، وانتقلوا إلى بقعة التجمّع عند جسر دير زنون على طريق بيروت الشام متأهّبين للاتجاه إلى دمشق والالتحاق بالوالي وعسكره.[1]

أما فخر الدين فقد أعلن من جهته النفير العام، وحدّد قب الياس في البقاع بقعة تجمّع لجيشه، ثمّ انبأ حلفاءه بما جرى ويجري مع والي الشام وطلب منهم موافاته مع رجالهم إلى هذه البقعة وسرعان ما وصل الأمير علي من بيروت مع ألف من رجاله، وجاء الأمير يونس المعني ومعه أيضاً ألف رجل إلى البقعة التي حدّدها لهم أمير البلاد. ما الأمير فخر الدين فانتقل بقواته وسكمانيته من الملاحة، وبصحبته الأمير علي شهاب حاكم وادي التيم مع ألف رجل، ونزلا معاً عند جسر القرعون. وعلم الأمير أن أعداءه آل سيفا وآل حرفوش قد عسكروا عند جسر دير زنون في طريقهم إلى دمشق للالتحاق بعسكر الوالي، فقرّر أن ينصب كميناً لهم في وادي مجدل عنجر، إلاّ أنهم ساروا من دير زنون ليلاً على أضواء المشاعل حتى وصلوا إلى منطقة الديماس بعيداً عن متناول يد الأمير فخر الدين.

---

(١) الخالدي، المصدر السابق، ١٤٦.

٣٣ - تحرّشات الأمير بخصومه:

ترك فخر الدين وقواته جسر القرعون ووجهتهم قب الياس، لكنه وسّع نشاط دورياته فأغار البعض منها بناء لأمره، على بلدتي الكرك وسرعين من أعمال آل حرفوش وأحرقهما وقتل أربعين من المدافعين عنهما وغنم ما فيهما من مؤن وأرزاق وأموال. ثمّ أحرق معظم القرى المحسوبة على الحرافشة في بلاد بعلبك، والتي مرّت قواته بالقرب منها أو عبرها، ثمّ وصل إلى نبع عنجر فاستطلعه، ومنه انتقل إلى بقعة التجمّع في قب الياس.[١]

٣٤ - استعداد الجانبين للقتال:

أ - والي الشام:

استطاع الوالي مصطفى باشا أن يجمع ما يقارب الاثنين عشر ألف مقاتل من انكشارية الشام، مشاة وفرساناً، بقيادته الشخصية، يعاونه البلوكباشي كورد حمزه قائد فرقة الانكشارية لديه، ومن أعوانه الحرافشة وآل سيفا. ثمّ انتقل بهذا الجيش إلى بقعة خان ميسلون، حيث عسكر هناك فترة من الزمن لاستكمال حشد القوات وبعدها انتقل إلى «سهل جديدة يابوس» وأصبحت طلائع جيشه مقابل مخافر الجيش المعني الأمامية المتمركزة في «الخلوة».

ب - الأمير فخر الدين:

كان الأمير أحمد شهاب سابقاً خصماً للأمير فخر الدين إلاّ أن المصالحة بينهما كانت قد تمّت قبل الشروع بهذه المعركة، إذ وعده فخر الدين بإعطائه البقاع في حال انتصاره على الوالي، فالتحق مع عمّه الأمير أحمد شهاب بقوات فخر الدين وكانوا حوالى الألف مقاتل، وقد تمركزوا في بلدة «الحلوه» بناء لأمر فخر الدين الدين بحيث يشكلون مخافر أمامية مهمتها مراقبة تحرّكات العدو والإفادة. وما أن وصلت طلائع جيش الوالي إلى سهل جديدة يابوس[٢] حتى أفادته هذه المخافر بتحرّكات هذا الجيش، فأصدر أمره بأن تنسحب إلى بقعة نبع عنجر والتمركز هناك في انتظار أوامر جديدة. أما الأمير فخر الدين فقد رتّب قواته المقدرة

(١) الخالدي، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٤٩.

بخمسة آلاف مقاتل أربعة ايالات، أو ألوية، على الشكل التالي:

* اللواء الأول:
- عديده حوالى الألف مقاتل من الخيالة، يقوده فخر الدين بنفسه ويتألّف من: فرقة السكمانية الجديدة التي أنشأها الأمير بنظام جديد بعد عودته من توسكانا - فرقة سيف بلوكباشي التي أرسلها الأمير مدلج الحياري - رجال بلاد الغرب والمتن.

* اللواء الثاني:
- عديده حوالى الألف رجل معظمهم من الخيالة، يقوده الأمير علي المعني، ويتألّف من: فرقة السكمانية القديمة ورجال الجرد.

* اللواء الثالث:
- عديده حوالى الألف مقاتل أيضاً معظمهم من المشاة، بقيادة الأمير يونس المعني وهم رجال الشوف.

* اللواء الرابع:
- عديده حوالى ألف مقاتل كذلك معظمهم من المشاة، يقوده مصطفى مدبر الأمير فخر الدين وهم رجال جبل عامل.

* مختلف:
- قوات الأميرين محمد وأحمد شهاب حاكمي وادي التيم وعديدها حوالى الألف، كما ذكرنا. وقد وزع الأمير على جنده الذخيرة اللازمة، لكلّ مقاتل «اوقيتان» من البارود.

٣٥ - التمثل وفكرة المناورة:

أ - الوالي مصطفى باشا:

كانت فكرة القتال عنده تتمثل بما يلي:
- احتلال نبع عنجر لقطع المياه عن قوات عدوّه.
- احتلال بلدة عنجر والتل والبرج.
- مهاجمة قوات عدوه قبل أن تتمكّن من اتخاذ مراكز دفاعية لها.

ب - الأمير فخر الدين:

كانت فكرة الأمير تتمثل بما يلي:
أولاً: اختيار الأرض الملائمة للمعركة، وقد اختار سهل عنجر للأسباب التالية:

* تتوافر له سهولة المناورة في حال سيطرته على تل عنجر ونبعها وبرجها بينما لا تعطي عدوّه هذه الميزة.
* «يتمتع الأمير، خلف سهل عنجر، بعمق واسع يسمح لجيشه القليل العدد بالتحرّك، بينما ينحصر الوالي بجيشه الكبير بين تلال عنجر من جهة ومضيق وادي الحرير من جهة أخرى، مما يحرمه حرية الحركة وسرعتها، إذ يصبح محصوراً بين مضيف وادي الحرير وبين قوات الأمير المتمركزة على تل عنجر وفي جواره.

ثانياً: اعتماد عنصر المفاجأة والمباغتة، فالعظيم من قوات الأمير لم يظهر في ساحة القتال منذ بدئه، بل ترك لأنصاره الشهابيين التعامل مع العدو في بداية القتال كما تركهم يشنون عليه، لوحدهم هجوماً معاكساً ناجحاً. لقد تظاهر الأمير بأنه يريد الدفاع وليس الهجوم، وذلك عندما دفع بسرية من رجاله ليشنوا هجوماً على مراكز العدو كي يوهمه بأنه سيظل في وضع الدفاع، بينما كان يحضّر لهجوم عام صاعق وناجح.

٣٦ - الأرض:

كانت أرض المعركة على الشكل التالي:

* تل عنجر ويقوم عليه برج قديم يسمى «برج الخراب» ويقع جنوبي غربي عنجر.
* نبع عنجر ويقع شمالي غربي البلدة مقابل برج الخراب.
* القرية نفسها.
* سهل عنجر إلى الشمال وهو سهل مناورة ممتاز لجيش الأمير.
* وادي الجدل المتجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي.
* مضيق وادي الحرير إلى الجنوب الشرقي من عنجر والذي يقيد حركة المناورة لجيش الوالي إذا ما اجتازه نحو سهل البقاع.

٣٧ - المعركة:

وقعت هذه المعركة في الأول من تشرين الثاني من العام ١٦٢٣. تقدّمت القوات العثمانية من سهل جديدة يابوس واحتلّت نبع عنجر، قبل أن تصل إليه المخافر الأمامية لقوات الشهابيين المنسحبة من بلدة «الحلوة»، مما أجبرها على التمركز في بلدة

عنجر - القرية والتل وبرج الخراب المواجه لنبع عنجر، ثمّ أفادت الأمير عن تقدّم العدو. فتحرّك بجيشه مع الفجر من قب الياس إلى بقعة القتال وفق الترتيب الذي ذُكر سابقاً، سالكاً محور: قب الياس - بر الياس - عنجر.

شنّت قوات الوالي هجوماً على عنجر القرية والتل، وقد قام به رجال ابن حرفوش وابن سيفا وسكمانهما مشاة وخيالة.[1] وقد تمكّنوا من دحر الشهابيين هناك الذين حشروا في البرج وحوله فاعتصموا به يدافعون بشراسة.

وفور وصول قوات الأمير فخر الدين إلى ضواحي عنجر، ارتفعت المعنويات وشن الشهابيون هجوماً معاكساً استعادوا به ما كانوا قد خسروه، واستقرّ الوضع العسكري مؤقتاً على ما هو عليه.

دخلت قوات الأمير ميدان المعركة وفقاً للترتيب التالي:

* في الميسرة: اللواء الأول بقيادة الأمير نفسه، وقد نفذ إلى هناك من الثغرة التي تصل إلى نبع عنجر من جهة الشمال.
* في القلب: اللواء الثاني بقيادة الأمير علي، وقد نزل جنوبي برج المجدل الواقع على تل عنجر مجتازاً جبل العريض في اتجاه نبع عنجر من جهة الغرب.
* في الميمنة: اللواء الثالث ويقوده الأمير يونس، وقد سلك وادي الفوح باتجاه الحلوة وظهر بقواته تحت بلدة المجدل من جهة الجنوب وراء مشاة الوالي مصطفى باشا، محاولاً قطع طريق تراجع قوات العدو نحو مدخل وادي الحرير. وقد تمركز اللواء الرابع إلى يسار الأمير يونس وإلى يمين اللواء الثاني.[2] ونرجح أنه كان احتياط المعركة... والله اعلم.

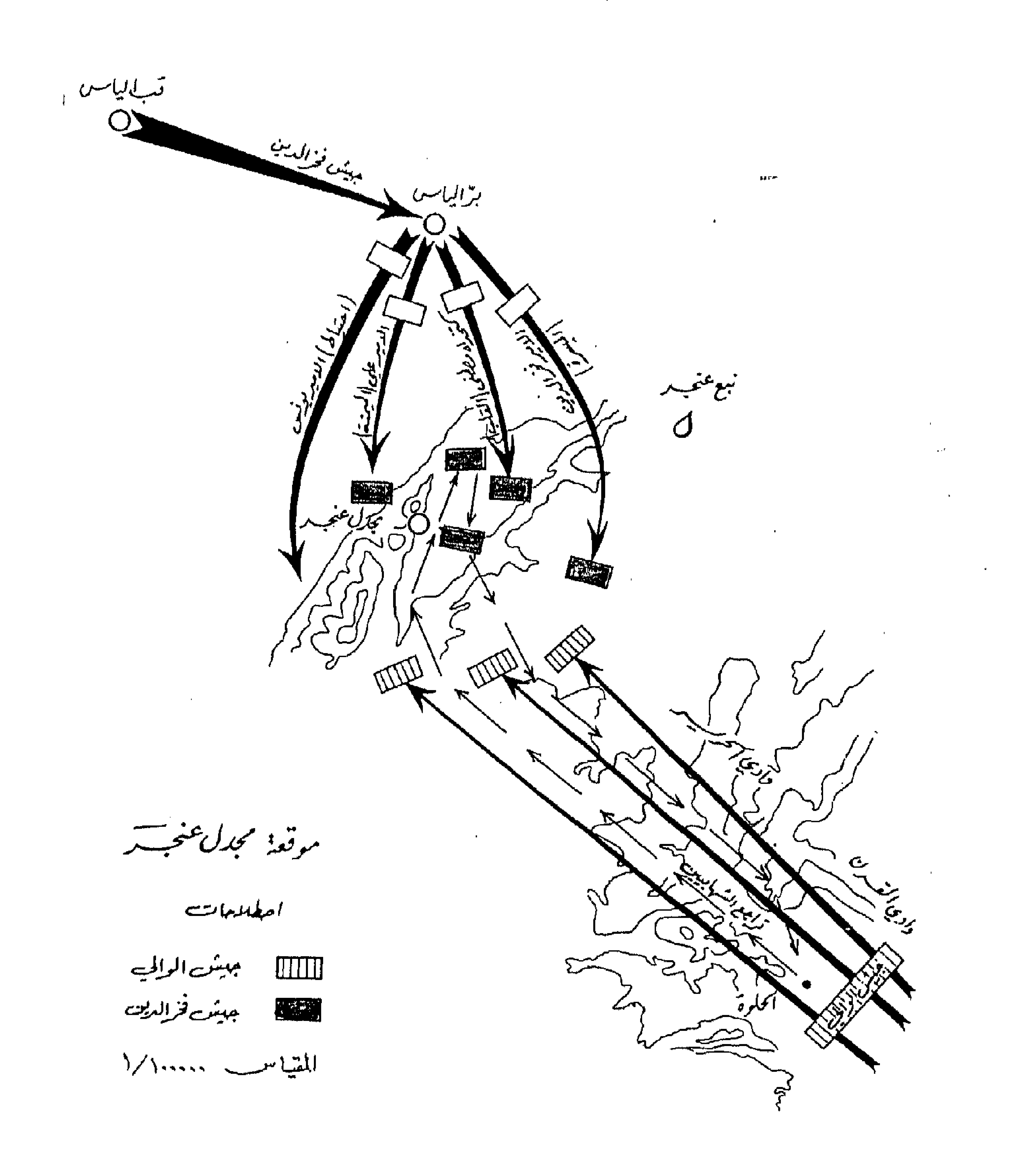
بدأ الأمير هجومه على القوات العثمانية، بأن ارسل نحواً من مايتي خيال انقضوا على مراكز قوّات الشام وعلى لواء مصطفى باشا بالذات، فأوقعوا في صفوفه الارتباك بسبب تأثير عنصر المفاجأة الذي أحسن

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٥٠.

(٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٥.

خارطة رقم ١١

موقعة مجدل عنجر



استخدامه. وبعد ذلك مباشرة شنّ الأمير هجومه من المحاور الثلاثة: الشمال والغرب والجنوب، فأزاح قوات الوالي عن مواقعها فهزمت وتبعتها قوات الأمير إلى طاحون عنجر فقتل من جيش الوالي عدد لا بأس به قدّر بثلاثماية وأسر نحو ماية رجل وأكثر، وغنم نحو ألفي خيمة مع عدد كبير من الجمال والبغال والأثقال. كما قتل آغا انكشارية الشام وأربعة بلوكباشية من الجيش. ومن عداد الأسرى أربعة بلوكباشية وثلاثون انكشارياً، وأسر الوالي مصطفى باشا نفسه الذي ألقي القبض عليه لعدم تمكّنه من الفرار وسيق أمام الأمير فخر الدين. وما ان رآه هو وابنه الأمير علي حتى ترجلا عن فرسيهما «وقبّلا رداءه» وأحسن الأمير وفادته وأرسله بصحبة أحد القادة ليوصله إلى قب الياس، وكان معه حوالى العشرة أنفار. أما الباقون من أمراء آل سيفا والحرافشة وغيرهم فقد ولّوا الادبار وانهزموا جميعاً إلى بعلبك ثمّ بعدها تفرّقوا. وقد قتل من جنود فخر الدين اثنان وثلاثون رجلاً.[1] أما جيش الوالي فقد فرّ معظمه إلى دمشق مروراً بوادي عنجر. واما السكمان فقد صعدوا إلى الجبل المطل على نبع عنجر فلحقهم عسكر الأمير وقتلوا منهم عدداً كبيراً.

٣٨ - نتائج معركة عنجر:

على الصعيد العسكري شكلت معركة عنجر هزيمة ساحقة لوالي الشام وحلفائه جميعاً.

على الصعيد السياسي نيل الأمير فخر الدين مقاطعة غزة وتوابعها كما أعطي أحكام التحاويل في سنجق صفد وأعطي الأمير علي البقاع، والأمير حسين ابن فخر الدين سنجق عجلون والأمير منصور بن فخر الدين سنجق اللجون ومصطفى مدبر الأمير فخر الدين سنجق نابلس.[2] وقد اعتذر الوالي أمام فخر الدين عن هفوته هذه واضعاً المسؤولية كلّها على كودر حمزه بلوكباشي وقد أصدر أمراً إلى متسلمه في دمشق بالقبض على كلّ أعوانه وقتلهم جميعاً.

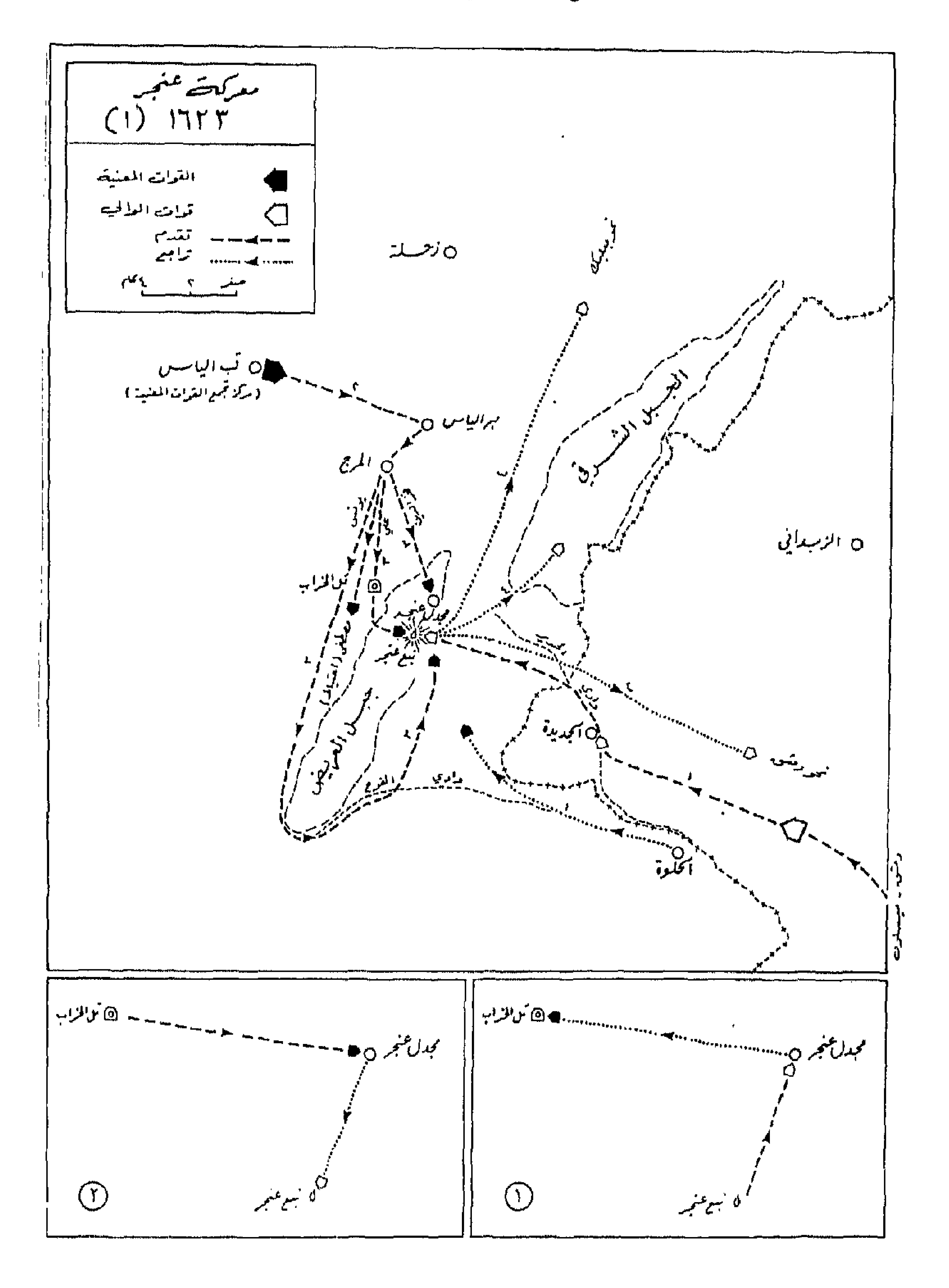
---

(١) الشدياق، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص ١٥٥.

خارطة رقم ١٢

معركة عنجر ١٦٢٣(١)



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٣٢٦.

وفي العام ١٦٢٤، وبعد انتصاراته على آل سيفا ثمّ على والي الشام، كرّست السلطنة العثمانية، الأمير فخر الدين أميراً على «عربستان» وسلطاناً على «بر الشام» من حدّ حلب إلى حد القدس».[1]

٤ – الحملة العثمانية الثانية (١٦٣٣)

٤١ - أسباب الحملة:

ممّا لا شكّ فيه أن الأمير فخر الدين كان طموحاً للغاية، وقد ظهر هذا «الطموح المزعج» منذ تسلّمه إمارة أبيه في الشوف. ولم ينته رغم حملة السلطنة عليه العام ١٦١٣ وفراره إلى توسكانا في اوروبا. وقد زاد طموحه كثيراً بعد عودته من بلاد الغرب العام ١٦١٨، فراح يوسّع إمارته على حساب حكام السنجقيات المجاورة، متكلاً على جيشه المنظّم والقوي. ففي العام ١٦٢٣، وبعد انتصاره على والي الشام، كان على عرش السلطنة آنذاك مراد الرابع الذي نصّبه الانكشارية الصباهيون الثائرون في السنة عينها التي استولى الفرس فيها على بغداد والموصل، وقد رأى هذا السلطان الحدث، وكان ابن اثنتي عشرة سنة، أنه من الحكمة أن يعترف بالأمر الواقع، فاعترف بالأمير فخر الدين والياً على عربستان، من حلب إلى مصر، بموجب خط همايوني ولقبه بسلطان البر وهكذا أصبح الأمير المعني سيّد المنطقة من دون منازع. أما الأسباب المباشرة لهذه الحملة فمتعدّدة أتى على ذكرها الكثير من المؤرّخين ومنها:

أ - ان لقب سلطان البر الذي ناله من السلطنة عظّم شأنه وقوّى شوكته «وراودته نفسه على السلطنة» التي كان يصفها بأنها «ثقل، تخم فكلّما حكمنا بلاداً نتقوّى برجالها وأموالها وننتقل إلى غيرها».[2] «فعظمته فاقت كلّ الحدود، وشهرته كلّ الأفاق».[3] لقد تغنّى الشعراء بانتصاره على والي الشام وأسره، وقد قرّظه أحد الشعراء بهذين البيتين:

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٤٢.

(٢) الخالدي، المصدر السابق، ص٢ ٤٤.

(٣) المحبي، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٨٥.

يراعك أن أبكيته ضحك الندى
وسيفك أن اضحكته بكت العدى
فشيمة ذياك اعتدى قطع رأسه
وشيمة هذا قطع رأس من اعتدى

كلّ هذا زاد من حسد باشوات دمشق وحكّام الاقطاع المجاورين لإمارته، رغم أن توسيعها كان عامل ضعف ونقص في تلاحم قواته المسلّحة ووحدتها وعصبيتها ومصدر شك في ولائه للسلطنة خاصة عندما راح يرنو بنظره نحو الجنوب والأماكن المقدّسة، إلى جانب السيطرة على نقاط استراتيجية مهمة.

ب - في العام ١٦٣٣ شكت «دولة حلب» الأمير المعني إلى الباب العالي لبنائه قلعتين في حلب وانطاكية،(١) معتبرة أن بناءه لهاتين القلعتين دلالة على تثبيت حكمه في المنطقة ونزوعه إلى الاستيلاء عليها نهائياً. وإلى جانب كلّ ذلك تلقّت السلطنة شكاوى من قبائل العرب في فلسطين ومن آل سيفا وآل حرفوش ووالي الشام وكلّها تشكو طموح الأمير ورغبته في التوسّع والسيطرة، حتى تكوّنت لدى الباب العالي قناعة تامة بوجوب التخلّص منه بصورة نهائية.

ج - في العام ١٦٣٢، وكما روى قنصل توسكانا، صدرت الأوامر العلية إلى الجيش العثماني العائد من حرب الفرس لقضاء الشتاء في سوريا، وعيّنت ايالة طرابلس لنزول الخيالة الصباهيين، وهم أشد الفرق العثمانية بأساً. هذا الأمر لم يعجب ولم يرضى أمير البلاد فخر الدين، فسبقهم إلى شمالي طرابلس ونصبت قواته كميناً لهم لمنعهم من الدخول، ولما حاولوا مواصلة السير، واقعهم «وقتل منهم خلقاً كثيراً» وأجبرهم على دفع ثلاثين الف غرش «وذهب عشرة آلاف منهم إلى دمشق، فضجّت منهم المدينة وهرب تجارها إلى صيدا، مما استدعى هجوم الأهالي عليهم وطردهم من المدينة».(٢)

لقد خاف فخر الدين من هؤلاء الصباهية ومن نية العثمانيين السيئة تجاه الإمارة اللبنانية وأميرها بالضبط الذي اغتنم فرصة انشغال

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٤٤.
(٢) قرألي، المصدر السابق، ص ٣٣.

الباب العالي بحربه ضد الفرس ليبدأ بدوره «حرب استقلال» مكشوفة مع السلطنة.

د - رفعت شكاوى عدّة إلى السلطنة ضد الأمير المعني تتهمه بأنه «يحتقر الشريعة الإسلامية، ويهدم المساجد، ولا يؤمها إلاّ مرّة في السنة، ولا يحرص على صوم رمضان. وكان على علاقة بأمير توسكانا الذي أقام له قنصلية بصيدا عاصمة الإمارة آنذاك، كما كان يسمح لفرسان مالطة، اعداء السلطنة بالرسو بسفنهم على سواحل إمارته للتزوّد بالمياه... وكان يراعي المسيحيين على حساب المسلمين، كما كان يسمح لهم ببناء الأديرة والكنائس في بلاده...».(١)

رغم أن هذه التهم لم يكن لها أساس من الصحة والصقت به للتخلّص منه، فقد أخذ بها السلطان وقرّر التخلّص من هذا التابع المزعج.

هـ - لقد راقبت السلطنة العثمانية، تصرّفات الأمير المعني طيلة سنين وتبيّن لها أنه «خرج عن طاعة السلطنة وجاوز الحد في الطغيان وأخذ كثيراً من القلاع من ضواحي دمشق وتصرّف في ثلاثين حصناً وجمع طائفة السكمان جمعاً عظيماً وبالجملة فقد بلغ مبلغاً لم يبقَ وراءه إلاّ دعوى السلطنة.(٢) أي أن يعلن ذاته سلطاناً.

٤٢ - التعبئة والاستعداد للقتال:

أ - العثمانيون:

إن إنشاء جيش كبير ومجرّب من قبل الأمير فخر الدين وتكديس الأسلحة والمفاوضات مع الاوروبيين والميل نحو النصارى، إلى جانب الاسباب التي ذكرناها سابقاً، جعلت الأتراك يوجسون من الأمير خيفة. لقد كان السلطان مراد الرابع، على الصعيدين الداخلي والخارجي، أقوى بكثير مما كان عليه السلطان أحمد الأول ومصطفى الأول. وكان هذا السلطان طاغية بكلّ ما في الكلمة من معنى، فقد كان سفاحاً دموياً،

(١) Puget de St Pierre, Histoire des Druzes, p 59 - 60.

- الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(٢) المحبي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٦.

- حتي، المصدر السابق، ص ٤٦٣.

فالقتل عنده ليس وسيلة بل لذّة يتمتع بها.(١)

صدرت الأوامر السنة ١٦٣٣، إلى باشوات سوريا ومصر بالزحف ضد الثائر اللبناني بقيادة والي الشام آنذاك أحمد كوتشك باشا الصغير وكان قبلاً مملوكاً وضيعاً. وقد بدأ حياته وخدمته في خدمة الأمير فخر الدين نفسه وقد اشتهر في ما بعد بقمعه الدموي للثورة في الروملّلي، الأمر الذي أدّى احتمالاً إلى تعينه في مركز والي الشام(٢). وفي الوقت نفسه وُضع أسطول تركي مؤلّف من اثنتين وعشرين سفينة بقيادة جعفر باشا لمهاجمة الموانىء والحصون على الشواطىء اللبنانية ومنع أي نجدة خارجية، بالإضافة إلى احتلال موانىء طرابلس وبيروت وصيدا عند الضرورة.

ابتدأ أحمد كوتشك باشا بجمع الجند «من حدود بلاد الروم إلى حدرد مصر»(٣) وجعل «سعسع» بقعة تجمّع الجيش، فالتحق به آل سيفا وآل حرفوش وأمراء القبائل العربية من فلسطين مع رجالهم، حتى أصبح عديد جيشه يقارب ثمانين ألف رجل(٤) بما فيه قوات باشوات حلب ومصر والأمراء آل فريخ وطربيه.

ب - الأمير فخر الدين:

عندما علم الأمير فخر الدين بهذه الأوامر الصادرة من السلطنة العثمانية أحسّ بالخطر المحدق به، فاعلن من جهته التعبئة العامة، فاجتمع لديه جيش قوامه خمسة وعشرون ألف مقاتل، منهم اثنا عشر ألفاً من السكمان والفان من رجال الشوف ستة آلاف من العرب وثلاثة آلاف مع ابنه الأمير حسن وثلاثة آلاف مع مملوكه قايد، بالإضافة إلى رجال وادي التيم بقيادة الأمير أحمد الشهابي الذين بقوا في تلك البقعة

(١) شبلي، المصدر السابق، ص ١٤٣ - ١٤٤.
(٢) المحبي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٦.
- حتي، المصدر السابق، ص ٤٦٣.
(٣) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٤٤.
(٤) حتي، المصدر السابق، ص ٤٦٦.

لصد القوات العثمانية المغيرة من تلك الناحية. بعدها أرسل ابنه الأمير علي مع ستة آلاف رجل من بلاده إلى عجلون كي يمنع أمراء فلسطين من الالتحاق بجيش الوالي أحمد كوتشك باشا، وأرسل ابنه الأمير حسن مع ٣ آلاف إلى قلعة المرقب للتمركز بها دفاعياً، و٣ آلاف مع مملوكه قايد إلى قلعة بانياس، وأبقى معه ألفين من رجال الشوف مع فرقة السكمان. لكن الأمير فخر الدين ارتكب خطأ فادحاً كان سبب انهيار جيشه والقضاء عليه، وهو أنه وزّع قواته هذه بدلاً من أن يجمعها لمواجهة الجيش العثماني. لقد ظنّ الأمير أنه، بتوزيعه جيشه على هذا الشكل يسدّ كلّ المنافذ في وجه الجيش الغازي وحلفائه، من الشرق والشمال والجنوب، إلاّ أنه، في الواقع، خسر حرية التحرّك الأساسية وسمح لأحمد كوتشك باشا بضرب قواته المتفرّقة كلاً على حدة، من دون أن تتمكّن إحداها من مساندة الأخرى أو دعمها.(١)

ج - القتال:

١ - معركة حاصبيا - سوق الخان:

لم يتمكّن الأمير علي المعني من الصمود في جهات عجلون تحت ضغط القبائل العربية الموالية للأتراك، فانتقل منها إلى بانياس، بناء لأمر والده، في انتظار أوامر جديدة، متحاشياً معركة منتظمة مع العدو بل جذبه إلى المسالك الصعبة حيث يمكنه أن ينازله.

أتم الوالي استعداداته وانتقل إلى الهجوم متوجهاً في أيلول ١٦٣٣ إلى غزو وادي التيم، فأرسل قوّة قوامها عشرة آلاف مقاتل لسحق القوات الشهابية في تلك الناحية. وما أن وصلت هذه القوّة إلى بلدة «عرنا» حتى اشتبكت بطلائع الشهابيين الذين انهزموا إلى داخل وادي التيم - حاصبيا ومرجعيون - وإلى بلاد الشوف، فلحق بهم العثمانيون وقتلوا منهم عدداً كبيراً، ثمّ نهبوا وحرقوا هاتين البلدتين والقرى المجاورة لهما، ثمّ «نزلوا عند الخان الجديد تحت حاصبيا» المعروف

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٤٥.
- الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٠.
- حتي، المصدر السابق، ص ٤٦٦.

حالياً «بسوق الخان».[1] وكانت هذه الأخبار قد وصلت إلى الأمير علي المعني بواسطة رسالة استغاثة من الأمير الشهابي، فقرّر التوجّه إلى ساحة القتال لمساندة حلفائه في وادي التيم، وكان قد بقي معه نحو ألف مقاتل، فوصل إلى سوق الخان في الليل وأخذ يستعدّ لاقتحام مراكز العدو المعسكر في ذلك الموقع. وكان صادق باشا، حاكم حماه، مع ١٥٠٠ من رجاله، يتابع تحرّك الأمير علي، فلما تأكّد من قلّة عدد قواته قام بحركة التفاف واحتلّ قمّة الجبل المواجه للسوق، ثمّ شنّ هجوماً عاماً على قوات الأمير علي الذي أصبح بين نارين، نار القوات الحموية من الخلف ونار قوات الوالي واستغرقت المعركة حتى مطلع الفجر، خسر فيها الأمير علي معظم رجاله وأصيب هو في صدره بطعنة رمح من يد انكشاري يُدعى «حسين باشا» ولسوء حظّه أيضاً أصيب جواده بجرح مميت. وكان هذا الفارس الجميل، وعمره ٣٦ سنة، غير الهياب على غاية من الوهن والعياء، إلى جانب جرحه البليغ، فاستسلم بعدما ارتمى أرضاً إلى ذلك الانكشاري الذي اجتزّ رأسه ليحمله هدية إلى سيده الوالي أحمد كجك باشا في سعسع. وكان ذلك في ١٥ تشرين الأول العام ١٦٣٣.[2] ويقال إن الأمير علي استسلم إلى أحد جنود الوالي بعد أن وعده بمكافأة، إلاّ أن هذا الأخير عرفه فخنقه بفتيل بندقيته واجتزّ رأسه وأخذه إلى سيده... والله أعلم!.

كانت فرحة كجك باشا كبيرة جداً عندما وصل إليه رأس الأمير الشاب فأمر بنفخ أبواق الانكشارية ودقّ طبولها وأصدر أمره، كما قال المؤرّخ المحبّي، بتعليق الرأس على سن الرمح والتنقّل به في البلدة ليراه الناس. بعدها حنّط الرأس وأرسله مع اصبع من أصابعه التي فيها خاتم الأمير علي إلى جانب عدد من رؤوس القتلى اللبنانيين إلى اسطنبول.

٢ - حصار قلعتي نيحا الشوف أو شقيف تيرون:

علم فخر الدين بمقتل ولده الأمير علي في معركة سوق الخان، إلى جانب موت والدته

(١) الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٥٠٢.

(٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩١.

الست نسب قبل ذلك بقليل، تلك الوالدة الحكيمة والحليمة والتي كانت بمثابة المستشار الواعي. كلّ ذلك أدّى إلى هبوط معنوياته وفقدانه الأمل في الانتصار، وتفرّق السكمان جميعهم من حوله ولم يبقَ له من مؤيديه سوى أهله وأقاربه، فقرّر اللجؤ إلى قلعة نيحا الشوف مع «أولاده ونسائه وجواريه»، كما لجأ أخوه الأمير يونس مع ولديه ملحم وحمدان إلى برج «دوبيه» في بلاد بشارة.[1] وقد أسر الأمير وابنه حمدان في ما بعد وعذّبا حتى الموت، أما الأمير ملحم الابن، الثاني ليونس، فقد تمكّن من الفرار لاجئاً إلى الأمير طربيه في عجلون.

وأما كجك باشا، وبعد انتصاره في حاصبيا، فقد تابع تقدّمه بجيشه من سعسع إلى قبّ الياس فاحتلها سلماً وكانت يومذاك بوابة الطريق الجبلية إلى بلاد الشوف. وكان الوالي يعلم جيداً أن انتصاره لا يكتمل ما لم يتمكّن شخصياً من ترويض وقتل أسد الشوف اللبناني الأمير فخر الدين. لأجل ذلك قرّر استعمال الحيلة: فمن قب الياس أرسل إلى الأمراء والمشايخ والأعيان أنصار الأمير، عارضاً الصلح بأن يبدّل الأمير فخر الدين بأحد أولاده، وأن يُدفع له مبلغاً من المال لا بأس به وفي حال الايجاب يترك المنطقة ويعود إلى ولايته. وقد قبل الأمير بدفع مئة ألف غرش إلى السلطان وخمسين ألف غرش إلى كجك باشا. بعدها طلب الوالي حضور الأمير حسن، ابن فخر الدين بغية تعيينه مكان والده.

وبعدما قبض الكجك أحمد الأموال من يد نادر الخازن، وتأكّد من انفضاض أنصار الأمير عنه، أقدم على قتل الأمير حسن وتقدّم نحو الشوف زارعاً الموت والدمار في أهلها وعمارها، فقتل الكثير من الناس وحرق المنازل بعدما نهبت، وتوقف الوالي أمام قلعة نيحا، فأحكم الحصار عليها، وأتى بمعلّمين نقابين وقطاعين وأمرهم بأن يحفروا في القلعة من أعلى إلى أسفل، وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، أي ما يقارب العشرين متراً. ثمّ أمر بأن تفسد مياه «عين الحلقوم»، التي كان الأمير قد جرّها إلى القلعة تحت الأرض، بالدماء وكروش البهائم... ولما أدرك المحاصرون أنهم لا محالة واقعون في الأسر

(١) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩١.

تدلّى الأمير وعياله من القلعة ليلاً وتسلّلوا منها إلى مغارة جزين حيث اعتصموا فيها. أما الباقون فقد استسلموا إلى الوالي طالبين الأمان على أرواحهم، وكان ذلك في أواخر شهر كانون الأول ١٦٣٣.(١)

في هذه الأثناء، كان الأسطول العثماني، بقيادة جعفر باشا وزير الحربية، قد عاد بعد ترميمه، إلى الشواطىء اللبنانية، فانزل جنوده في مرفأ طرابلس واحتلّ المدينة وقلعة المرقس. وأسر الأمير حسين بن فخر الدين، ثمّ تابع ابحاره إلى مرفأ بيروت، حيث خيّمت قواته في ضواحي المدينة بعدما دمّر قصر الأمير وجرف حديقته الغنّاء.(٢)

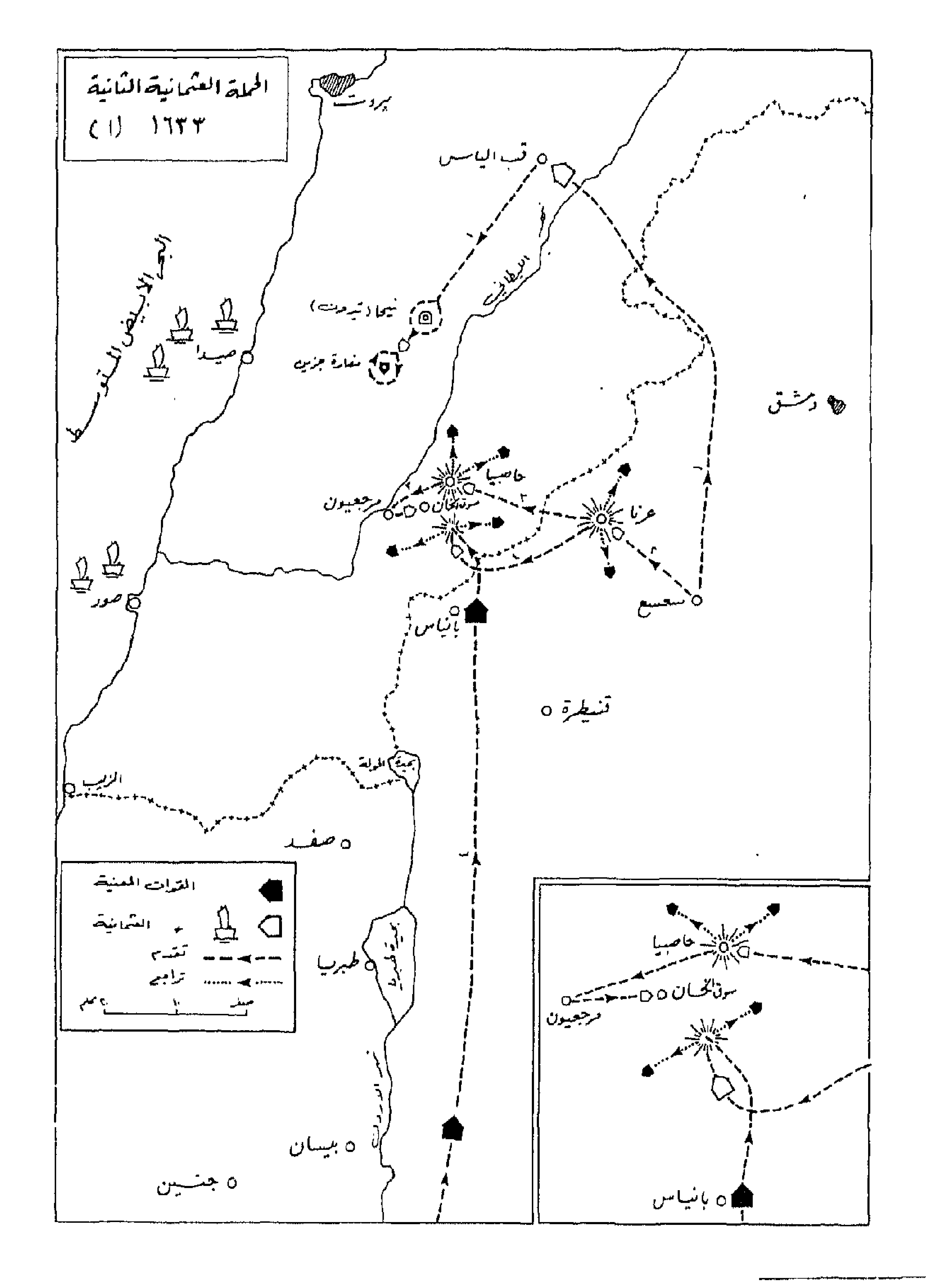
٣ - حصار مغارة جزين:

ما ان انتهى الوالي من حصار قلعة نيحا حتى انتقل إلى محاصرة مغارة جزين، من دون أن يكون على علم بوجود الأمير فخر الدين شخصياً في داخلها، فأقام عليها الحصار، لكن الشتاء داهمه فتركها وترك بعض الحرّاس عليها وعاد إلى دمشق. وقع أحد مماليك الأمير في يدي كجك باشا وكان هذا المملوك قد خرج يستطلع أخبار الأعداء، فاعترف للوالي بوجود الأمير داخل المغارة، عندها أصدر أمره بنقب جدرانها حتى وصل إلى أسفل أرضها ووضع لغماً وأنذر من بداخلها بأن اللغم إذا انفجر سوف يأتي عليهم جميعاً. فخرج الأمير وصحبه من المغارة واستسلموا للوالي الذي ساقه وأولاده الثلاثة حيدر ومنصور وبلك إلى دمشق ومنها إلى الاستانة حيث لاقوا حتفهم خنقاً العام ١٦٣٥(٣) في ١٣ نيسان وكان عمره ٦٢ سنة وهو القائل هذه الجملة المعبّرة: «إن الحظ يغدر ولا يحبّ من أصبحوا كباراً في

(١) الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٤٨.
- الشدياق، المصدر السابق، ص ٢٩٢.
(٢) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩١.
- شبلي، المرجع السابق، ص ١٤٦.
(٣) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٢.
- الخالدي، المصدر السابق، ص ٢٤٨.

خارطة رقم ١٣

العملة العثمانية الثانية ١٦٣٣[١]



(١) سويد، ياسين، ج ١، ص ٣٣١.

السن» أما الكجك أحمد باشا فلم يعمّر طويلاً بعد انتصاره على فخر الدين، فقد قتل العام ١٦٣٦ في معركة ضد الفرس.

لقد حاول العثمانيون، من دون طائل، تدمير فكرة الاستقلال والحرية في الإمارة ونسيان اسم فخر الدين، لكن هذه كانت الأقوى فاستمرّت.

٥ - التكتية العسكرية ومبادىء فن الحرب عند فخر الدين

في العام ١٦١٤، وبعد حوالى السنة من وجود الأمير فخر الدين المعني في توسكانا، أرسل أميرها قزما الثاني بعثة إلى لبنان لتقصّي الحقائق عن إمارة فخر الدين. وكان جوڤاني باتيستا سانتي أحد مهندسي هذه البعثة، قد رفع إلى الدوق تقريراً يقول فيه عن مشاة الأمير «إنهم يمشون وراء الراية بلا ترتيب، ويحاربون بلا نظام». وعن خيالته انهم «يسيرون جماعات بلا بوق، ويحاربون منفردين بين كرّ وفرّ، وكلّ الأمر في سرعة الحصان وخفّة حركاته...». ان الأمير فخر الدين فلم يدخل أي مدرسة حربية، لا في السلطنة ولا في غيرها، ليتلقى دروساً في فنّ الحرب، إنما، وبكلّ تأكيد، لم يكن جاهلاً على الإطلاق أساليب القتال المعتمدة في ذلك الزمان، وهو الذي اعتمد القوّة العسكرية لتحقيق طموحه السياسي. لم يكن عاجزاً أبداً عن تطبيق مبادىء التكتية العسكرية في معاركه، إذ نظّم جيشاً عصرياً بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى راوح عديده ما بين الستين ألفاً والمئة ألف مقاتل. وقد استعمل في معاركه: البحرية، والمدفعية، والمشاة، والخيالة، والهندسة المتبعة آنذاك إلى جانب اللوجستية العملانية.

يقول المؤرّخ عيسى اسكندر المعلوف في كتابه «دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف»: «عند الحرب، كان يصطفّ العسكر في جيش فخر الدين مخمّساً (صفوف خمسة بالعمق) من كتائب تسمى المقدّمة والساقة وجناحاها والميمنة والميسرة ووسطها القلب، وعند اصطلاء نار الحرب، ترفع الاعلام وتعزف المزامير وتقرع الطبول وتصطدم الصفوف فتطلق البنادق وترشق السهام وتدوي المدافع بنوع غير تام من الترتيب».

لقد استقى هذا المؤرّخ فكرته هذه من قراءته لكتب المؤرّخين الذين كتبوا عن هذا الأمير المعني.

يقول المؤرّخ الايطالي يوحنا ماريتي، الذي كتب عن الأمير فخر الدين مستعيناً بتقرير المهندس سانتي في ما يخصّ تاريخ الأسرة المعنية وشخصية الأمير والحوادث اللبنانية في عهده فوقع في أخطائه... وقد عمد في كثير من الأحيان، عندما خانته الوثائق، إلى مخيلته فملأ فراغ التاريخ بالأوهام.[1] كان رأي هذا المؤرّخ أن فخر الدين لم يكن يعرف فنّ الحرب وأن التكتية في عهده كانت نوعاً من الكرّ والفرّ «فإذا غزا العدو بقوّة والجيوش المجابهة أضعف، لا تصمد هذه الجيوش، وكلّ دفاعها الفرار، ولكن عند استرجاع رباطة الجأش وزيادة عدد المحاربين فإنها تجابه بقوّة مماثلة المعتدين الذين، للأسباب نفسها، يولون الأدبار، وهكذا تباعاً يرى المقاتلون أنفسهم يحتلون بلاداً شاسعة يخسرونها في اليوم التالي».[2]

إذا أردنا أن نقارن معارك فخر الدين وقيادته لها بمعارك اليوم وتطبيق من قادها لمبادىء وقواعد الفن الحربي، فإننا نقع في خطأ كبير، بالرغم من معرفتنا أن هذه المبادىء والقواعد قد وضعت وتدرّس حالياً في أرقى المعاهد الحربية في العالم، لم تكن سوى قواعد عمل مستقاة من نتائج الانتصارات والانكسارات في الحروب التي وقعت بين الدول منذ قديم الزمان وحتى يومنا هذا. وتطبيق هذه المبادىء والقواعد يؤمّن لنا احتمالاً كبيراً في صنع النصر.

فمن خلال دراستنا معارك فخر الدين لم نتبيّن عنده خطأً واضحاً ومحدّداً لفن عسكري قديم أو حديث، إنما كان «يتمتع بنظرة عسكرية لامعة تتيح له تحديد وضعه في المعركة واتخاذ المبادرة اللازمة لاعتماد الموقف الذي يمكّنه من النصر في نهاية المطاف». وخلاصة القول إن التكتية العسكرية هي فنّ القتال، أو فنّ إدارة المعركة في شكل يضمن للقائد إحراز النصر، وقد انتصر الأمير فخر الدين في معارك عديدة

---

(١) قرألي، المصدر السابق، ص ١٠ - ١١.

(٢) ماريتي، المصدر السابق، ص ٥٧ - ٥٨.

وخسر في غيرها، والمنتصر في الحرب هو القائد الكبير والعظيم. إنما في أيامنا هذه فالجيوش المنتصرة أو الخاسرة توضع خسارتها وانتصارها على بساط الدرس والتمحيص لاستخلاص العبر التي تساعد، في حال تطبيقها على الانتصار في المعارك والحروب المقبلة.

لقد اكتشف الأمير فخر الدين الكثير من مبادىء القتال بالحس والفطرة واستعملها بالبداهة، فنجح في بعضها وأخفق في البعض الآخر.

أولاً: التعبئة وحشد القوى:

مارس الأمير التعبئة العامة والتعبئة الجزئية بالنسبة إلى كلّ حال كانت تعترضه. ففي التعبئة العامة. كان فخر الدين يحشد كلّ قادر على حمل السلاح في امارته وفي المقاطعات التي كان يحكمها، كما كان يطلب من أنصاره وحلفائه في البلدان المجاورة لإمارته ان يحشدوا، بدورهم، رجالهم. ففي حملته على بلاد عكار العام ١٦١٨ - ١٦١٩، حشد كلّ رجال الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وصفد وبلاد بشارة والشقيف وصيدا ووادي التيم والبقاع، بالإضافة إلى سكمانه، وكذلك فعل في حملة العثمانيين على امارته العام ١٦٣٣. ففي التعبئة العامة استعمل الأمير كلّ وسائله وعتاده ومعداته ورجاله وإمكاناته.

أما في التعبئة الجزئية فكان الأمير يحدد للحشد اقطاعات معينة ويأمر حكامها بحشد رجالهم أو عدد محدّد منهم للقتال. ففي معركة نهر الكلب حشد ضد يوسف سيفا جيشاً قوامه خمسة عشر ألفاً من المقاتلين. وفي معركة الناعمة ضد ابن سيفا، حشد ثلاثة آلاف مقاتل من رجال الشوف ووادي التيم. وفي معركة عنجر حشد ضد مصطفى باشا والي الشام، خمسة آلاف مقاتل من رجال الشوف والجرد ووادي التيم وبلاد بشاره ومن جنده السكمان ومن رجال العرب في فلسطين.

ثانياً: الاستطلاع:

كان الأمير يستطلع أوضاع العدو وتحرّكاته على محاور تقدّمه بواسطة مفارز استطلاع تسير في الطليعة وتنفذ مهمتها بواسطة المراقبة أو بالتماس مع العدو. ففي حملته

على عكار اوقف فخر الدين جيشه في «قبولا» وتوجّه بنفسه مع ثلاثمئة من رجاله إلى بلدة عكار العتيقة ليستطلع أوضاع يوسف سيفا الذي انسحب إلى قلعة الحصن، فتبعه الأمير إلى هناك وأرسل يطلب من الأمير علي موافاته بباقي القوى.

ثالثاً: المناورة:

بالرغم من عدم توازن القوى انتصر الأمير على عدوّه والي الشام في معركة عنجر لأنه استعمل «المناورة» من خلال «فكرته» في اختيار «أرض المعركة»، واعتماد عنصر «المباغتة» وفي تطبيق هذه «الفكرة» في ساحة القتال، مما أدّى إلى انتصاره في المعركة. وفي حملته على القبائل في فلسطين العام ١٦٢٤، طبّق الأمير «مناورة تراجعية» استعمل فيها «النار والحركة» بنجاح رائع واستغلّ قوته البحرية المتواضعة لحماية مؤخّرة جيشه المنهزم، استغلالاً ناجحاً.

رابعاً: استغلال النجاح:

بعد انتصاره مع حليفه علي جنبلاط في معركة «عراد»، طاردت قوات الأمير فلول الجيش الشامي المنهزم حتى «المزة» قرب دمشق. وفي معركة «عنجر» استثمر الأمير انتصاره على الوالي، عندما طاردت قواته فلول الجيش الشامي باتجاه دمشق، وطاردت سكمان هذا الجيش إلى الجبل المطل على نبع «عنجر» وغنمت امتعتهم وبيارقهم.

خامساً: إخفاء النوايا عن العدو - استعمال عنصر المفاجأة والمباغتة:

في معركة «عنجر» استطاع الأمير إخفاء نواياه بالهجوم إذ ادخل في ذهن والي الشام، أنه اختار الدفاع من دون الهجوم، وترك أنصاره الشهابيين يتعاملون معه لوحدهم، ثمّ شنّ هجومه من الشمال والغرب والجنوب فهزمه. وفي معركة «نهر الكلب» ضد يوسف باشا سيفا كمن له عند مضيق النهر، ثمّ أطبق عليه من كلّ جانب فهزمه وشتّت جيشه.

سادساً: استخدام الاحتياط:

في حصاره قلعة طرابلس العام ١٦٢١ استخدم الأمير قسماً من احتياطه لانجاد فرقة من جنده وقعت في كمائن السيفيين

عند طرابلس قرب الميناء وقد استعمل الاحتياط في الدفاع عندما أخذت مفارز من جنده المُحاصَر في قلعة الشقيف السنة ١٦١٣ تقوم باغارات ناجحة على الجيش العثماني المحاصر خارج أسوار القلعة.

سابعاً: تطبيق مبادىء الفن الحربي في حروب فخر الدين:

إذا عدنا إلى مبادىء الفن الحربي الثلاثة، وحاولنا أن ندرس ما إذا كان فخر الدين قد طبّقها في حروبه من دون أن يدري أو يعلم بها، فإننا سوف ننتهي حتماً إلى نتيجة سلبية. خاصة في ما يتعلّق «بالتوازن النسبي بين الأهداف والوسائل» أو في «حرية العمل». فالأمير، في كلّ حروبه، لم يكن يوازن ما بين أهدافه ووسائله التي كانت في حوزته، كما لم يكن يمتلك دائماً حرية العمل. من هنا كان نجاحه في معاركه المحلية ضد خصوم ضعفاء على نفس المستوى من هذه الناحية، وكان فشله في معاركه الكبرى ضد الدولة العثمانية التي كانت تمتلك جيشاً قوياً منظّماً يقوده قواد كبار مجربون عجنتهم الخبرة. أما المبدأ الثالث أي «الحصيل الأقصى للوسائل» فلم يستعمله الأمير، فالخطأ الكبير الذي ارتكبه في حربه مع العثمانيين السنة ١٦٣٣، والذي أدّى إلى أسره وإبعاده عن الإمارة وقتله في النهاية، وهو توزيع قواته بدلاً من أن يحشدها في وجه جيش يفوق جيشه بنسبة الضعفين، فخسر بذلك حرية العمل والمناورة، كما خسر إمكان الإفادة من وسائله إلى أقصى الحدود.

وأياً تكن الحال علينا الاعتراف بأن الأمير فخر الدين المعني الثاني كان قائداً سياسياً أكثر منه عسكرياً. وكان طموحه السياسي يتجاوز إلى حدّ كبير إمكاناته المادية، وخاصة العسكرية فلم يتمكّن من ايجاد توازن ما بين «أهدافه السياسية والوسائل التي يملكها لتحقيق هذه الأهداف» لقد كان الأمير، من هذه الناحية، مغامراً شجاعاً، فخسر كلّ شيء بعد أن كان راهن على ربح كلّ شيء. لقد أخطأ في التقدير والتبصّر فدفع الثمن غالياً، خسارة الإمارة وخسارة الموت على أرض الوطن.

الفصل العاشر

الإمارة المعنية بعد فخر الدين

١ – توطئة

اجمع الذين عرفوا الأمير فخر الدين وعايشوه أو أشبعوا سيرته درساً وتمحيصاً على أن وفاة أمه «الست نسب»، أحدثت في نفسه صدعاً عميق الغور، فأمسى بادي الكآبة، سريع الغضب، يبطش بخصومه اليمنيين بلا هوادة، ويقسوا حتى على جنوده ورجال حاشيته، ويتحدّى السلطنة العثمانية القوية غير حاسب لنقمتها حساباً.

لقد قرّر السلطان مراد الرابع أن يقبض على زمام السلطة بيد من حديد، فقضى على الخونة وأبعد المتخاذلين عن مناصب القيادة ونظّم جيوشه وقرّر أن يضرب كلّ من لا يذعن لمشيئته صاغراً في طول السلطنة وعرضها.

تنفّس أعداء الأمير الصعداء فراحوا يرفعون بحقه الشكاوى والوشايات إلى الباب العالي، وكان أهمها الكفر والتمرّد على السلطان والسعي إلى تقويض أركان السلطنة طمعاً بالاستيلاء عليها وبسط سيطرته على أقطارها. إن هذه الاتهامات لم تؤثّر في السلطان بقدر ما أثّرت فيه أخبار ثراء الأمير، وما لديه من الكنوز التي يعجز عن جمعها عظماء الملوك والسلاطين.

كان مراد الرابع عنيفاً بطبعه، يحب البطش، وينتشي بسفك الدماء، فقرّر أن يضرب أمير لبنان ضربة قاضية، وقد نفذها بواسطة أحمد كجك باشا، الذي، من سخرية القدر، ان هذا الباشا ربّي عبداً رقيقاً في قصر الأمير المعني، فعطف عليه

وحرّره من العبودية وثقّفه وجعله «تحصيلدار» أي رئيس جباة الضرائب، وهو منصب من أرفع مناصب الإمارة في ذلك الزمان.

إلاّ أن الحرية التي خلعها الأمير على كجك باشا لم تحرّر نفس العبد من الضغينة والحقد ولم تكسبه شيئاً من الشهامة والمرؤة العربيتين، فكان من النوع الذي يكره المحسنين إليه، لاعتقاده أن إحسانهم يجرح كبرياءه، ويحب المتزلّفين إذ يحسّ بأن ذلهم يدغدغ غروره. لقد زحف كجك باشا بجيش ضخم، فكان زحفه رهيباً دامياً. نهب المدن والقرى، قطع الأشجار، أحرق البيادر، قتل الناس من دون شفقة وفرض هيبة الباب العالي.

كان الأمير المعني في الثانية والستين من العمر. رقّ عوده، ووهنت قواه وخطّ الشيب لحيته ورأسه فإذا به صورة حيّة للوقار.

٢ – نهاية الأمير فخر الدين وموته (١٦٣٥)

في مساء العاشر من كانون الأول من العام ١٦٣٤ أطلّ من باب مغارة جزين شيخ جليل أبيض الرأس، محدودب الظهر، ينتابه سعال حاد. إنه أمير لبنان، يلقي سلاحه، ويستسلم لمشيئة القدر. اقتاده أحمد كجك باشا مع أولاده الأحياء إلى اسطنبول عاصمة السلطنة أسيراً. حاول الأمير تبرئة نفسه أمام السلطان بأن ادعى بأن الوشاة قد كذبوا ولفّقوا ما طاب لهم الكذب والتلفيق وقد ظلموه. ففي السنة ١٥٩٠ تسلّم الإمارة وعمل بأمانة وإخلاص، وقد دمّرها إبراهيم باشا، فجعلها أخصب بقعة في السلطنة العلية وأسبق البلدان إلى دفع الضرائب والخراج. يقول الأمير إن السلطنة كلّفته رسمياً بنشر الأمان وفرض القانون، وهو لم يفعل غير ذلك، فقاتل آل سيفا أعداءه وأعداء العثمانيين، وعندما لقّبه السلطان بسلطان البر، حسده الخصوم وسعوا به لدى الدولة كاذبين. لقد منع خسرو باشا وقواته الانكشارية من الاشتاء في لبنان، وقد أثبتت الأيام ان خسرو باشا خائن، استحقّ غضب السلطان... لقد ادعى الأمير بأنه فعل ما حسبه يخدم الباب العالي والمصلحة العامة، و«يشهد الله على سلامة نيّته». لقد أجاد الأمير في الدفاع عن نفسه ولكن إلى حين.

بعد كلّ هذا اطمأنّ السلطان وأمر رجاله بالمحافظة على فخر الدين وبالحاق ولديه منصور وحسين بالقصر السلطاني، وبعد أيام أمر بالزحف إلى بلاد فارس.

لكن القدر أبى إلاّ أن يلعب لعبته الأخيرة، ففيما كان السلطان مراد يزحف إلى نلاد الفرس، لحق به البريد وفيه خبر من لبنان: «هاجم الأمير ملحم المعني جيش الدولة العلية وانتصر» فأعطى السلطان أمره بخنق أمير لبنان فخر الدين وحمل الأمر رسول خاص إلى اسطنبول، فبلغها في ١٣ نيسان ١٦٣٥. وهكذا دخل حجرة الأمير رجلان أصمّان أبكمان هما من وحدة الجلاّدين في قصر السلطان... لقد انتهى كلّ شيء. فقد عقدا الحبل حول عنق الأمير وفي وجهيهما غباء الجماد، وصلابة الحجر وعمى القدر. وفي دقائق معدودة لفظ الأمير أنفاسه، وانتهت حقبة زمنية مشرقة وطويلة من تاريخ لبنان بفضل شخصية الأمير وقوّته واتساع نفوذه. لقد أقام إمارة مستقلّة حرّة سيّدة كريمة.

٣ – الإمارة بعد فخر الدين

كان انهيار حكم فخر الدين العام ١٦٣٣ نذيراً ببدأ تقلّص الدولة المعنية وعودتها إلى حدودها القديمة، إمارة الشوف، إن لم يكن نذيراً ببدء انهيار حكم الأسرة المعنية برمّتها.

بعدما استسلم الأمير واقتيد إلى الاستانة ولّى العثمانيون على إمارة الشوف أميراً من خصوم الأسرة المعنية القيسية، هو الأمير علي علم الدين زعيم الحزب اليمني في البلاد، وأطلقت يده للانتقام من آل معن ومحازبيهم القيسيين. وإذ كان من الطبيعي أن يستغلّ اليمني الفرصة، قبض على بعض مناصري آل معن وقتلهم وسلب أرزاقهم، وانطلق إلى بلدة عبيه حيث دعاه الأمراء التنوخيون القيسيون (آل بحتر) إلى الغداء عندهم في السرايا تحت القرية. وبينما كانوا يأكلون وثب عليهم بجماعته وقتلهم، وكانوا أربعة هم الأمراء: يحيى العاقل ومحمود وناصر الدين وسيف الدين، ودهم أولادهم الصغار في البرج وقتلهم وكانوا ثلاثة فانقطعت بهم السلالة التنوخية – البحترية القيسية».[1] لم

(١) مفرج، المصدر السابق، ص ٢٦٥.

يرق هذا الأمر للأمير ملحم بن الأمير يونس المعني والذي كان قد فرّ سابقاً ولجأ إلى أحد أنصار أسرته في قرية «عرنا» في سفح جبل الشيخ. ومن هناك أخذ يراسل أنصاره ليجمعهم حوله «ويهيىء نفسه لمعركة فاصلة مع العثمانيين وحلفائهم اليمنيين».

ومما لا شكّ فيه أن الجيش المعني كان قد اندثر وتشتّت من السكمان الذين فرّوا، وانفضّ الحلفاء جميعاً من حول الأمير ولم يبق منهم إلاّ بقايا الشهابيين الذين تركهم العثمانيون في حالة بائسة بعد أن قتلوا جميع زعمائهم، فلم يتكوكب حول الأمير ملحم إلاّ أنصاره القيسيين من أهل الإمارة والتي تدفع بهم العاطفة الحزبية الحميمة، فالتفّ حوله ما يقارب الاثني عشر ألف مقاتل.(١)

٣١ - معركتا القيراط (١٦٣٥) وأنصار (١٦٣٨):

في العام ١٦٣٥ اجتمع إلى الأمير ملحم المعني جمع من القيسية في عرنا فنهض بهم إلى الشوف حيث انضمّ إليه عدد كبير من أنصاره من كلّ جهة، بينما حشد الأمير علي علم الدين والي الشوف لقتاله أنصاره من الحزب اليمني، مع فرقة من جند الكجك باشا والي الشام بقيادة مدبره وكاخيته. التقى الفريقان في أرض «القيراط» قرب بلدة «مجدل معوش» ودارت بينهما معركة طاحنة انتهت بانتصار الأمير ملحم وفرار الأمير علي علم الدين وتشتّت قواته ومقتل مدبر الكجك أحمد باشا وهزيمة جنوده بعد قتل عدد كبير منهم. «فاشتدّت شوكة الأمير ملحم وكثرت جموعه وعصبيته».(٢)

لقد كانت نتيجة هذه المعركة وبالاً على الأمير فخر الدين الموجود في الاستانة، إذ أن الكجك أحمد جدّد شكواه للسلطنة من آل معن محرضاً إياها على الأمير فخر الدين نفسه، محمّلاً إياه المسؤولية كاملة، مما جعل السلطان ينفذ حكم الموت بالأسرة المعنية الأسيرة لديه، ما عدا الأمير حسين الذي

---

(١) قرألي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٠.

(٢) الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٣.

تقدّم في ما بعد بالخدمة «الملوكية وصار قبوجي باشا».[1] وكان السلطان مراد قد وعد الأمير بالعفو عنه وعن أسرته.

٣٢ - فوضى الحكم في الإمارة الشوفية:

كان من الطبيعي جداً أن تدبّ الفوضى في إمارة الشوف، لأن الحكم فيها أصبح برأسين اثنين: الأمير ملحم المعني القيسي والأمير علي علم الدين اليمني. وقد غذّت السلطنة العثمانية نار الخلاف بين الحزبين من دون أن تحسم النزاع لصالح أي منهما، رغبة منها في إضعاف الفريقين، فالمبدأ الذهبي عندها كان «فرّق تسد»، وقد بقي سائداً حتى ارتحال العثمانيين عن بلادنا العام ١٩١٨.

عندما ولّى الأتراك زعيم اليمنية على الشوف في تلك الأيام، خاف منه المشايخ آل الخازن وآل حبيش، أنصار الأمير المعني، ونزحوا من كسروان. لكن الأمير ملحم طرد الأمير علي علم الدين من الشوف في تموز ١٦٣٧ وقد جرت بينهما مواقع كثيرة كان النصر فيها للأمير ملحم الذي بقي والياً في الشوف «وازوج ابنته للأمير حسين الشهابي».[2] ومهما يكن من أمر، فالأحوال بقيت مضطربة، وكذلك الحكم، وظلّ القتال سجالاً بين الأميرين القويين في الشوف. فالأمير ملحم يسعى جاهداً لتثبيت حكمه، حرباً أو سلماً، والأمير علي يسعى جاهداً للحصول على الإمارة حربا أو سلماً كذلك. يقول المؤرّخ المحبي في كتابه «خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر» «إن الأمير ملحم المعني سعى على الإمارة، فولي الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان، وكان حازم الرأي عاقلاً، له حسن تصرّف وانقياد تام إلى جانب السلطنة، فلهذا ابقي مدّة تزيد على عشرين سنة».[3]

---

(١) الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٣.

(٢) الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٧٣.

(٣) المحبي، خلاصة الاثر، ج ٤، ص ٤٠٩.

بعد فرار الأمير علي علم الدين من الشوف تحت ضغط الأمير ملحم المعني لجأ إلى بلدة «أنصار» قرب النبطية في الجنوب، مستنجداً بمشايخ آل منكر ضد الأمير ملحم الذي جهز قوّة من أهل البلاد وقصد تلك البلدة لمداهمة الأمير علي فيها، لكن الأمير تمكّن من الفرار وأرسل يطلب النجدة من والي الشام الذي أرسل إليه فرقة من السكمان توجّهت لقتال الأمير ملحم الذي علم بقدومها، فأحرق البلدة وهدم منازلها وقتل حوالى الألف وخمسماية من أهلها.[١] والله أعلم!. ودخلت فرقة السكمان مناطق الشوف والمتن والغرب والجرد من إمارة ابن معن فخربوها وطردوا أهلها.[٢]

٣٣ - معركة وادي القرن (١٦٥٠):

في العام ١٦٥٠ تمكّن الأمير علي علم الدين بسعيه الداؤب من اقناع والي الشام آنذاك بشير باشا، بمحاربة الأمير ملحم، واسناد إمارة الشوف إليه، وقد أغراه بالمال وألحّ عليه. لذلك جهّز جيشاً سار هو على رأسه، متوجّهاً إلى بلاد الشوف عن طريق وادي القرن بين لبنان وسوريا. ولما علم الأمير ملحم بذلك توجّه هو نفسه بقوّة من رجال البلاد لملاقاته في الوادي عينه وكان بمعيته الأميرين الحليفين حسين وقاسم الشهابيين حاكما وادي التيم، فدارت بين الخصمين معركة طاحنة انتصر في نهايتها الأمير ملحم وانصاره وهزم الوالي وجرح الأمير علي وتشتّت جيشهما.[٣]

وفي العام ١٦٥٨ توجّه الأمير ملحم إلى صفد لجباية المال السلطاني فمرض في عكا بالحمّى وانتقل إلى صيدا فتوفي فيها ودفن في مقبرة المعنيين وله ولدان، الأمير أحمد والأمير قرقماز، بعد أن حكم إمارة الشوف نحو عشرين عاماً، تولى في أواخرها العام ١٦٥٤، ولاية صفد.[٤]

(١) مجلّة العرفان لأحمد عارف الزين، صيدا، السنة ١٩١٠، ص ٢٨٦.

(٢) الدويهي، المصدر السابق، ص ٣٣٧.

(٣) الدويهي، المصدر السابق، ص ٣٤٧.

(٤) الشدياق، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

٣٤ - الأمير أحمد المعني أميراً على الشوف (١٦٦٤):

أولاً: حادثة مزبود ١٦٦٢:

بعد وفاة الأمير ملحم خلفه ولداه الأميران أحمد وقرقماز على إمارة الشوف، وكان ذلك في السنة ١٦٥٨. وفي العام ١٦٦٠ أصبحت صيدا ولاية، وفي ١٦٦٢ عيّن عليها والياً محمد باشا الأرناؤوط فسعى للقضاء على حكم الأسرة المعنية عن طريق قضائه على الأميرين أحمد وقرقماز اللذين كانا على بيّنة من نوايا الدولة ضدهما، خاصة بعد وقعة وادي القرن، فلجأ إلى الجبال وامتنعا عن ارتياد صيدا، مكتفيين بالتفاوض مع الوالي بواسطة الرسل. كتب الوالي إلى الأميرين وأطلق لهما الأمان وأمرهما بأن يرسلا له رجلاً من خواصهما للتفاوض معه ولعقد الصلح وإرسال خلعة الولاية لهما. فانخدعا بذلك وظهرا من مخبئهما وأرسلا له مدبرهما ومعه هدايا، فأكرمه الوالي وطلب منه أن يتمّ لقاء بين كاخية الوالي وبينهما. وتنتهي الأمور على خير وبركة. وقد تمكّن الوالي بدهائه من كسب ثقة الأميرين وجرّهما إلى لقاء مع بعض مفاوضيه في جوار قرية «مزبود». وعيّن الوالي لذلك اللقاء كاخيته حسن آغا الباني ورسم له خطة العمل لتنفيذ المؤامرة ضد الأميرين، وعيّن لمرافقته ومساعدته في التنفيذ عشرين ضابطاً من ضباطه الشجعان، «وكانت إشارة بدء تنفيذ خطة الاغتيال هي أن ينقضّ الضباط وجنودهم عليهما وعلى رجالهما فور أن يستلّ حسن أغا سيفه».

وفي الوقت المحدّد وصل الأميران إلى مزبود ومعهما حوالى خمسماية مقاتل من رجال البلاد الشوفية، فرحّب الآغا وضباطه بهما وبدأوا جميعاً جلسة عمل لوضع صيغة اتفاق بين الفريقين. وقبل انتهاء الاجتماع بقليل استلّ الآغا سيفه إشارة البدء بتنفيذ المؤامرة، وضرب به الأمير قرقماز فقتله. وانقضّ الضباط وجنودهم على الرجال المرافقين، وقد تمكّن الأمير أحمد من الفرار من بين القوم سالماً بعد أن عاجله بعض الرجال بضربة أصابت رقبته بجرح بليغ، فبقي كلّ حياته يابس الرقبة لا يستطيع

تحريكها».[1] ولم ينجُ من مرافقيه سوى اثنين فقط. ثمّ جمع رجاله وعاد بهم إلى الجبل،[2] مخبئه حيث ظلّ متخفياً حتى العام ١٦٦٤، فأعطى محمد باشا الارناؤوط «ولاية الشوف للأمير محمد علي اليمني والشيخ أبي علون من قيسية الباروك».[2] وفي هذا العام عزل محمد باشا الارناؤوط عن ولاية صيدا، وظهر الأمير أحمد المعني ليجمع أنصاره القيسيين من حوله، ويسير بهم إلى الشوف حيث أعلن نفسه أميراً عليه بدلاً من محمد اليمني الذي حارب الأمير محمد لمدّة سنتين وكانت وقعة «الغلغول» التي انتهت بانتصار الأمير محمد المعني وبهزيمة اليمني ابرز تلك المواجهات.

ثانياً: معركة الغلغول (١٦٦٦):

السنة ١٦٦٦، جرت معركة في «الغلغول» عند برج بيروت، بين الأمير أحمد المعني وأنصاره من الحزب القيسي والأمير محمد علم الدين وأنصاره من الحزب اليمني قتل فيها المقدّم عبدالله بن قايد بيه بن الصواف، مقدّم اليمنية، وفرّ الأمير محمد علم الدين وأغلب الأمراء اليمنيين إلى دمشق وتوطنوا هناك. فاستقلّ الأمير أحمد المعني بحكم بلاد الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان.[3] وقد دام حكمه لهذه البلاد حتى وفاته في ١٥ أيلول عام ١٦٩٧ بلاعقب.[4]

في العام ١٦٧٩ توفي الأمير ملحم ابن الأمير أحمد المعني وكان عمره ١٢ سنة. وفي العام ١٦٨٠ تزوّج الأمير موسى منصور شهاب، أمير حاصبيا وتوابعها، من ابنة الأمير أحمد المعني ورزق منها ولده الأمير حيدر الذي سيلعب دوراً مهماً في تاريخ البلاد.

---

(١) الشدياق، المصدر السابق، ص ٣٧٧.

(٢) الدويهي، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٣) الشدياق، المصدر السابق، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩.

(٤) الشدياق، المصدر السابق، ص ٣٨١.

ثالثاً: تنحّى الأمير أحمد عن حكم البلاد (١٦٩٣) والعودة وانتهاء الحكم المعني (١٦٩٧):

في هذه السنة ترك علي باشا ايالة طرابلس ليصبح وزيراً للصدارة، وتولى مكانه ارسلان باشا المطرجي. ومن حلب أرسل علي باشا إلى الأمير أحمد المعني يعرض عليه ولاية مقاطعات الحمادية وان يمنع اذاهم عن ايالة طرابلس، فلم يقبل، فولّى الوزير على تلك المقاطعات حاكمين من غير الحمادية. ففرّ أولاد الشيخ حسين حماده إلى بتاتر في الشوف، فأرسل ارسلان باشا عسكراً في طلبهم إلى تلك الديار فعاثوا دماراً وفساداً فيها، مما دفع أولاد الشيخ حسين حماده مع أنصارهم إلى دهم القوّة في «عين قبعل» في فتوح كسروان وقتلوا منهم أربعة أمراء أكراد وابن الأمير موسى اليمني واثنين من بني الشاعر المقدمين و٣٣ رجلاً، فقدّم ارسلان باشا الشكوى إلى السلطان أحمد بان الأمير أحمد المعني هو المسؤول عن هذه الهزيمة. فأصدر السلطان أمراً إلى ارسلان باشا والي طرابلس بقتال ابن معن بالتعاون مع إسماعيل باشا والي دمشق ومصطفى باشا والي صيدا وأحمد باشا والي غزّة ودرسن باشا والي حلب والأمير موسى ابن علم الدين زعيم الحزب اليمني الذي تلقى أمراً سلطانياً بتولّيه على مقاطعات ابن معن.

يشنّ ارسلان باشا وحلفاؤه على الأمير أحمد المعني حملة قوامها ثلاثة عشر ألف مقاتل من «جماعة اليمنية» وأحزابهم وبعض من القيسية، منهم النكدية والعيدية والشيخ سيد أحمد أبو عذرا واليزبكي والشيخ حصن الخازن.[1] واجتمع الجيش في مرج «عرجموس» في البقاع فلمّا رأى الأمير ضخامة الحملة وهولها وهولها وانفضاض معظم انصاره من حوله، فرّ من الشوف إلى وادي التيم واختبأ عند الأمير نجم الشهابي نحو سنة كاملة، تولّى خلالها الأمير موسى علم الدين حكم البلاد مكانه.

(١) الشدياق، المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٢) الشدياق، المصدر السابق، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

في العام ١٦٩٤ ظهر الأمير أحمد المعني في وادي التيم وزحف بجيش من أنصاره القيسيين إلى الشوف لطرد الأمير موسى الذي فرّ هارباً والتجأ إلى مصطفى باشا والي صيدا. وما لبث الأمير أحمد أن نال عفواً من السلطنة فاستقرّ في حكم إمارة الشوف حتى آخر ولايته التي كانت آخر ولاية لآل معن في البلاد.

الخاتمة

لم يحتل حاكم في تاريخ الإمارتين المعنية والشهابية في لبنان المكانة التي احتلّها الأمير فخر الدين الثاني المعني. فقد انشأ مؤسّسة عسكرية كانت دعامة إمارته وسياجها، وحالت دائماً دون تصدّع هذه الإمارة تحت ضربات تنهال على الأمير من داخل بلاده أو تسدّد إليه من خارجها.

بهذه المؤسّسة العسكرية استطاع فخر الدين أن يفرض نفسه وان يحقق الوحدة الوطنية في إمارة ضمّت خليطاً من العناصر، متعدّدة الميول والأهواء. فالأرض الواحدة شدّت الناس بعضهم إلى بعض، أمّا الجيش فقد كان الأداة التي مكّنت الأمير المعني من إحقاق الحق ورفع المظالم عن الناس في لبنان والبلدان المجاورة.

من الخطأ الاعتقاد أن الجيش المعني على أيام الأمير فخر الدين، كان مزيجاً من المرتزقة الأجانب والوطنيين، وأن تنظيمه وتطوّره وأمجاده وليدة الصدف، أو أنه عمل رجل لم يكن أكثر من آلة في يد الاتراك العثمانيين أو في يد القدر. فقد خضع تنظيم جيش الأمير وتطوّره لقواعد وقوانين الفن العسكري التي كانت معروفة حينذاك. واجتاز هذا الجيش منذ نشأته إلى يوم رحيل الأمير مراحل ذاق خلالها حلاوة الظفر في كثير من المعارك كما ذاق مرارة الهزيمة في عدد منها، فكان في الحالين جديراً بتقاليده أميناً لرسالته التي وضعها له الأمير المعني الكبير.

سقط الأمير فخر الدين، وسقطت معه، عملياً، الدولة المعنية. لقد كان طموحه كبيراً، أكبر من إمكاناته وإمكانات

الإمارة الشوفية. سعى خلال ما يقارب النصف قرن من الزمن إلى بسط سيطرته ونفوذه على أرجاء واسعة من البلدان المجاورة لإمارته. مع فخر الدين زعيم الحزب القيسي، نام الحزب اليمني نومة أهل الكهف، ولم يفق من غيبوبته الطويلة إلاّ عندما أقامه العثمانيون من رقاده بعد سقوط الأمير فخر الدين مباشرة.

ثمّ نشب صراع دام بين الحزبين التقليديين والعريقين في إمارة الشوف، القيسي واليمني، أو بين العائلتين اللتين تتزعّمانهما، آل معن القيسي، وآل علم الدين، اليمني. لم يقم هذا الصراع الدامي لو لم تكن السلطنة العثمانية تريد ذلك، فأمّنت لليمنيين المساعدات اللازمة للبروز في إمارة الشوف وعيّنت علي علم الدين أميراً عليها. وهذا التعيين أدى إلى وقوع معارك بين المعنيين واليمنيين للسيطرة على الحكم المحلّي. وهكذا تمزّقت الإمارة ودبّ فيها عدم الاستقرار السياسي وعدم التوازن الحالي. لقد حورب فخر الدين بعنف، ليس بصفته رئيساً لإمارة لبنانية صغيرة في الشوف، بل الأصح بسبب فتوحاته العسكرية خارج حدود جبل لبنان الطبيعية والتاريخية. هذه الفتوحات التي أثارت ضده الباشوات، مع الأمراء المحليين، الذين كانوا متمسّكين بمصالحهم الشخصية ويغارون على امتيازاتهم الاقليمية في بلاد الشام. لقد أعاد العثمانيون إمارة فخر الدين إلى ما كانت عليه أيام المعنيين الأوائل.

لم يدم الحكم ليمني طويلاً، إذ دشّن آل علم الدين عهدهم القصير بالقضاء على الأسرة البحترية القيسية بكامل أعضائها، ممّا أدّى إلى حرب أهلية دامت عامين. ثمّ عاد السلام ظاهرياً إلى المنطقة حين تمكّن الأمير ملحم المعني، ابن أخ فخر الدين من استرجاع الإمارة، على أن الوضع بقي مشوّشاً إلى سنين. فبالرغم من أن السيادة القيسيّة توطّدت على بلاد الشوف وكسروان من جديد في عهد هذا الأمير (١٦٣٥ - ١٦٥٧)، ثم في عهد ابنه الأمير أحمد (١٦٥٧ - ١٦٩٧)، إلاّ أن اليمنيين كانوا ما زالوا قوّة لا يستهان بها في البلاد كما ظلّ آل علم الدين يعتبرون انفسهم أحق بالامارة. لقد انتزع العثمانيون من أيدي

المعنيين المناطق الواقعة إلى الشمال من كسروان، والمناطق الداخلية، والمدن الساحلية، وأصبحت صيدا والمناطق المحيطة بها والمقطعة من الإمارة المعنية، وحدة إدارية جديدة (١٦٦٠) على رأسها وال عثماني، كلّف بمراقبة إمارة المعنيين في جبل لبنان عن كثب وبطريقة أفضل.

كان لسقوط الإمارة المعنية وتقوقعها مركزياً في الشوف أسباب عديدة، تعود في معظمها، أو كلّها، إلى عوامل شخصية وجدت عند الأمير فخر الدين ولم توجد عند خلفائه، بالإضافة إلى عوامل أخرى خارجة عن شخصية الأمير، منها: فشل تحالفات الإمارة المعنية مع الخارج، وتضافر القوى الحزبية المناوئة للمعنيين في الداخل، ونجاح السلطة العثمانية في الحد من سلطة المعنيين باعتمادها أسلوب المناورة بين الأفرقاء المتنازعين، وتغذية النزاعات بينهم بكلّ الوسائل، لكي تستمر في استنزاف القوى الداخلية جميعها، معنية وعلم دينية، قيسية ويمنية، عملاً بالمبدأ المتبع في أية سياسة مكيافيلية «فرّق تسد». وقد تمّ ذلك فعلاً.

لقد أصبحت شخصية فخر الدين القوية، في حياته وزماناً طويلاً بعد موته، مادة اسطورية بتأثيرها في الناس «ولا يزال اسمه، حتى يومنا الحاضر، يردّد أكثر من أي اسم آخر، وكانت شخصيته تطغى على جميع الوجوه الثانوية... التي كانت تتحرّك حوله... فالذهنية الفردية المستمرّة هي التي أخّرت استقلال بلاد الشام عدّة قرون».

لقد بيّن الأمير فخر الدين معنى المصير وشكّلت حياته رابطاً ما بين لبنان الماضي ولبنان الحاضر.

ونهاية القول، إن الحقبة الواقعة ما بين اختفاء الأمير فخر الدين عن مسرح السياسة في بلاد الشام العام ١٦٣٣ وبداية القرن الثامن عشر، مرحلة احتضار للمعنيين كأسرة حاكمة، انتهت بانتهاء آخر أمرائها في الخامس عشر من أيلول العام ١٦٩٧، ومرحلة تفكّك الإمارة التي شهدت مع فخر الدين أزهى أمجادها.

المصادر والمراجع

١ - اليان، جوزف - بنو سيفا - ولاة طرابلس (١٥٧٩ - ١٦٤٠)، دار لحد خاطر ١٩٨٧.

٢ - الصليبي، كمال سليمان - تاريخ لبنان الحديث - دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٦٩.

٣ - العثمانيون - الجامعة اللبنانية - الفرع الثاني، ١٩٨٠.

٤ - لامنس، هنري - تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار، طبعة ثانية، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩١٣ - ١٩١٤.

٥ - الشدياق، طنوس - أخبار الأعيان في جبل لبنان - بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٧٠.

٦ - الدويهي، اسطفان - تاريخ الأزمنة (١٠٩٥ - ١٦٩٩)، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥١، بيروت.

٧ - الدويهي، اسطفان - تاريخ الطائفة المارونية - نشره رشيد الشرتوني، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٠.

٨ - المحبي، محمد - خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر - القاهرة، المطبعة الوهبية، ١٢٨٤هـ، ج ٣.

٩ - المنير، حنانيا - الدر الموصوف في تاريخ الشوف - نشر في مجلّة المشرق السنة ١٩٥٤.

١٠ - الحتوني، منصور - نبذة تاريخية عن المقاطعة الكسروانية - نقّحها ونشرها يوسف ابراهيم يزبك، ١٩٥٦، بيروت.

١١ - الخالدي، الصفدي أحمد بن محمد - لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني - منشورات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩، بيروت.

١٢ - المعلوف، عيسى اسكندر - تاريخ الأمير فخر الدين الثاني المعني، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٦.

١٣ - الشهابي، الأمير حيدر - الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان - ج ١، مطبعة السلام، مصر، ١٩٠٢.

١٤ - السودا، يوسف - في سبيل لبنان - منشورات دار خاطر، ١٩٨٨.
١٥ - العثمانيون - الجامعة اللبنانية - الفرع الثاني، ١٩٨١، بيروت.
١٦ - الدبس، يوسف - تاريخ سوريا - ج ٧، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٥، اعادة الطبع منشورات جوكار، ١٩٨٦.
١٧ - المدرسة الحربية - لبنان - محاضرات في التاريخ العسكري - ترجمة وتحضير النقيب طلال المهتار، ١٩٦١.
١٨ - المدرسة الحربية - لبنان - محاضرات في تاريخ الشرق الأوسط - اعداد العقيد حبيب الأسمر، ١٩٦٢.
١٩ - الوف، مخايل - تاريخ بعلبك - ط ٤، بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩٢٦.
٢٠ - بولس، مسعد - نسيب وهيبه الخازن - الأصول التاريخية، ج ٣، مكتبة صفير، ١٩٥٦ - ١٩٥٨.
٢١ - بولس، جواد - لبنان والبلدان المجاورة - بدران وشركاه، بيروت، ١٩٧٣.
٢٢ - ابن يحيى، صالح - تاريخ بيروت - بيروت، دار المشرق، ١٩٦٩.
٢٣ - تشرسل، شارل، هنري - جبل لبنان - عشر سنوات إقامة - من ١٨٤٢ - ١٨٥٢. دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٥ - ترجمة فندي الشعّار.
٢٤ - Touma, Toufic, Paysans et Institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIII siècle à 1914, Beyrouth.
٢٥ - حتي، فيليب - لبنان في التاريخ - بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٥.
٢٦ - حمزة، نديم - التنوخيون - دار النهار للنشر، بيروت ١٩٨٤.
٢٧ - D'Ohsson, Constantin Mouradgeo, Tableau General de l'Epire ottoman - Paris 1788 - 1824 (T.VII, livres III et VII).
٢٨ - سويد، ياسين - التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين - ج ١، (١٥١٦ - ١٦٩٧)، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (ومنشورات الجامعة اللبنانية) (باللغة الفرنسية).

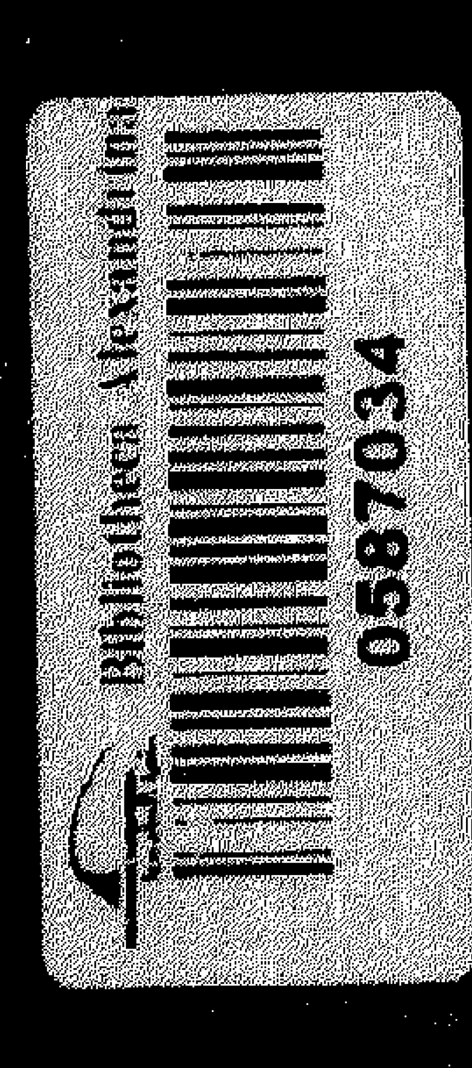
٢٩ - شبلي، ميشال - فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان ١٥٧٢ - ١٦٣٥ - منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٤.
٣٠ - ضومط، انطوان - الدولة المملوكية - التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري - دار الحداثة، بيروت، الطبعة الثانية - وكتاب: المماليك والعثمانيون وعهد السلطان سليم الأول، مكتبة حبيب طبعة أولى - بيروت ١٩٩٥.
٣١ - فريد، محمد - تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧.
٣٢ - مكي، علي محمد - لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني - دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧.
٣٣ - متولي (أحمد فؤاد) - الفتح العثماني لبلاد الشام - مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٧٦.
٣٤ - مفرّج، انطوان - لبنان الأصيل ليس طائفياً - بيوغرافيا، جبيل، ١٩٩٩.
٣٥ - مزهر، يوسف - تاريخ لبنان العام، بيروت، دون تاريخ.
٣٦ - فارس، هاني - النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان الحديث - الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٠.
٣٧ - قرألي، بولس - فخر الدين المعني الثاني، حاكم لبنان - صدر عن دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٩٢.
٣٨ - كرد، محمد علي - خطط الشام - دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٢٧، الجزء الخامس.
٣٩ - نوار، عبد العزيز سليمان - وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ - ١٩٢٠ - بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٤.
٤٠ - هشي، سليم - علي باشا جنبلاط - منشورات لحد خاطر ١٩٨٦، لبنان.
٤١ - مجلّة العرفان لأحمد عارف الزين - صيدا، ١٩١٠، المتوالة والشيعة في جبل عامل لأحمد رضا، عدد أيار.
٤٢ - LAMMENS, HENRI: La Syrie - Beyrouth - Imprimerie Catholique, 1921.
٤٣ - NANET, Jacques: Histoire du Liban, Ed. de minute, Paris, 1963.
٤٤ - ISMAIL, ADEL, Documents Diplomatiques et Consulaires, Sources Françaises - Ministre de l'Eduction Nationale - Beyrouth, 1979.
٤٥ - ISMAIL, ADEL: Histoire du Liban du XVII siecle à nos jours - Paris - Librairie Orientale, 1955.

فهرس الجزء (١٨)

فهرس الخرائط والصور

١ - الخرائط

٢ - الصور:


Bibliotheca Alexandrina
0587034